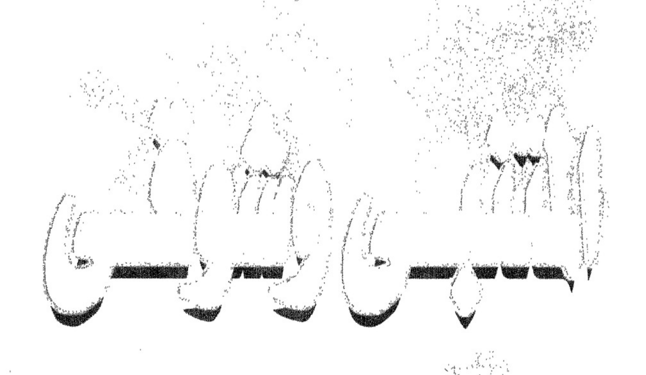




اهداءات ٢٠٠٣

الدكتور / مصطفى أمين الرفاعى
الإسكندرية

الناشــر : منشأة المعارف ، جلال حزى وشركاه
٤٤ شارع سعد زغلول – محطة الرمل – ت/ف : ٤٨٧ ٣٣٠٣ – ٤٨٥٣٠٥٥ الأسكندرية
٣٢ شارع دكتور مصطفى مشرفة – سوتير – ت : ٤٨٤٣٦٦٢ – ٤٨٥٤٣٣٨ الأسكندرية
الإدارة : ٢٤ شارع ابراهيم سيد احمد – محرم بك – ت/ف : ٣٩٢٢١٦٤ الأسكندرية
Email : monchaa@maktoob.com

الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية :

اسم الكتاب : المتنبى وشوقى

اسم المؤلف: الدكتور /مصطفى الرفاعى

رقم الايداع : ٢٠٠٢/٤٩٢٩

الترقيم الدولى ISBN: 5 - 0988 – 03 – 977

التجهيزات الفنية:

جمع كمبيوتر وتصميم غلاف:سلطان كمبيوتر ت:٥٤٤٥٦١٤

طباعة : مطبعة سامى

المتنبى وشوقى

تأليف الدكتور
مصطفى الرفاعى

٢٠٠٢ م

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه

إهداء

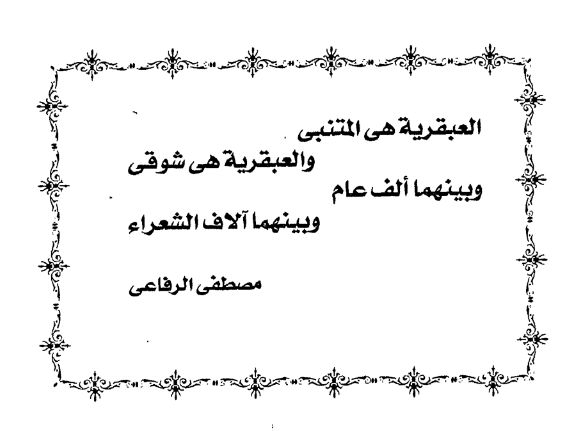
إلى زوجتي الفاضلة التي فضلت التفرغ الكامل

لأعباء الأسرة على العمل بالجامعة

ولولا صبرها ومثابرتها لما أمكنني إنجاز هذا الكتاب

ولا غيره من إنتاجي العلمي والأدبي

المؤلف



العبقرية هى المتنبى

والعبقرية هى شوقى

وبينهما ألف عام

وبينهما آلاف الشعراء

مصطفى الرفاعى

المقدمـــة

منذ نعومة أظافرى وأنا أهيم بالشعر وأتذوقه وأحفظه بسهولة وبلا عناء وأعتقد أنّ الشعر وليس القصة ولا غيرها هو ديوان العرب، لا جدال في ذلك، فقد حَفَظْت القصيدة العربية تراث العرب الأدبي والتاريخى، وحافظت على اللغة فليس من السهل الخروج على بيت الشعر بلفظ أو بمعنى ليس فيه، فبيت الشعر مُحَصّن بوزن وقافية وموسيقى شعرية لا يمكن اختراقها أو تغييرها. يقول العقاد: (إنّ بيتا واحدا من الشعر يعطيك أكثر مما تعطيه قصة طويلة)... مثل:

وقد تَعَوضْتُ علي كُلّ بمشبهه ... فما وجدت لأيام الصبا عِوضاَ

والقصيدة العربية لايدانيها قصيدة في أى لغة أخرى من لغات الأرض، فاللغة العربية غنية بألفاظها ومفرداتها ومعانيها، فأعطت الشعر مصدرا من اللغة لا ينضب، فالأسد على سبيل المثال له عشرات الأسماء، وبعض هذه الأسماء تدل على صفات في هذا الأسد دون غيره! "فَوَرْدٌ" مثلا يدل على الأسد التي تكون لون مَعْرِفته تميل إلى الإحمرار، "وهِزَبْرٌ" يدل على الأسد القوى، والأمثلة على ذلك كثيرة في كثير من المسميات أما فى اللغة الإنجليزية والفرنسية فللأسد اسم واحد Lion، وكذلك في سائر اللغات الأوروبية.

وقد ترك لنا الشعراء العرب، والشعراء الذين يتكلمون بلغة الضاد تراثا شعريا خالدا ردّدَتْه الأجيال المتعاقبة، وسوف تردده الأجيال اللاحقة أبد الدهر يقول شوقي :

إن الذي ملأ اللغات محاسنا ... جعل الجمال وسرّه فى الضاد.

وقد نبغ كثيرٌ من الشعراء وفاقوا غيرهم في العصور المختلفة وأصبحت أقوالهم وحكمهم يُستشهد بها مئات السنين.

لكن العبقرية شيء آخر، فهى سر مكنون يعطيه الله لمن يشاء من عباده، وهذا العطاء وهذا الاصطفاء لا يوهبه الله إلا لماما.

قرأت لكثير من الشعراء في العصور المتعاقبة ولكنى كنت ولازلت أردد أن العبقرية هى المتنبي، والعبقرية هى شوقى وبينهما ألف عام وبينهما آلاف الشعراء. وعندما توجهت إلى هذين العَلمين الشامخين، شعرت بالرهبة دون الخوف، وبالتأنى دون الترددْ، وبالزهو دون الغرور، وكيف لا، فالكتابة عنهما شرف وأى شرف.

وكنت قد لاحظت تشابها بين هذين العبقريين في كثير من ظروف عصريهما وسلوكهما في الحياة. فعصر المتنبي كان عصر اضطراب وفتن (القرن الرابع الهجرى في حكم الدولة العباسية) . كما كان عصر شوقي عصر اضطراب في الحكم بعد فشل الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ واحتلال الإنجليز لمصر ثم إعلان الحماية البريطانية عليها. وفي هذا العصر أيضا انهارت الخلافة الإسلامية في تركيا، وسقطت الدول العربية والإسلامية تحت نير الإحتلال.

وكما كان عصر المتنبي من عصور الأدب الزاهرة، كان هناك أيضا نهضة أدبية رفيعة في الوطن العربي في عصر شوقي فظهر البارودي واسماعيل صبري وحافظ إبراهيم وبشارة الخوري والمويلحي والمنفلوطي وطه حسين والعقاد وجبران وغيرهم. ولكن المتنبي وشوقي كانا علي قمة عصريهما، لم يَرْقَ إليهما أحدا، فاقت شهرتهما أفاق الدولة الإسلامية، المتنبي كان سلطانا غير متوج وشوقي كان أميرا لشعراء العربية - كلاهما كُتِب عنه عشرات الكتب على مّر السنين، كلاهما كان يَعْتَدْ بنفسه ويتمسك برأيه ويدافع عنه، وكلاهما أوذى من أجل ذلك، فالمتنبي أدخِل السجن ثم اضطر إلى ترك موطنه ورحل إلى مصر، وشوقى أُبعد إلى المنفى - ولكن المتنبي قاسى كثيرا وكانت حياته مملوءة بالعناء والقلق والاضطراب.

كلاهما كان يشعر بعبقريته فافتخر بنفسه:

يقول المتنبي في رثاء جدته:

وإن لم تكوني بنت أكرم والدٍ[1]
فإن أباك الضخم كَونك لي أمّا

ويقول شوقى في رثاء جدته:

ر... لم تظهري في العُرْب إلا ...[2]
بأحمد كنت خير الوالدات

وَجَدّته لم تكن مسلمة ولم تكن مصرية، ولكنها تمصرت وأسلمت وحسن إسلامها.كلاهما كان يشعر بالكبرياء، ولكن ربما يكون المتنبي قد تجاوز الكبرياء إلى الكبر.

---

(١) ديوان المتنبى ١٧٤

(٢) الشوقيات الصحيحة ج٣ - ٤٢

يقول المتنبي :

لا بقومي شَرُفْت، بل شَرُفُوا بي.. وبنفسي فخرت لا بجدودي(*)
أنا في أمة تداركها اللـــــ ...ــــــه غريب كصالح في ثَمُودِ

كلاهما هُوجم من النقاد بدون وجه حق، وربما يرجع ذلك، في المقام الأول إلى حقد النقّاد على كليهما.

كلاهما كان متمكنا من اللغة، عالما بقواعدها، عليما بالنحو والصرف وأسرار البلاغة.

كلاهما مدح الملوك والأمراء وكلاهما هوجم من أجْل ذلك وكان المتنبي يمدح مع احترامه لنفسه واحتفاظه بكرامته.

كما كان شوقى يمدح الملوك والأمراء لما أنجزوه من إصلاحات "محمد على، إسماعيل، إبراهيم،فاطمة اسماعيل التى أنشأت جامعة القاهرة". وكانت إذا تعارضت مصالح القصر مع مصالح الشعب، انحاز شوقى بلا تردد إلى جانب الشعب وإلى دُستور الشعب.

كلاهما كان يدافع عن وطنه وأمته الإسلامية. المتنبي كان يحارب بقلمه وسيفه - هاجم بقلمه الموالى الفرس والأتراك الذين سيطروا على مقاليد الحكم وحّرض على الثورة ضدّهم، فأدُخل السجن - وحارب الروم بسيفه وقلمه مع سيف الدولة الحمداني.

وشوقى كان يحارب بقلمه فلم يكن من رجال السيف، حارب الإنجليز وحارب الاستعمار في كل الوطن العربي والإسلامي وحرض على الثورة، فنفاه الإنجليز من مصر.

(*) ديوان المتنبى ١٩.

يقول:

وهيبتُكَ غير هيّاب يراعا ... أشدّ على العدوّ من الحُسَامِ[١]

كلاهما كتب في الحكمة أبياتا خالدة رددها وسوف يرددها الناطقون بالعربية أبد الدهر

يقول المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذي[٢]

حتي يراق علي جوانبه الدم

إلا يذكرنا هذا البيت بموقف مصر في معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ التى انتصرنا فيها على إسرائيل.

ويقول شوقى محرّضا السوريين على الثورة:

وللحرية الحمراء بابٌ ... بكل يدٌ مُضَرَّجةٍ يُدَّقُ[٣]

كلاهما اضطر إلى مغادرة وطنه

المتنبي رحل إلي مصر عندما فقد رعاية سيف الدولة، وقاسى فى غربته وكتب في مصر قصائد مميزة.

وشوقى نفى من مصر وأبعد إلى أسبانيا كما أبعد عَنْ عباس حلمى الثانى الذى عُزِل عن العرش، وكتب شوقى باقةً من أجمل قصائده في الأندلس في المنفى ولاشك أن قسوة البعد عن الوطن، أعطى كليهما القوة والصلابة والقدرة على تحمل المشاق.

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج١ - ٢٤٩ دكتور مصطفى الرفاعى- منشأة المعارف بالاسكندرية -سنة ٢٠٠٠ .

(٢) ديوان المتنبى ٥٧١ دار صادر للطباعة والنشر ببيروت ١٩٦٤ .

(٣) الشوقيات الصحيحة ج٢ - ٧٣ .

أوجــه الخــلاف

قد أوجزنا أوجه التشابه بين حياة المتنبي وحياة شوقى ولكن كان هناك اختلاف في نشأتيهما وفى رحلتيهما في الحياة.

فشوقى نشأ ثريا ، عاش في بحبوحة من العيش، ولم يكن في حاجة للعمل لكي يحصل على رزقه - وكان أجداده من علية القوم، ومن أثريائهم - وتبوؤوا الصدارة فى وظائف الدولة.

جاب البلاد والأقطار طلبا للعلم والمعرفة، وتمتع بحياته في شبابه وكهولته.

أما المتنبي فقد نشأ فقيرا محتاجا ، وكان أبوه سقاء يسقى الناس وهى مهنة متواضعة تعود علي صاحبها بعائد قليل لا يكفى أعباء الحياة وتكالفيها . وقد عاير بعض الخصوم المتنبي بتواضع أصله ومنبته، وقد أحبط المتنبي من ذلك فلم يفخر بأسرته:

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى ... وبنفسى فخرت لا بجدودى(*)

أما شوقى فكان يفخر بجدوده فكتب عنهم في مقدمة الشوقيات في الطبعة الأولى، كتب عن أصول والده وأصول والدته.

ولاشك أن المنشأ أثّرعلى نفسية كل منهما وكان له أثرٌ واضحٌ في حياتيهما .

(*) ديوان المتنبى ٢١

حياة المتنبي

(٣٠٣-٣٥٤هـ)،(٩١٥-٩٦٥م)

ولد أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي سنة (٣٠٣هـ - ٩١٥م) في مَحِلّة كنده من الكوفة وكان أبوه يعمل بنقل الماء إلى الناس ويعرف "بعبدان السقا" ويقال إنه لم يعرف أمه، لموتها وهو طفل، فربته جدته لأمه. التحق بكتاب للعلويين في الكوفة يدرس اللغة والشعر. ثم حمله أبوه إلي الشام في صباه فأخذ كثيرا عن أئمة الأدب وحفظ كثيرا من الشعر، ورحل إلى بادية السماوة وأقام فيها سنتين، فتعلّم منها الفصاحة والبيان واللغة السليمة.

وفي الشام - أولع بالسيادة وهو فتى فثار ودَعا قوما إلى بيعته فقبض عليه الوالي ثم أطلقه - وقد أعجب الناس بشعره وفصاحته ، فلم يقنع بشهرته الأدبية فخرج إلى بني كلب ودعا إلى الدولة العربية واستبعاد الأعاجم من الفرس والترك، "ولم يَدّعِ النبوة كما أُشيع عنه"، فتبعه خلق كثيرون، فقبض عليه لؤلؤ أمير حمص وأدخله السجن سنتين ثم أطلق سراحه. مدح كثيرا من الأمراء ثم تبسم له الدهر عندما لحق بسيف الدولة الحمداني في حلب سنة ل٩٤٨م - ٣٣٧هـ.

أحبه سيف الدولة وقَرّبه، وكان سيف الدولة مقاتلا وفارسا شجاعا ، حارب الروم وردهم عن الدولة الإسلامية، كما كان المتنبي فارسا شجاعا فحارب مع سيف الدولة في معاركه العظيمة ومدحه ووصف هذه المعارك بأبلغ ما قاله من الشعر.

خذله سيف الدولة فلم يعطه ولاية يحكمها ، كما لم يدافع عنه عندما اعتدى عليه ابن خالوية في حضرة سيف الدولة كما لم يرد اعتباره[١]، فانصرف عن سيف الدولة سنة (٩٥٧م - ٣٤٤هـ) بعد أن مكث عنده تسع سنوات وسار إلى دمشق ثم ذهب إلى مصر عندما استدعاه حاكمها كافور الإخشيدى ووعده بولاية.

مكث في مصر أربع سنوات ونصف من (٩٥٧ - ٩٦٢م، ٣٤٦ - ٣٥٠هـ) مدح فيها كافور وأعلى من قدره ولكن كافور لم يف بوعده ولم يعطه ولاية يحكمها فهرب من مصر هاجيا كافور والمصريين.

ذهب إلى العراق ٩٦٢م - ٣٥٠هـ - وذهب إلي بغداد وبلاد فارس ومدح عضد الدولة بن بويه، وابن العميد. ثم رجع إلي الكوفة ورفض دعوة سيف الدولة للرجوع إلى حلب.

وفي طريق عودته، ترصّده فاتك بن أبى جهل الأسدى في دير العاقول بالقرب من بغداد في ٢٨ رمضان سنة ٣٥٤هـ ـ٢٧ أيلول سنة ٩٦٥م) فقتل المتنبي إنتقاما لهجائه لأخت فاتك[٢].

هاجمه فاتك بسبعين فارسا فلم يتراجع المتنبي وحارب ببسالة هو وابنه محسّد وغلامه مفلح ولكن كثرة عدد أعدائه نالت منه.

مات المتنبي ولكنه ظل خالدا في سماء الشعر أبد الدهر.

نُبذة عن حياته:

هناك غموض في نشأة المتنبي ونسبه، فلم يتحدث المتنبي عن أبيه وأمه ولا جهر بأجداده،واعتبر الدكتور طه حسين أن "سرا من الأسرار يكتنف

(١) شعراء العرب والإسلام أبو الطيب المتنبى ٥٢

(٢) شعراء العرب والإسلام أبو الطيب المتنبى ٨

حياته ويحيط بأسرته وأن مولده كان شاذا وقد أدرك هذا الشذوذ فتأثر به في سيرته كلها"(*)

ولكن المتفق عليه أنه نشأ في بيت فقر وبؤس، وقد استغل خصومَهُ تواضع أصوله فأمطروه بقصائد مقذعة مؤلمة. ولكن المتنبي تجاهلهم.

كانت ثورة المتنبي ثورة سياسية ولم تكن ادعاءً للنبوة، فكيف يدّعي النبوة من لا يؤمن بالسماء، وربما كانت تهمة ادعاء النبوة قد لُفقت له حتى تبرر سجنه فقد شعر الحكام بخطر دعوته السياسية.

كان المتنبى وفيّا لأصدقائه فالوفاء صفة لازمته طوال حياته:

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا ... لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

وحتى عندما حاول صديقه أبو العشائر اغتياله لم يهاجمه وغفر له هذه الخطيئة:

فإن يكن الفعل الذى ساء واحداً ... فأفعاله اللائى سُرِرْنَ ألوفُ

كما كان المتنبي ذا نفس عالية، وكان ذا كبرياء وكان يرى نفسه من الملوك وربما يراها أعلى منهم قَدْرًا - فلم يقبل أن يقف أمام سيف الدولة ويُقَبّلْ الأرض بين يديه كباقي الشعراء ورجال الدولة.

وعندما طلب منه سيف الدولة أن يعود إليه اعتذر عن العودة، كبرياؤه فرضت عليه ذلك. ولقد رفض المتنبي مدح كثير من الأمراء والحكام الذين طلبوا منه أن يمدحهم، فأغضبهم ، ولكن المتنبي أصرّ على موقفه، مُتحمّلا في ذلك كثيراً من الصعاب.

ربما كان خطؤه الوحيد هو رحيله إلى كافور الإخشيدى ومدحه له، ثم هجاؤه. فالمتنبي لم يكن يحترم كافوراً ولذلك جاءت بعض قصائده باهته اللون وربما تعنى هجاءً لا مدحا كما سنبين - ولقد أعطى المتنبي الفرصة لحاسديه أن يهاجموه ويحرجوه لموقفه مع كافور الإخشيدى.

* مع المتنبي طه حسين ٢٥ - دار المعارف بمصر.

عصر المتنبي

ما رَأى الناسُ ثانيَ المتنبي ... أيّ ثان يُرى لبكر الزمان

"أبو القاسم مظفر بن على"

ولد المتنبي (٣٠٣ هـ - ٩١٥م) في محله كنده من الكوفة وتوفى في (٣٥٤هـ (٢٤رمضان) - ٩٦٥م (أغسطس) وكان عمره خمسين عاماً، ولم يكن أحمد بن الحسين يسعد بهذه التسمية ولكنها التصقت به حتى أصبح اسمه الحقيقى منسيًا .

كان المتنبي زعيم الشعر في عصره - على درجة عالية من الثقافة والمعرفة، أخذ العلم على أئمة عصره، وكان أكثر تمكنا في اللغة وعلوم النحو من علماء اللغة في عصره مما أثار حفيظتهم عليه.

ومما يدلّ على تمكنه من قواعد اللغة أن الشيخ "أبا على الفارسى" صاحب الإيضاح سأله كم لنا من الجموع علي وزن "فِعْلى" فقال له المتنبي "حَجْلى، وظَرْبى" فقال الشيخ فطالعت كتب اللغة ثلاث ليالٍ على أن أجد لهذين الجمعين ثالثًا، فلم أجد" وحَجْلى: جمع حَجَل وهو طائر وظَرْبى: جمع ظَربان وهو حيوان صغير كريه الرائحة(*).

ولم تكن الأمة العربية في حالة استقرار في هذا العهد (القرن الرابع الهجرى) فقد كانت الدولة العباسية في حالة وهن وضعف، وكانت الفتن والدسائس سِمةَ هذا العصر. وقُسّمت الدولة العباسية إليى دويلات شتى بنو الإخشيد في مصر والشام، وبنو حمدان في حلب والجزيرة وبنو بويه في فارس، والقرامطة في البحرين وعمان واليمامة والسامانيه في خرسان وما

(*) فى عالم المتنبى ٢٤ الدكتور عبد العزيز الدسوقى- دار الشروق القاهرة-بيروت١٩٨٤

وراء النهر.

فضلا عن دويلات صغيرة في فارس. وكانت الأمور غير مستقرة وربما حدثت حروب ومواجهات بين هذه الدويلات كما حدثت بين كافور الإخشيدي وسيف الدولة الحمداني.

وبالرغم من هذا الاضطراب السياسى فإن هذا العصر (الرابع الهجرى) كان من أزهى عصور الأدب والعلم وعلوم التاريخ والطب والطبيعة والفلك والفلسفة والجغرافيا، فقد ظهر في الطب معجزة الأمة الإسلامية الشيخ الرئيس ابن سينا مؤلف كتاب القانون في الطب والشفاء في الفلسفة، وأبو بكر الرازى رائد الطب السريرى وصاحب الحاوى، وأبو القاسم الزهرواى من الأندلس رائد الجراحة الحديثة ومؤلف كتاب التصريف والحسن بن الهيثم، وظهر الفيلسوف الفارابى، والشيخ أبو على الفارسى من علماء اللغة صاحب الإيضاح والتكملة، وابن خالوية عالم اللغة، وابن دُرَيْد والسراج وابن فارس من أئمة النحو والبلاغة ، والجنيد والحلاج من أئمة المتصوفين، كما ظهر الفضل ابن العميد الذى قيل فيه "بدأت الكتابة بعبد الحميد وخُتمتْ بابن العميد"، والصاحب بن عباد من فحول الأدباء

كما بلغ الشعر مبلغا عظيما وكان المتنبي هو إمام شعراء عصره بدون منازع، وقد عاصره مجموعة كبيرة من شعراء ذوى قامات عالية وعلى رأسهم الأمير أبو فراس الحمدانى، والسرىّ الرفّاء، وابن نُبَاتَه السعدى، والسّلامَى وابن هانئ الأندلسى، كما نظم الشعر الكبار والصغار والمثقفون والأميون وكأن الدولة قد تحولت إلى سوق من الشعر كسوق

عكاظ. وقد كان للخليفة العباسى الراضى بالله ديوان مُدوَّن، وكان سيف الدولة وعضد الدولة شاعران، كما كان كثير من الأمراء والوزراء من كبار العلماء والأدباء. كما نظم فقيه شافعى قصيدة طويلة ذكر فيها أخبار العالم وقصص الأنبياء بلغت آلاف الأبيات، كما نظم الشعر أميّا يجهل الكتابة والقراءة، اسمه نصر البصرى وكان الناس يزدحمون عليه للاستماع لشعره الجزل، وقد جمع أحد الشعراء شعره في ديوان، ومن ظريف نظمه قوله:

رأيت الهلال ووجه الحبيب ... فكانا هلالين عند النظر[١]
فلم أدر من حيرتي فيهما ... هلال الدجي من هلال البشر
ولولا التورُّدفى الوجنتين ... وما راعني من سواد الشعر
لكنت أظن الهلال الحبيب ... وكنت أظن الحبيب القمر

وبلغ إنتشار الشعر حداً حتي أن شواهد القبور كتب عليها أبياتٌ من الشعر بها تعاليم للدين الإسلامي والتذكير بالحساب والجنة والنار وقيام الساعة والبعث.

وقد قرّب الخلفاء العباسيون الموالى الفرس إليهم لينَظّموا دواوين الحكومة، فصار منهم الوزراء والقواد والعمال والكتاب والحجاب، فسيطروا بذلك على مقاليد الحكم، فَشَعر العرب بالغُبن والظلم ولم يقبلوا هذا الوضع فهم يَرون أنهم أصحاب الحق في هذه المناصب.

كما أن الأتراك استولوا على العراق وخرجوا على السلطان وربما يكون المتنبي من أوائل من ثاروا علي هذه الأوضاع، فقد كان صغير السن دون

---

(١) أبو الطيب المتنبي حياته وشعره، ٥٥ المكتبة الحديثة للطباعة والنشر- بيروت ١٩٨٢ .

العشرين من عمره يحمل بين جوانحه حماسة الشباب وطموحا لا حدود له، فجمع حوله كثيرا من أعراب بني كلب ينقل إليهم أفكاره من رفض تسلط الأتراك والموالى الفرس على العراق والذى أطلق عليهم "دولة الخدم"

والشاعر يشعر بما لا يشعر به الناس، ويرى من الأحداث قبل أن يراها عامة البشر، فهو المعبر عن آلام وآمال وطنه، وهو الموجِّه إلى طريق النضال وسبيل التحرر. أما عن مقاومة الشعر فطوال عصور مضت كانت القصيدة هى الطريقة الأولى للتعبير عن المقاومة - حتى بين الصوفيين، وتمت كل المسميات والقضايا وفى خلال كل اللغات، بل وفى لحظات التاريخ الحاسمة كان الشاعر هو الذى يبدأ المقاومة من خلال قصيدته، وقد ظهر هذا بوضوح في مقاومة الاضطهاد والظلم تحت كل أشكاله السياسية والاقتصادية والأيدلوجية، ولعل ما كتب من شعر عن ألوان الظلم في سرايبفو وعن أطفال الحجارة في فلسطين أصدق مثال على ذلك.

ثار المتنبي في صباه على نظام الحكم:

بكل مُنْصلتٍ مازال منتظري ... حتي أدلتُ له من دولةِ الخدَم[1]
شيخٌ يري الصلوات الخمس نافلةً ... ويستحِلُ دمَ الحجاجِ فى الحرمِ

ثم يهدد هؤلاء الأتراك بَلْ ويهدد الملوك!

لقد تَصَّبرتُ حتي لات مُصطبَرٍ ... فالآن أقحمُ حتي لاتَ مُقتحمِ
ميعادَ كل دقيق الشفرتين غدا ... ومن عَصي من ملوك العُرْب والعَجمِ
فإن أجابوا فما قصدي بها لهم ... وإن تَولوا فما أرضي لها بهمِ

(١) ديوان المتنبي، ٣٦ .

ثم يتمادى المتنبي في هجومه على هؤلاء الموالى ويحقرهم في قصيدة أخرى:

أحقّ عافٍ بدَمْعك الهممُ ... أحَدثُ شيء عهداً بها القدَمُ[١]
وإنما النـّاس بالملوكِ وما ... تـُفلحُ عُرْبٌ ملوكُها عَجَم
لا أدبٌ عندهم ولا حَسَبٌ... ولا عُهُودٌ لهُمْ ولا ذِمَمُ
بكل أرض وطئتُها أممٌ ... تُرعى بعبد كأنها غنمُ
يَستخشِنُ الخزَّ حين يَلْمُسُهُ ... وكان يُبْرَي بِظُفْرِه القلم

ويري الدكتور عبد العزيز الدسوقى[٢] أن القصيدة التى قالها المتنبي في صباه "دولة الخدم" تعبر عن تجربة الثورة في نفسه وهى تعكس صورة لأفكاره الثورية الأولى التي لا يستبعد أن تكون مزيجا من القرمطية وبعض أفكار الشيعة وهى أصداء تسربت إليه من المحيط الثورى الذى يحيط به في الكوفة وبادية "سماوه" التى أقام بها فترة في صباه. وكان هدف المتنبي بعث الدولة العربية وأعاده أمجاد الإمبراطورية الإسلامية.

فالمتنبي كان ثائرا على نظام الحكم الذى كان يرى أنه جائر، وكان يرمى إلى تغييره وتطهيره من الأتراك والفرس. وكان لابد للدولة من أن تتحرك، وسلطة الدولة كانت في أيدى الموالى الذى يهاجمهم ويهددهم المتنبي ويرمى إلى القضاء عليهم، فلابد أن تأخذ الدولة موقفا عنيفا منه وتبالغ في التهم التى توجهها إليه فتتهمه بإدعّائه النبوة، لتبرر العقوبة وهذا شيء كثير

(١) ديوان المتنبي، ٩٣ .
(٢) في عالم المتنبي. ٣٩ .

الحدوث فلا جديد تحت الشمس.

والخليفة ربما يكون له وجهة نظر في الاستعانة بالموالى الفرس، فالفرس ذوى خبرة في تنظيم الدواوين، وهذه الخبرة يفتقدها العرب ولا يمكنهم أداؤها.

وقد اتهم الأستاذ العقاد وبعض النقاد المتنبي بادعاء النبوة(١)، واستشهدوا ببعض أبيات للمتنبي كقوله عن نفسه إنه "مثل صالح في ثمود" أو "كالمسيح بين اليهود" لترجيح رأيهم، ولكننا نرى أن المتنبي قصد بهذه الأقوال التعالى على من حوله من الجهلاء ومن بُغَاث الشعراء الذين لا يعترفون له بالعبقرية، وقد قال المتنبى:

أنا تِرْبُ النَّدي وربُ القوافي ... وسِمامُ العدَي وغَيظ الحَسودِ(٢)

أنا فى أمّةٍ تداركها اللـ ... ـه غَريبٌ كصالحٍ فى ثمودِ

فالمتنبي يقول "إنه ربُّ القوافى" فهو يضع نفسه في أعلى مرتبة في مجال الشعر ولم يقصد أنه نبيٌّ له رسالة، فالمسألة واضحة لا تحتاج إلى جدال ،كما أن التشبيه والمبالغة شيء كثير الورود في الأدب والشعر العربي كتشبيه الشجاع بالأسد والكريم العظيم بالعَلَم ولا يُستبعد أن يأتى ذلك من المتنبى الطموح المتعالي الذى يرى نفسه من نفوس الملوك. وشوقى عندما رثى رياض باشا قال:

خُلقت كأنني عيسي حرامٌ ... علي قلبي الضغينة والشمّات(٣)

ولم يقل أحداً إن شوقى ادّعى النبوة.

---

(١) أبو الطيب المتنبى حياته وشعره ٩٦

(٢) ديوان المتنبى ١٩

(٣) الشوقيات الصحيحة ج٣ ٤٦

ويقول الأستاذ العقاد في هذه القضية، قضية ادّعاء النُبُوة، "فقد ثبت أن الرجل حُبس، فإذا كان حبسه في فتنة أثارها فقد بقى على الذين يجزمون ببراءته من دعوى النبوة، أن يُبِّينوا لنا كيف أطاعه بنى كلب، وكيف استطاع هو أن يحركهم إلى الفتنة بغير الشَعْوذة والحيلة الدينية"[١]

وقد بينّا أن تحريك المتنبي لبنى كلب إلى الفتنة وإلى طاعته، كان للثورة على سيطرة الموالى الفرس والأتراك على مقاليد السلطة، وعلى استبعاد العنصر العربي عن المشاركة في الحكم، ألا يكفى أن يكون ذلك مبررا للثورة! وقد قالها المتنبي بكل صراحة

بكل مُنْصَلِتٍ مازال منتظري ... حتي أدَلْتَ له من دَولةِ الخَدم[٢]

والعربي بطبيعته متكبر يرى نفسه في منزلةٍ سامية، فهو الذى حمل رسالة الإسلام ونشرها، وهو الذى فتح هذه الأمصار وأرسى قواعد الدولة الإسلامية، فهو يرى نفسه عربيا، وأما غيره من هذه الشعوب فيطلق عليهم "الأعاجم" سواء كانوا تركا أو فُرسا فكيف يقبل أن يتحكم فيه هؤلاء الأعاجم، الذين دمّروا الدولة وقضوا على وحدتها. وكان هَدف المتنبي بعث الدولة العربية وإعادة أمجاد الخلافة العربية.

والعربي في هذا السلوك شأنه شأن الروماني الذي كان يرى أنه السيد الحاكم، أما ماعداه من هذه الشعوب المحكومة فهم (البرابرة)...Barbers سواء أكانوا من بلاد الغال (فرنسا) أو من الجرمان (ألمانيا).

وبالرغم من أنّ الإسلام رفض هذا التفضيل "لا فضل لعربي على عجمى

(١) مطالعات في الكتب والحياة، ص ١٢٢ .

(٢) ديوان المتنبى ٣٦

إلا بالتقوى" إلا أنّ تَعَالي الجاهلية كان لا يزال في نفوس العرب... فضلا عن أن الخلفاء كانوا يفضلون الأعاجم على العرب، فأين هى المساواة التى أمر بها الإسلام!

وليس من المنطق في شئ أن يُقَال إن المتنبي ادّعى النبوة، فكيف يدّعى النبوة ومن لا يسجد للصلاة ولا يصوم، ولا يكن له صلة وثيقة بالسماء، وقد قال في شبابه:

أى محل أرتقي ... أي عظيم أتْقَّي
وكل ما خلق الله ... وما لم يَخْلِقِ
محتقرٌ فى همَّتى ... كشعرة فى مفرقي

ويعلق الأستاذ على أدهم[١] على هذه الأبيات "في هذه الأبيات يمتزج الطموح المتطرف وفرط الثقة بالنفس باحتقار الخليقة بأسرها وهى تَرْوِى عن شعور رجل أجال بصره فلم ير شيئا جديرا بإجلاله"..

ويتمادي المتنبي في هدا الاتجاه:

ولو برز الزمان إليّ شخصا ... لخضّب شعر مَفْرِقِه حسامي[٢]

فالمتنبي كما نرى يحتقر ما خلقه الله، فكيف يُقْنع الناس بأنه نبّى مُرسل ويطلب منهم أن يتبعوه.

فثورة المتنبي كما بَيَّنا كانت ثورة سياسية ولم تكن فتنة دينة وادعاءً للنبوة كما قال الاستاذ العقاد ومعظم النقاد.

كما أن المتنبي كان لا يقبل أن يُوصف بهذا الاسم وكان يرفضه ولا يطيقه

(١) أبو الطيب المتنبي - حياته وشعره، ٨٩

(٢) ديوان المتنبى ٥١

المتنبي في السجن وفي رحلة الضياع

أُدخل المتنبي السجن، وكان لابد له من أن يدخله، فقد عارض سلطة الدولة وحّرض الناس على تغيير نظام الحكم، وهدد بقتل من يَقف في طريقه:

والسجن مذّلة ومهانة ولكن المتنبي لا يتراجع عن تعاليه فيقول:[1]

كن أيها السجنُ كيف شئتَ، فقد
وَطّنْتُ للموتِ نفسَ مُعْتَرِفِ

لو كان سُكنَايَ فيكَ مَنْقَصَةً
لم يَكنِ الدُّرُّ ساكنَ الصَّدَفِ

ولكنه لم يحتمل قَسْوة السجن وهو في مقتبل العمر، فتنازل عن كبريائه وكتب إلى أمير حمص رجاءً لكي يعفو عنه، فاستجاب الأمير وأطلق سَراحه بعد سنتين من السجن:

أمالِكَ رِقّي ومن شأنُهُ ... هِباتُ اللُّجين، وعِتْقُ العبيدِ[2]
دَعَوتُك عند انقطاع الرجا ... ء والموت منّي كَحَبْلِ الوريدِ
دعوتُك لما براني البِلَي ... وأَوْهَنَ رِجْليّ ثِقَلُ الحديد
وقد كان مشيُهُما في النعال ... فقد صار مشيهما في القيودِ
وكنتُ من الناس في مَحْفلٍ ... فها أنا في مَحْفلٍ من قرودِ

---

(١) ديوان المتنبي، ٥٢ .

(٢) ديوان المتنبي، ٥٤ .

فاستجاب الأمير له وأطلق سراحه.

وتمر السنون ويتعرض المتنبي لمحنه أكبر من محنة السجن عندما يضطر إلى أن يغادر حلب، ويترك أميره العربي وصديقه ومثله الأعلى سيف الدولة الحمدانى.، ويرحل إلى مصر في ٣٤٦هـ - ٩٥٧م إلى كافور الإخشيدى، وكان هذا الرحيل هو خطأ حياته، فكيف يترك سيف الدولة إلى كافور الذى كان المتنبي لا يحترمه ولا يقتنع به.

ربما يكون للمتنبي بعض العذر، فسيف الدولة لم يُعطه حقه ويُوليه ولاية، كما لم يرّد اعتباره عندما اعتدى عليه ابن خالويه (وهو عالم من علماء اللغة)، وشج رأسه، فلم يُحّرك سيف الدولة ساكنا، وترك المتنبي ينصرف من مجلسه ودماؤه تسيل على وجهه، فغادر حلبْ ورحل إلى كافور الإخشيدى الذى كان قد ألحّ عليه للحضور لمصر ووعده بأن يُوليه ولاية، ولكن كافور لم يَفِ بوعده، فأصبح المتنبي في حالة ضياع وندم، وأصبحت مصر بالنسبة له كالمنفى، ربما كان في البداية منفي اختياريا ولكنه لم يلبث أن صار منفى إجبارياً عندما منعه كافور من مُغادرة مصر، "والنفى حال من عذاب جَهَنّم" كما يقول شوقى. ولم يلبث المتنبي أن هرب من مصر إلى رحلة الضياع فلم تستقر له إقامة حتى قُتل في ٣٥٤ هـ - ٩٦٥م

وطالما ناشد المتنبي سيف الدولة أن يعطيه حَقَّه:

يا أعدل الناس إلا فى معاملتي . فيك الخصام وأنت الخصم والحكم[١]

أعيذُها نظرات منك صادقة ... أن تَحْسَبَ الشحم فيمن شحمة وَرَمُ

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم

(١) ديوان المتنبي ٣٣١ .

ثم يفخر المتنبي بنفسه، ويقول لسيف الدولة من أنت حتى تعاملنى هذه المعاملة وتتجاهلنى!

أنا الذي نظر الأعمي إلي أدبي ... وأسْمَعَتْ كلماتي من به صممُ
أنامُ ملءَ جُفُوني عن شوَارِدِها ... ويَسْهرُ الخلق جَرّاها ويَخْتَصِم
الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفُني ... والسيفُ والرمحُ والقرْطاسُ والقلمُ

ثم يبين له أنه سوف يتركه ويرحل:

صَحبْتُ في الفلواتِ الوحشَ مُنفردًا ... حتي تَعَجَّب منّي القُورُ والأكَمُ
إذا تَرَحّلْتَ عن قَوْمٍ وقد قَدَرُوا ... ألا تُفارِقَهمْ فالرّاحِلون هُمُ

ولم يستجب سيف الدولة فرحل المتنبي.

وتمر السنون ويشعر سيف الدولة بالذنب فيكتب إلى المتنبي بخطه يستدعيه فيرد عليه المتنبي:

فَهمتُ الكتاب أبرَّ الكتب ... فسمعا لأمر أميرِ العربْ(*)
وما عاقني غيرُ خوفِ الوُشاةِ ... وَإنّ الوشايات طُرَقُ الكذب

ولكن المتنبي لم يعد، فقد أبت عليه كرامته أن يعود بعد الإهانة التى لحقته عند سيف الدولة... وبعد هروبه من مصر...

وياليته كان قد عاد، وكفى نفسه شرّ الهوان والضياع.

(*) ديوان المتنبي ٤٣٧ .

ديوان المتنبى:

كان المتنبي حريصا على تدوين وجمع قصائده، وكان يكتبها ويصححها في دفاتر يحملها معه في كل أسفاره. كما كتب شرحا وافيا لمعانيها وما صَعُب فهمه من الأبيات - وكان يؤرخ قصائده بكل دقة ويكتب لها مقدمات لتوضيح المناسبات التى نظمت فيها، كما قام عشرات من النقاد والأدباء في العصوركافة حتى عصرنا هذا علي تحقيق الديوان وشرحه.

وأشهر شُراح الديوان هم(*) :

ابن جنّى (القرن العاشر الميلادى) - الواحدى (القرن الحادى عشر الميلادى) ،أبو العلاء المعرى (القرن الحادي عشر الميلادى) ابن عدلان (القرن الثالث عشر الميلادى)، الشيخان نصيف وإبراهيم اليازجى (القرن التاسع عشر).

وقد طبع الديوان للمرة الأولى - تاما مع شرحه في كلكاتا في الهند سنة ١٨١٤م (١٣٣٠هـ) وطبعت أول طبعة في لبنان ومصر في سنة ١٨٦٠م.

وكان أول من عرف المتنبي من المستشرقين ونشر له مقطعا مع ترجمة حياته سنة ١٦٥٦ جُليوس (Gulius) ،وفي القرن التاسع عشر نقل شعره إلى لغات الغرب رايسك، وسلفستر دى ساس، وهامربرجستال، ونيكلسون وبلاشير وغيرهم".

وقد بلغت عدد القصائد في الديوان ٢٨٩ قصيدة بها ٥٤٩٠ بيتا من الشعر. وأهم هذه القصائد هى "السيفيات" نسبة إلى سيف الدولة الحمدانى، ويبلغ عدد هذه القصائد أربعة وسبعين قصيدة تقع في مائة واثنتين وتسعين

(*) أبو الطيب المتنبي شاعر الطموح والعنفوان، ص٢٤ جوزيف الهاشم- دار المفيد.

صفحة.

وأغلب هذه القصائد كانت وصفا للمعارك التى دارت بين سيف الدولة والروم وهى تفيض بالحماسة والقوة وقد اشترك المتنبي في أغلبها.

وقد بلغ عدد أبيات قصائد المدح والهجاء في ديوان المتنبي ٣٥٣٩ بيتاً ولكن ليست كل هذه الأبيات مدحا أو هجاء ففى القصيدة الواحدة نجد أبياتا للحكمة والوصف والغزل، فالقصيدة متعددة الأغراض - فأبيات المدح في هذه القصائد بلغت ٢١٦٩ بيتا وهى تشكل ٣٩,٥ في المائة من عدد أبيات الديوان وليست تسعين في المائة كما قال بعض النقاد - وأغلب أبيات المدح قيلت في مدح سيف الدولة الذى كان يمدحه كقوة حربية حَمَتْ الدولة الإسلامية.

أما أبيات الهجاء فكان عددها ١٢٠ بيتا من الشعر فقط، وهى تشكل ٢,٢٪ من عدد أبيات الديوان (٥٤٩٠) وهوعدد قليل جدا لا يبرر ما قيل على أن المتنبي كان هَجَّاء، وربما أن وصفه بهذه الصفة جاء من أنه هجا كافور الإخشيدى بقصائد هزلية تضحك الثكالى، كما أنه قُتل من أجل قصيدة هجاء خرج فيها عن اللياقة، قالها في أخت فاتك الأسدى فقتله. (عدد الأبيات التى قالها في هجاء كافور واحد وسبعون بيتا فقط).

عدد الأبيات في قصائد المتنبي

للمتنبي قصائد لا تتجاوز عدة أبيات، وقصائد طويلة تبلغ في متوسطها أربعين بيتا، وأطول قصيده له بلغت ٦٨ بيتا، وهى قصيدة "الموت اضطرار"[١] .وقد قالها في وصف معركة حربية شنّها سيف الدولة على بعض القبائل التى خرجت على النظام.

---

(١) ديوان المتنبى ٣٩٨

وقصائد المدح في شعر المتنبي متعددة الأغراض فليست كلها مدحاً بل ربما تكون عدد أبيات المدح فيها محدودة. وسأقدم قصيدة "كل عزيز للأمير ذليل"كمثل لذلك"[1]، فقد صُنِّفَت هذه القصيدة في ديوان المتنبي كقصيدة في مدح سيف الدولة، وهذه القصيدة قالها المتنبي في وصف مَعْركة "درب القلة" التي انتصر فيها سيف الدولة على جيوش الروم بقيادة (الدمستق) في جمادى الآخرة من عام ٣٤٢ هجرية، وقد اشترك المتنبي في القتال فى هذه المعركة، وتبلغ هذه القصيدة ستة وستين بيتاً من الشعر، وهى من أطول قصائده، بدأها المتنبي بالغزل فى أحد عشر بيتاً، مقلدا لشعراء العرب القدامى، ويصف المعركة الحربية في خمسة وثلاثين بيتاً، ويفتخر بنفسه كشاعر ومقاتل في اثنى عشر بيتا، ويمدح سيف الدولة في ثمانية أبيات فقط! أى حوالى ١٤٪ من القصيدة، فكيف تُحْسَب هذه القصيدة على أنها قصيدة مدح!. ألا يستحق سيف الدولة أن يُمدح في ثمانية أبيات، فقد مدحه المتنبي كقوة عسكرية حمت الدولة الإسلامية، فليس هذا المدح مدحا شخصيا.

بدأ المتنبي القصيدة بأرق أبيات الغزل، منها:

لَيَالِيّ بَعدَ الظَّاعِنِينَ شُكولُ ... طوالٌ ولَيلُ العاشقِينَ طويلُ
يُبِنَّ ليَ البدرَ الذي لا أُرِيدُهُ ... ويُخْفِين بَدْرًا ما إليه سَبِيلُ
وما عِشْتُ من بعد الأحبَّة سلوةً ... ولكنني للنّائِباتِ حَمُولُ
وما شَرَقِي بالماء إلا تَذَكّرًا ... لماءٍ به أهلُ الحبيبِ نُزُولُ

فالمتنبي يشرق بالماء عَمْدًا لكى يتذكر النبع الذى ينزل به أهل محبوبته، وهو معنى جميل لا أعتقد أن أحدا سبقه إليه.

(١) ديوان المتنبي٣٥٥ .

ولكن هدف المتنبي في الحياة هو الشجاعة والفروسية والجهاد وليس العشق والغرام، فيتعجل طلوع الفجر، ويطلب من الليل أن يسرع في الرحيل حتى ينطلق إلى القتال:

أما في النجوم السائراتِ وغيرها ... لِعيْني علي ضَوْءِ الصباح دليلُ
ألـمْ يَرَ هـذا الـليـلُ عيْنَيْكِ رؤيتـي ... فَتَظهرَ فيـه رِقّةٌ ونُحُول

فالمتنبي لا يهيم إلا بالسيف والقتال، أليس هو القائل(*).

تركْنا لأطرافِ القَنَا كلَّ شَهْوةٍ ... فَليْس لَنَا إلاّ بِهِنّ لِعَابُ
أعزُّ مكانٍ في الدُّنَي سَرْجُ سَابحٍ ... وخيرُ جليسٍ في الزّمان كتابُ

ويُشْرق الفجر وينطلق المتنبي إلى معركة "ضرب القلة" مقاتلا شجاعا، فيصف المعركة وصف الشاعر الموهوب والفارس الشجاع.

يصف الخيول المنطلقة كالسهام، والسيوف التى تنقّض على العدو كالمطر المنهمر:

رَمَي الدّرْبَ بالجُرْدِ الجياد إلي العِدي ... وما عَلِموا أنّ السّهامَ خُيولُ
سَحائبُ يُمْطُرنَ الحديدَ عليهِمُ ... فكُلّ مكانٍ بالسيوفِ غسيلُ

ويصف عبور الفرسان والجياد لنهر الفرات والمعركة التي دارت بعد العبور وسقوط قلاع الروم في أيدى الجيوش العربية:

وَرُعْن بنا قلْبَ الفُراتِ كأنمّا ... تَخرّ عَليه بالرجالِ سُيُول
يُطاردُ فيه مَوْجَهُ كلُّ سابحٍ ... سواءٌ عليه غَمْرةٌ ومَسِيلُ
تَراهُ كأن الماءَ مَرّ بجسمه ... وأقبل رَأسٌ وحْدَهُ وتَلِيلُ
طلعْنَ عليهِمْ طلعةً يعرفُونها ... لها غُرَرٌ ما تَنْقَضي وحُجُولُ

(*) ديوان المتنبي٤٧٩ .

تَمَلّ الحُصونُ الشُمُّ طُولَ نزالنا ... فتُلقي إلينا أهْلَهَا وتَزُول

وقارئ هذه الأبيات يُخَيل اليه أنه وسط معركة حربية حقيقية يسمع فيها صليل السيوف وركض الجياد ويرى فيها عبور الفرسان للنهر، والجياد التى لا يُرَى منها سوى الرؤوس والأعناق "وأقبل رأسٌ وحده وتليل" - ويبالغ المتنبي في الوصف فيقول أن الحصون مَلّت الحصار فضاقت بمن فيها من المدافعين فألقت بهم إلى المهاجمين ثم زالت من الوجود.

ولا أظن أن شاعرا قبل المتنبي، وُفِّق إلى هذا البيان. ويمدح المتنبي سيف الدولة بثمانية أبيات فقط بين السطور!، ولكنها ليست بقوة ولا ببلاغة أبيات وصف القتال أو أبيات الغزل:

فَدتْكَ ملوكٌ لم تُسَمَّ مواضِياً ... فإنكَ ماضِي الشَفْرَتَين صقيلُ
إذا كان بَعضُ النّاسِ سَيْفًا لدولةٍ ... ففي النّاسِ بُوقاتٌ لها وطُبُولُ
همامٌ إذا ما همّ أمضَى هُمُومَهُ ... بأرْعَنَ وَطْءُ الموتِ فيهِ ثَقيلُ

ولا ينهى المتنبي هذه الملحمة التى لا يمكن تصنيفها إلا فى أدب الحرب والقتال والتى تذكرنا بإلياذة هوميروس، لا ينهيها المتنبي إلا بالفخر بنفسه في اثنى عشر بيتا من الشعر في الفخر والحكمة، والتى رددها الناس لأكثر من ألف عام وسوف يرددونها أبد الدهر ... منها

أنا السابِقُ الهادى إلي ما أقُولُهُ ... إذِ القوْلُ قبلَ القائلينَ مَقُولُ
وما لِكَلامِ الناسِ فيما يُرِيبُني ... أُصولٌ ولا للقائليهِ أُصولُ
ولا تَطْمَعَنْ فى حاسدٍ من مودةٍ ... وإن كُنتَ تُبْدِيها لهُ وَتُنيل
يَهُونُ علينا أن تُصَابَ جُسُومُنَا ... وتَسْلَمَ أعراضٌ لنَاَ وَعُقُول
فإن تَكُنِ الدّوْلاتُ قِسْماً فإنها ... لمن وَرَدَ المَوْتَ الزّؤامَ تَدُولُ

لِمنْ هَوَّن الدنيا على النفس ساعةً ... وللبيض فى هامِ الكُماةِ صَلِيلُ

فلم يكن المتنبي مدّاحاً للأمراء كما قال عنه بعض النقاد، بل كان رفيق سلاح لسيف الدولة يخوض معه المعارك فيصفها، ويصف شجاعة سيف الدولة في القتال ويفتخر بنفسه، فكيف يوصف المتنبي في مثل هذه القصيدة بأنه مداحٌ؟ والمتنبي يحترم سيف الدولة ويُبجّلهُ لأنه الحاكم العربي الوحيد في الدويلات العباسية، والمتنبي كما ذكرنا لا يحترم الحكّام من الموالي الفرس أو الترك.

تاريـــخ حيـــاة شوقـــي

ولد في القاهرة في أكتوبر سنة ١٨٦٨م وليس هذا التاريخ مؤكدا إذ أن شهادة الليسانس أثبت فيها أنه ولد سنة ١٨٧٠، وتوفي في القاهرة في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ . تعلم في مكتب الشيخ صالح سنة ١٨٧٣ ثم مدرسة المبتديان ثم المدرسة التجهيزية، ثم المدرسة الخديوية وتخرج فيها سنة ١٨٨٣ وكان عمره ١٥ عاما، وقد أظهر تفوقا في الدراسة فمنح المجانية مكافأة له، ثم درس سنتين في مدرسة الحقوق ثم التحق بقسم الترجمة عام ١٨٨٥ لمدة سنتين، مُنح بعدها الشهادة النهائية في الترجمة سنة ١٨٨٧ - وكان يتقن اللغة الفرنسية والتركية - وكان له إلمام باللغة الإسبانية التى تعلمها عندما نفى إلى أسبانيا.

سافر في بعثة إلى فرنسا في عام ١٨٩١، في جامعتى مونبلييه وباريس لمدة ثلاثة أعوام وعاد إلى مصر عام ١٨٩٣ .

نفى إلى أسبانيا ١٩١٥ لمهاجمته الإنجليز والسلطان حسين كامل.

أعيد إلى مصر عام ١٩٢٠ بعد انتهاء ثورة ١٩١٩ حيث أُسْتقبل استقبالا شعبيا. توفى في أكتوبر سنة ١٩٣٢ وحزن عليه الشعب المصرى والشعب العربى من الخليج إلى المحيط.

نبذة عن حياته:

عنصر تركى وشركسى وعربي وكردي ويونانى.

جده لوالده: أحمد الذي حضر إلى مصر في عصر محمد على، وكان يحسن العربية والتركية - ضمه محمد على باشا إلى حاشيته وأصبح أمينا

للجمارك المصرية في عهد "سعيد باشا" وتوفى عن ثروة واسعة.

جده لوالدته: أحمد حليم النجدة لى - دخل مصر شابا في عهدد إبراهيم باشا. تركى ويلدته "نجده" . تزوج "تمراز" وهي معتوقة يونانية، أسَرتْ في حرب الموره وهي بنت عشر سنوات ونشأت في القصر بين وصيفاته.

تدرج أحمد حليم حتى أصبح وكيلا خاصا لدى الخديو اسماعيل، ويقول الدكتور شوقي ضيف عن أحمد شوقي "تجمعت فيه الأصول العربية واليونانية وكلاهما غنى عن الشهرة والشاعرية".

وكما كان المتنبي متعلقا بجدته لأمه، كان شوقي أيضا متعلقا بجدته لأمه (تمراز) لأنها هي أيضا التى ربته ، وكما رثى المتنبي جدته بأبلغ ما قاله في الرثاء وقال فيها بيته الخالد مفتخرا بها وبنفسه:

وإن لم تكونى بِنْت أكرم والد ... فإن أباك الضخم كونك لي أمّا[١]

رثى أيضا شوقى جدته بقصيدة بليغة وقال فيها بيته الخالد مفتخرا بها وبنفسه:

ولو لم تظهري في العُربْ إلا ... بأحمد كنت خيرُ الوالدات

عاش شوقى في قصر إسماعيل ويقول شوقى[٢] "أخذتنى جدتى لأمى من المهد، وكانت منعمة موسرة، فكفلتني لوالدى، وكانت تحنو عليّ فوق حنوها وترى لى مخايل في البرّ مَرْجُوه. حدثتني أنها دخلت بي على الخديوي إسماعيل وأنا في الثالثة من عمري، وكان بصري لا ينزل من السماء من اختلاط أعصابه - فطلب الخديوى بَدرةً من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه، فوقعت على الذهب أشتغل بجمعه واللعب به، فقال لجدتى:

(١) ديوان المتنبي١٧٤

٢) الشوقيات الصحيحة ج١ ٤٤

اصنعي معه مثل هذا، فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر الي الأرض - قالت هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك يا مولاى. قال: جِيئى به إلىّ متى شِئْتِ، إنى آخر من ينثر الذهب في مصر.

ونلاحظ في تعليق جدة شوقى الروح الشاعرية التي تتمتع بها والتى ربما يكون شوقى ورثها منها.

ويستطرد شوقى "ولا يزال هذا الارتجاج العصبى في الإبصار يعاودنى وكان المرحوم الشيخ على الليثى كلما التقت عينه بعينى ينشد هذا المصراع للمتنبي

محاجر مسك رُكّبت فوق زئبق

ساعده على باشا مبارك فعين والده عليا مفتشا بالخاصة الملكية وعين شوقى من بعده.

أمضى في بعثته إلى فرنسا سنتين في جامعة مونبلييه، وسنتين في جامعة باريس، وحصل على شهادته الدراسية بعد ثلاث سنوات من الدراسة،عاد إلى مصر وعيّن في قلم الترجمة بالقصر وعاش في القاهرة في منزل أبيه بالحنفى ثم نقل سكنه إلى المطرية (كرمة ابن هانى) حتى يكون قريبا من قصر القبة.

تقرب إلى الخديوى عباس حلمى الثانى، فاحتضنه الخديوى وكان شوقى به معجبا ومؤازرا له - وعندما نُفِيّ من مصر سنة ١٩١٥ لمهاجمته للسلطان حسين كامل وللإنجليز، اختار اسبانيا منفى له ليعيش في رحاب حضارة العرب في الأندلس.

أقام في أسبانيا في ضاحية جميلة من ضواحي برشلونة ترتفع كثيرا عن سطح البحر (فلفدديرا)، كتب أروع قصائده الوطنية وقصائده عن الأندلس في المنفى، وعارض ابن زيدون بقصيدتة المشهورة "يانائح الطلح أشباه عوادينا".

عاد من المنفى ولكنه لم يعد إلى القصر، فانطلقت شاعريته بلا قيود، وأخذ يرفرف حراً طليقا.

بنى في الإسكندرية بيتا أسماه "دُرّة الغواص" وكان يتردد إليه.

زاره طاغور شاعر الهند عام ١٩٢٦ - إختير عضوا في مجلس الشيوخ.

أعاد طبع ديوانه عام ١٩٢٧، ونُصّب في هذه السنة أميرا لشعراء العربية في حفل كبير حضره شعراء من كل الوطن العربي.

ثم طُبع الجزء الرابع من ديوانه بعد وفاته سنة ١٩٤٢، وأعيد طبع الديوان مرارا في سنوات ١٩٤٣، ١٩٥٠، ١٩٥٢، ١٩٥٤، ١٩٥٦، ١٩٧٠ وتكرر طبعه بعد ذلك . اشترك بقلمه في تأييد سوريا ولبنان وليبيا في ثوراتها الوطنية ، وهاجم الاستعمار في كل الدول العربية، وكان يَعُدُّ الوطن العربي وطنه الكبير.

وعاش بين طبقات الشعب المصرى فشعر بشعورهم وتكلم بلسانهم ودافع عن حقوقهم....

عصـــــر شوقـــي

أما شوقى فيختلف مع المتنبي في طبقته الاجتماعية فقد نشأ في أسرة ثرية، وكان أجداده من علية القوم فلم يكن في حاجة إلى المال أو إلي الجاه، وإذا كان شوقى قد اختلف عن المتنبي في نشأتيهما إلا أنه تشابه معه في أشياء كثيرة، ففضلا عن ثقافة شوقى التى نهلها في مصر وفرنسا، فإنه كان عليما بأسرار اللغة العربية، متمكنا من علم النحو والبلاغة، يمتلك ثروة لغوية قلّما امتلكها غيره من الشعراء"* كما تشابه مع المتنبى في العصر الذى نشأ فيه، فإذا كان عصر المتنبي عصر فتن واضطراب، فإن عصر شوقى كان عصر قلاقل وحروب وثورات، فقد سقطت فيه الدول العربية والإسلامية تحت نير الاستعمار الأوربي وسقطت الخلافة الإسلامية في تركيا التي كانت ملاذ المسلمين ورباطهم، واشتعلت ثورات في العالم العربي في مصر وسوريا ولبنان رفضا للاستعمار.

وكما ثار المتنبي على تسلط الموالي على مقاليد الحكم واستئثارهم بمناصب الدولة وحرمان العرب منها وضعف الخلفاء العباسيين، ثار شوقى علي حرمان المصرين من خيرات بلادهم، وتفضيل الأجانب عليهم، كما ثار شوقى على مصطفى كمال والأتراك لإسقاطهم الخلافة الإسلامية ولتخلفهم العلمي ولتقاعسهم عن مجاراة العصر الذي يعيشون فيه.

كما هاجم شوقي الاستعمار في كل الوطن العربي، وحرض على الثورة، وهاجم الملوك والسلاطين، هاجم سعيد باشا للغبن الذى حل بمصر من شق قناة السويس، وهاجم السلطان حسين كامل الذى قَبِلَ الحماية البريطانية

(*) شوقي زكي مبارك ص ٢٥٢

علي مصر كما هاجم الإنجليز وكان لابد للسلطة من أن توقفه، فنفاه الإنجليز من مصر لمدة خمس سنوات - ألا نرى تشابها كبيرا بين شوقى والمتنبي كلاهما يثور وكلاهما يُسْجن أو ينفى.

وكما صاح المتنبي من قسوة السجن، صاح شوقى من ألم البعد عن وطنه في المنفى، فيخاطب الشاعر الأندلسي ابن عباد "نائح الطلح" فيقول له إننا في القهر سواء...

يا نائح الطلح أشباه عوادينا ... نأسي لواديك أونأسو لوادينا[1]

ماذا نَقُصُّ عليك غير أن يدًا ... قصّت جناحك جالت فى حواشينا

فإن يك الجنس يا ابن الطلح فرّقنا ... إنّ المصائب يجمعن المصابينا

ويكتب إلى حافظ إبراهيم وقد برحه الحنين إلى مصر:

يا ساكني مصر إنّا لا نزالُ علي ... عهد الوفاءِ وإنْ غِبْنَا مُقِيمينا[2]

هلا بَعثتمْ لنا من ماءِ نهركمو ... شيئًا نَسُدُّ به أحشاء صَادينا

كلّ المناهلِ بعد النيلِ آسنةٌ ... ما أبعدَ النيلَ إلا عنْ أمانينا

ومن الواضح أن إنجازات شوقى الشعرية في المنفى كانت أغزر وأكثر من إنجازات المتنبي في السجن الذى لم يقض فيه سوى سنتين. أما شوقى فقد قضى في المنفى خمس سنوات أبدع فيهم، وكتب باقة من أجمل قصائده (أندلسيات) يمجد فيها حضارة العرب في الأندلس ويبكى على زوالها، ويبث حنينه إلى وطنه..

كان المتنبي يحارب بقلمه وسيفه، يحارب الروم دفاعا عن الأمة الإسلامية، وشوقى يحارب بقلمه فقط فلم يكن رجل سيف ولكنه تصدى بقلمه لأعداء مصر والأمة العربية.

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج٢ ١٠٣

(٢) الشوقيات المجهولة ج٢ ١٦٥

وهبتك غير هيّاب يَراعاً... أشدّ على العدوّ من الحُسَام(١)

كلاهما كان قويا وشجاعا، ذو مبادئ سامية وعقيدة راسخة وحتى بعد عودة شوقي من المنفى سنة ١٩٢٠ لم يتراجع عن مهاجمة الإنجليز والقصر من أجل الدستور ومن أجل حقوق الشعب المصرى والشعوب العربية.

يقول شوقي في حرمان أبناء الوطن من خيراته وتفضيل الأجانب عليهم:

أحرام علي بلابله الدَوْحُ ... حلالٌ للطير من كل جنس (٢)

كلُّ دار أحقُ بالأهلِ إلاّ ... فى خبيث من المذاهب رِجس

ثم يقول بيته الخالد:

وطني لو شُغِلْتَ بالخلد عنه ... نازعتني إليه فى الخُلدِ نفسي

ألا يذكرنا ذلك بما قاله المتنبي من حرمان العنصر العربي من خيرات الدولة وتفضيل الموالي عليهم.

ويهاجم مصطفى كمال والأتراك لإسقاطهم الخلافة الإسلامية:

نَزَعوا عن الأعناق خير قلادةٍ ...ونَضَوْا عن الأعطاف خير وشاح(٣)

وعلاقة فصمت عُرَي أسبابها ... كانت أبّر علائق الأرواح

نَظَمَت صُفوف المسلمين وخَطْوَهُمْ ... فى كلّ غدوةِ جُمعةٍ ورواح

ثم يقول عن مصطفى كمال:

أفتي خزعبلةً وقال ضلالةً ... وأتى بكفرٍ فى البلاد براح

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٤٩.

(٢) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٤٣ .

(٣) الشوقيات الصحيحة ج١، ١١٤ .

أدُّوا إلى الغازى النصيحة ينتصح ... إن الجواد يثوب بعد جماح

ويهاجم الأتراك لتخلفهم العلمي واعتمادهم علي السيف ويحذرهم من ذلك:

هذا الزمان تناديكم حوادثه ... يا دولة السيف كونى دولة القلمِ(١)

فالسيف يهدم فجرا مابني سَحَراً ... وكل بنيانِ علمٍ غيرُ منهدمِ

وهاجم شوقى الخديوي عباس حلمي الثاني ولم يتردد في تقريعه على تقاعسه عن إعلاء شأن الملك، الذى يستمد عظمة البلاد وأبهتها، من هنا جاءت صيحات شوقى للنهوض بالبلاد واستعادة حرياتها وطرد المحتل:

هذه مصر جاءها الدهر يسعي ... وهو يا طالما جفاها وصدّا (٢)

ليس للدهر من وفاء ولكن ... هاب فيه العباس أنْ يستبدا!

صاحب النيل فى البرية إيهِ ... حرّر النيل للبرية وردا

وارفع الصوت إن عصركُ حرٌ ... لن يرى من سماعٍ صوتك بُدّا

قل لراج أن يسترقّ يراعي ... أنا لا أشترى بذا التاج قَيْدَا

ويقول الدكتور محمد صبرى ليست هذه لغة رجل القصر ولكن هى لغة الشاعر الحّر الذى لا يخضع إلا لملاك الشعر "هاب فيه العباس أن يستبدا"، حرّر النيل، وارفع الصوت.

ولا يكتفى شوقى بذلك بل يعلق غير هيّاب أن القلم وحرية القلم أعلى قدرا من التاج وأعلى قدرا من السيف وهي حكمة بالغة كنا ولا زلنا نحتاج إليها".

وهاجم شوقى سعيد باشا والى مصر لشق قناة السويس وما أصاب مصر من الغبن من دخل القناة:

---

(١)الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٦٧.

(٢) الشوقيات المجهولة ج١ ص ١٥٢ . نشرت في الأهرام في ١٨ مارس سنة ١٨٩٣ .

جمع الزاخرين كرْهاً فلاكا ... نا ولاكان ذلك الالتقاء[1]
أحمرٌ عنداً بيضٍ للبرايا ... حِصةُ القطر منهما سوداءُ.

وفي الاحتفال الذى أقامته شركة قناة السويس بمناسبة إقامة تمثال دلسبس بمدخل القناة في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٩٩، نظم شوقى قصيدة مزّقَ فيها ستار الرياء عن هذه الحفلات رافضا الاحتفال بهذه المناسبة.

بممت (ثغر سعيد) خير محتفل ... تعيدها حفلات قيصريات[2]
والقوم فى مصر ما طافوا بملعبها ... إلا كما شهد الغرّ الرواياتِ
حتي جري الماء فى أثنائها ذهبا ... يسقي ممالك لا تُرْوي ودولات
فكل مائدة بالخلق حافلةٍ ... ومصر من خلفهم طاهي الوليماتِ
إذا المدائح فاز المحسنون بها ... فاز الكرام لدينا بالمذّماتِ

كما هاجم شوقى السلطان حسين عندما خرج عن الخط الوطنى وتعاون مع الإنجليز وقبل الحماية، وكانت هذه القصيدة سببا لنفي شوقي خارج مصر

هل كان ذاك العهدُ إلا موقفاً ... للسلطتّين وللبلاد وبِيلا[3]
يعتزّ كلُّ ذليلِ أقوامٍ به ... وعزيزكم يُلقِي القياد ذليلا
دفعت فيه الحوادثُ وانقضت ... إلا نتائج بعدها وذيولا
وانفضّ ملعبه وشاهده علي ... أنّ الرواية لم تتّم فُصولا

وصار البيت الأخير مثلا يُردده الناس فقد رفض فيه أن يكون إعلان الحماية علي مصر هو نهاية الموقف فيقول أن الرواية لم تتم ولا بُدّلها من

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٣٤ . الدكتور مصطفى الرفاعى. منشأة المعارف بالإسكندرية ٢٠٠٠م.
(٢) الشوقيات المجهولة ج١، ١٤٣ - ١٤٤ . الدكتور محمد صبرى - مطبعة دار الكتب ١٩٦١م.
(٣) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢١٠ .

نهاية أخرى، وفعلا لم تنته الرواية وتمت بقيام ثورة الشعب المصرى سنة ١٩١٩ رافضة الحماية والاحتلال.

وحتى بعد عودته من المنفى سنة ١٩٢٠ لم يتراجع عن مبدئه في محاربة الاحتلال والمطالبة بحقوق الشعب الدستورية.

فعندما تقاعس الملك فؤاد عن إقامة الدستور هاجمه بعنف

زمان الفرد يا فرعون ولّى ... ودالتّ دولة المتجبرينا (١)
وأصبحت الرعاة بكل أرضٍ ... علي حكمِ الرعيةِ نازلينا

ويقول للشعب

نلتّم جليلا ولا تُعطون خَرْدَلَةً ... إلا الذي دفع الدستور أوجلَبَا(٢)
وأقبلت عقباتٌ لا يُذَلّلِهَا ... في موقفِ الفصلِ إلا الشعبُ مُنتخِباً

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٣٢١ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٨٠ .

شوقي محرضاً على الثورة

وكما حرّض المتنبي علي الثورة ضد الموالى الفرس والترك، حرّض شوقي على الثورة ضد المستعمرين في مصر والأمة العربية، كما حرّض على الثورة من أجل الدستور والحقوق الوطنية للشعوب العربية.

ولما تملق رياض باشا اللورد كرومر سنة ١٩٠٤، تَصَدّى له شوقى وهاجمه:

خطبت فكنت خطباً لا خطيبا ... أضيف إلي مصائبنا العظام[1]
لَهَجْت بالاحتلال وما أتاه ... وجرحك منه لو أحسست دامي
فهلا قُلت للشبّان قولا ... يليق بحافل الماضي الهمام
يبث تجارب الأيام فيهم ... ويدعو الرابضين إلي القيام

فهو يحرض الشعب للانتفاضة ضد الإنجليز.

وعندما أصدرت بريطانيا تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، والذى لم يحقق أمانى المصريين كما لم يؤكد إقرار الحكم الدستورى يقول:

والصبح يظلم فى عينيك نَاصِعُهُ ... إذا سَدَلْتَ عليه الشكَّ والرِّيَبا[2]
إذا طلبت عظيما فاصبرّن له ...أو فاحشدن رماح الخَطِ والقضُبا

وفي ذلك تحريض سافر على الثورة المسلحة.

ثم ينبه الشعب المصرى ألا ينخدع بزوال الحماية البريطانية فلا يزال

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٤٩ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٨٠ .

الاحتلال قائما ، فَيُحرّض ثانية على الثورة المسلحة:

قالوا الحماية زالت قلت لاعجبٌ ... بل كان باطلها فيكم هو العجبا

رأس الحماية مقطوع فلا عدمت ... كِنَانةُ اللهِ حَزْماً يقطع الذنبا

وفي قصيدة توت عنخ آمون، يحرض شوقى على الثورة ضد الإنجليز، ويشير إلى موتمر لوزان الذي كان منعقدا سنة ١٩٢٣ ، والذى عارض فيه الإنجليز حقوق مصر الوطنية:

أتعلم أنهم صَلَفُوا وتَاهوا ... وصَدّوا البابَ عنّا مُوصدينا(١)

ولو كنّا نَجرُّ هناك سيفا ... وجدنا عندهم عطفا ولينا

فى قصيدة تكريم الطلبة الثوار الذى أفرج عنهم سعد زغلول سنة ١٩٢٤ ، يتمسك شوقى بجلاء الإنجليز التام عن مصر ويُحرّض على الثورة:

يا مصر أشبال العرين ترعرعت ... ومشت إليك من السجون أسودا(٢)

وَجَد السجينُ يداً تحطم قَيْدَهُ ... من ذا يُحطمُ للبلاد قُيودا

يا فتيةَ النيلِ السعيدِ خذوا المُدَى ... واستأنفوا نَفَس الجهادِ مديدا

الهدُم أجمل من بناية مصلحٍ ... يبني علي الأُسُسِ العتاقِ جديدا

ويقول: ودَعْوي القَوِي كدعَوْي السِباع ... من النابِ والظُفرِ بها برهانها(٣)

ويُحرّض الشعب المصري على الثورة من أجل الدستور سنة ١٩٢٦ :

هو هيكلُ الحرية القانى له ... ما لِلهياكل من فِديً وأضاحِ(٤)

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٣١٩ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ١٣٣ .
(٣) الشوقيات الصحيحة ج١، ٣١٣ .
(٤) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١٥٢ .

يُبْني كما تُبْنى الخنادقُ في الوغي ... تحت النبالِ وصوتها السَّحَّاح
وجواهرُ التيجانِ مَا لم تُتَّخَذْ ... من مَعْدِنِ الدستور غيرُ صحاحِ
صوت الشعوب من الزئير مُجْمَعًا ... فإذا تفرّق كان بعض نِباحَ

وفي قصيدة الحرية الحمراء، والموسيقى الشعرية بها كأنها دقات طبول الحرب:

في مهرجانِ الحقّ أو يوم الدَم ... مهجٌ من الشهداء لم تتكلمِ[1]
يوم النضال كستك لونَ جمالها ... حُرّيةٌ صَبَغَتْ أديمَك بالدمِ

ويحرض شوقى السوريين على الثورة ضد الاستعمار الفرنسى، فكلنا في الهم شرق:

وللأوطان في دمِ كل حرّ ... يَدٌ سَلَفَت ودَيْنٌ مُستَحِقُ[2]
وللحريّةِ الحمراء بابٌ ... بكلِّ يدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

ويقول:

بني سورية التئموا كيوم ... خرجتمْ تَطْلبون به النزَالا[3]
دَعُوا في الناس مفتونًا جباناً ... يقول الحربُ قد كانت وبالا
وكونوا حائطا لا صَدْع فيه ... وصَفًّا لا يُرَقَّع بالكسالي

وهى حكمة كنا ولا زلنا نحتاج إليها.

وكما كان عصر المتنبي من عصور الأدب والشعر الزاهرة، كان عصر شوقى من أزهى عصور الأدب والشعر في مصر والوطن العربي، وهذه

(١) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١٨٦ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٧٣ .
(٣) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١٨١ .

النهضة لم تسبقها نهضة مذكوره بعد الركود الذى أصاب الأدب والشعر العربى فى أعقاب الدولة العباسية. فقد ظهر في هذه الحقبة شعراء وأدباء مجيدون، ففى مصر ظهر البارودى الذى أعاد للشعر العربى مكانته بعد عصور من التخلف، كما ظهر إسماعيل صبرى وحافظ إبراهيم وحفني ناصف وعلى الجارم، وأحمد زكى أبو شادى، ومحمد عبد المطلب وأحمد محرم ومحمود غنيم وكثيرا من أبلغ من نظموا بالعربية.

وفي لبنان ظهر مطران، وبشارة الخورى، وفى العراق الزهاوى والرصافى، وفى تونس الشابي، ومن الكتاب المويلحى والمنفلوطى، وطه حسين وتوفيق الحكيم والعقاد من مصر وجُبْران من لبنان.

وهذه ظاهرة فريدة، وبعيدة عن التَوقُّع، فكيف يزدهر الأدب في كلا العصرين بالرغم من الظروف السياسية السيئة التى يمر بها العالم العربي في كلا العصرين، فهل هذا الازدهار هو صيحة الغضب وصوت الثورة يطلقه الشعراء، فالشعراء يرون ما لا يراه جموع البشر ويشعرون بما لا يشعر به عامة الناس...

ولابد أن نقف هنا قليلا ونفكر في ظهور العبقريات التى لا تظهر إلا كل ألف عام، فقد ظهر المتنبي ومرّ ألف عام حتى ظهر شوقى.

ولابد لظهور العبقرية أن تسبقها قمم مضيئة وأعلام ساطعة - تمهد وتُبَشّر بقدومها- وقد كانت هذه القمم والأعلام هم هؤلاء الشعراء العظام الذين التفوا حول كل من المتنبي وشوقى كالكواكب حول القمر، وكالقواد الكبار حول قائدهم الأعلى، فليس من المستساغ أن يظهر العبقرى في عصر من التخلف، وبين جمع من الضعفاء، وشوقى يقول:

كـــــالشُــــــهـبِ بالبـــــــدر أو كـــــالجُنـدِ بالعلم

فالمتنبي كان شاعر العربية الأكبر علي شعراء كبار وشوقى كان أميرا على باقة من أبلغ شعراء العربية.

شعر شوقى

أ- الشوقيات

١- أحمد شوقي الجزء الأول من الشوقيات سنة ١٨٩٩، وأعيد طبعه سنة ١٩١١ .

٢-أحمد شوقي الجزء الأول طبعة جديدة سنة ١٩٢٦خ (السياسة والتاريخ والاجتماع).

٣- أحمد شوقي الجزء الثاني سنة ١٩٣٠ (الوصف والنسيب ومتفرقات).

٤- أصدر الأستاذ محمود أبو الوفا الجزء الثالث بعد وفاة شوقى سنة ١٩٣٥، وهو ديوان المراثى.

٥- أصدر الأستاذ محمد سعيد العريان الجزء الرابع سنة ,١٩٤٣ (متفرقات في السياسة والتاريخ والاجتماع) .

أعيد طبع الديوان مراراً داخل وخارج مصر ٥٠، ٥٢، ٥٦، ٧٠ .ولا تزال الطبعات تتوالى حتى الآن(*).

٦- للأسف شُوِّهَ الديوان منذ طبعه سنة ١٩٥٦ وما يليها بحذف ٦٠٣ بيتا من الشعر من الجزء الأول.

٧- أصدر الدكتور مصطفى الرفاعى الأجزاء الأربعة تحت اسم

(*) فى رحاب شوقى ٢٧٧ الدكتور مصطفى الرفاعى منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٩٦ .

الشوقيات الصحيحة سنة ٢٠٠٠ وفي هذه الطبعة أصلح التشويه وطُبعت الشوقيات كاملة بدون إنقاص...(*)

ب- الشوقيات المجهولة:

للدكتور محمد صبرى فى جزئين ١٩٦١ - ١٩٦٢م.

جـ - مسرحيات شوقى الشعرية:

- قمبيز.
- مصرع كليوباتره.
- عنترة.
- مجنون ليلى.
- على بك الكبير.
- الست هدى.
- البخيلة.

د - كتاب دول العرب وعظماء الإسلام.

نثر شوقى

كَتَبَ شوقى ستة كتب نثرية وهى:

١- مسرحية أميرة الأندلس.
٢- رواية لادياس أو آخر الفراعنة.
٣- رواية الآس.
٤- شيطان بنتاءور.
٥- أسواق الذهب.
٦- فتح مصر.

وكتاب أسواق الذهب من النثر المسجوع وهو من أبلغ ما كُتِبَ من النثر العربى ولكن لم يصل إلينا نثراً للمتنبى يُجمْع عليه الرواه.

(*) الشوقيات الصحيحة ج١:٢٩. الدكتور مصطفى الرفاعى منشأة المعارف بالإسكندرية ٢٠٠٠م.

نبـذة عـن الشوقيــات

١- والشوقيات هى ديوان شوقى، وهى القصائد التى جمعها شوقى قبل وفاته، والتى جُمعتْ بعد وفاتِه، وسُجلت في أربعة أجزاء:

	عدد الأبيات	عدد الصفحات	عدد القصائد
الجزء الأول السياسة والتاريخ والاجتماع	٣٩٠٠	٣٤٢	٦٨
الجزء الثانى الوصف والنسيب	٣١٦٨	١٩٢	١٠٨
الجزء الثالث المراثى	٢٢٤٠	١٩٦	٥٩
الجزء الرابع متفرقات في السياسة والتاريخ والاجتماع	٢٨٤٧	٢١٩	١٠٨
	١٢١٥٥	٩٤٩	٣٤٣

ويبلغ عدد هذه القصائد ٣٤٣ قصيدة، أما عدد الأبيات فبلغ ١٢١٥٥ بيتا من الشعر.

٢- الشوقيات المجهولة:

وهى جزءان كبيران أصدرهما الدكتور محمد صبرى السوربونى سنة ١٩٦١، سنة ١٩٦٢ بهما مائة وثلاثون قصيدة، أو حوالى أربعة آلاف بيت من الشعر، مضاف إليها ألف بيت من مقطوعات وأبيات متفرقة لم يسبق نشرها في الشوقيات، مع دراسة دقيقة عن مصادرها وشرح مستفيض.

٣- المسرحيات الشعرية:

وهى قمبيز، مصرع كليوباترة، وعنترة، ومجنون ليلي، وعلى بك الكبير والست هدى، والبخيلة وتبلغ ٦٤٨٦ بيتا من الشعر.

فيكون مجموع أبيات الشعر التى نظمها شوقى وسجلت له حوالى ٢٣٦٤١ بيتا من الشعر ولا أعتقد على قدر علمى، أنّ شاعرا في العربية نظم هذ العدد من أبيات الشعر. ولشوقى أيضاً كتاب "دول الإسلام" وهو من التاريخ القصصى صاغه شوقى فى شعر سهل يشيد فيه بمجد الإسلام وأبطاله، ولم يعاد طبعه.

وليس هذا كل ما نظمه شوقى من قصائد أو أبيات فلا يزال تكتشف بين الحين والآخر قصائد وأبيات لم تنشر من قبل، وعلى سبيل المثال لا الحصر قصيدته التى نظمها لتقديم كتاب كليلة ودمنة بالشعر للأستاذ عبد الحميد ترّه سنة ١٩٣٠[١]

أما عن عدد أبيات القصائد، فلشوقى قصائد قصيرة، وقصائد متوسطة الطول، وقصائد طويلة. وأطول قصيدة له هي قصيدة "كبار الحوادث في وادي النيل [٢] بلغت ٢٩١ بيتا من الشعر. ومن قصائده الطويلة قصيدة صدى الحرب ٢٦٠ بيتا، وقصيدة نهج البردة ١٩٠ بيتاً، وقصيدة النيل "من أى عهد في القرى تتدفق" بلغت ١٥٧ بيتا، وقصيدة الهمزية النبوية بلغت ١٣١ بيتا، وقصيدة الأندلس الجديدة ١١٦ بيتا.

وعلى قدر علمى لم أجد شاعرا تجاوز هذا العدد من الأبيات في قصائده، ذات القافية الواحدة.

(١) ومطلعها: بيان ابن المقفع عاد شعرا ... وفصّل بالحقيقة والصواب
أتى عبد الرحيم به فصولا ... روائع في التحاور والخطاب.
ديوان شوقى للأطفال - دار المعارف القاهرة ١٩٨٤ .

(٢) القيت في المؤتمر الشرقى الدولى في جنيف في سنة ١٨٩٤ .

نظم شوقى شعره على الأسلوب القديم بما فيه من المقدمات الغزلية والخمرية ولم يخرج عن الإطار التقليدى للقصيدة شأنه في ذلك شأن المتنبي.

ولعل هذا الأسلوب كان من العوامل التى جعلت لشعر شوقى وشعر المتنبي مكانة خاصة عند الشعب العربي حتى اليوم - أدخل شوقى فنونا جديدة في الشعر مثل الشعر التاريخى والشعر المسرحى والشعر الفكاهى - ونظم فى كل أغراض الشعر وكان المدح على قمتها - ولكن المدح الذى نَظَمَهُ شوقى كان مدحا سياسيا في المقام الأول فقد مدح الملوك والزعماء والأمراء لما أنجزوه لمصر من خدمات كما مدح الترك كقوة تحمل شرف الخلافة الإسلامية. كما مدح كثيرا من النابغين من أبناء مصر مثل على باشا إبراهيم رائد الجراحة، والسيد نصير بطل العالم في رفع الأثقال - ومن واقع إنسانيته نظم كثيرا من قصائد الرثاء يظهر فيها الحزن الصادق والأسى.

بدأ شوقى في نظم الشعر وهو في الرابعة عشرة من عمره، وهو في ذلك مثل المتنبي الذى نظم الشعر في صباه، فكلاهما ظهرت عبقريته في صباه.

وكان أستاذ شوقى الشيخ حسين المرصفى، وهو أستاذ البارودى أيضا هو الذى يُوَجِّه شوقى، ويرشده، ،عندما نظم شوقى وهو صغير هذين البيتين في الحكمة أعجب بهما الشيخ كثيرا وبَشَّره بمستقبل في الحكمة غزير[1].

قصاري العيش أن يذ ... هب إنْ حلوا وإن مُرّا
فإن شئت فَمُتْ عبدا ... وإن شئتَ فَمُتْ حُرّا

وقد كان شوقى معجبا بأدباء فرنسا، وقرأ لهم الكثير وعلي الأخص

(١) أحمد شوقى والأدب العربي الحديث ١٦٦ .

فكتور هوجو، فقد كان يحفظ ديوانه عن ظهر قلب، كما تأثر بالفرد دى موسيه ولامرتين ولافوتين، ولكن شوقى كان يفضّل شعراء العربية ويرى أنهم أبلغ من نظم الشعر بين شعراء الدنيا:

سائل بني عصرك هل منهُم ... من لبس الإكليل بعد الإكليل(١)
وأيهّم كالمتنبى امرؤ ... صوّاغ أمثال عزيز المثيل
والله ما (موسيه) وليلاته ... وما (لمرتين) ولا (جيرزِيل)
أحق بالشعر وبالهوي ... من قيسِ المجنونِ أو من جميل.

وكان شوقى معجبا أيّما إعجاب بالمتنبي، يقول "نشأت أحبه، وتشربت بشعره الذى كنت أحفظه كله تقريبا" كما كان فيكتور هوجو أحبُ الشعراء الفرنسيين إليه، يقول شوقي "وأجد بين هوجو والمتنبي شبها كبيرا من حيث سُمُوْ الخيال والانفراد، إذْ ارتفعا كلّ في لغته".

كما كان شوقى معجبا بالبحترى، وربما يرجع ذلك إلى سهولة ورقّة أسلوبه، ونبوغه في الشعر الوصفى الذى كان شوقي يجيده، ويسير في خطاه على طريق البحترى في جمال التعبير وتميز الموسيقى الشعرية، يقول شوقى فى مدح الخديوى توفيق:

أحييت فى فضل الملوك وعزّهم ... ما مات من أم الخلافة جعفر
إن الذى قد ردّها وأعادها ... فى بردتيك أعاد فِيٍّ البحتري

وكان شوقى وفيا لأساتذته ومن علمه يقول "أستاذى الوحيد الذى أعد نفسي مدينا له هو الشيخ حسين المرصفى صاحب "الوسيلة الأدبية"، وتتلمذت سنتين لحفنى بك ناصف، وهما أستاذاي حقيقة اللذان استفدت منهما.

(١) الشوقيات المجهولة ج٢، ١٧٢ جزأين: الدكتور محمد صبرى- مطبعة دار الكتب١٩٦١-١٩٦٢ .

الديـــن والإيمـــان في شعـر المتنبـــي

لم يكن المتنبي مُتَديّنا، فلم يكن يصوم ولم يسجد للصلاة كما كان لا يقرأ القرآن. وقد لا يُؤدّى أحدٌ من الناس فريضة الصلاة والصوم لكسل في طبعه أو لانشغاله بأعباء الحياة وتكاليفها، ولكنه يكون مؤمنا فهو يشهد بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، كما يؤمن برسله وكتبه وباليوم الآخر... ولكنى لا أعتقد أن المتنبي كان قويّ الإيمان.

فلقد نشأ المتنبي في عصر شك واضطراب، ضَعفت فيه العقيدة، ووهن فيه الإيمان بين الناس، فضلا عن أن شخصية المتنبي وفكره كانا بعيدين كل البعد عن روح الدين ، والإيمان بالبعث والخلود، فهو يرى أنّ "الموت ضربٌ من القتل" - الموت الذى أراده الله سبحانه وتعالى وقال (لِكُلّ أجل كتاب)، - (وإنما نميتكم لنحييكم).....

ولا يُناقش المتنبي قضية ما بعد الموت، فهي لا تعنيه، فالموت عنده هو نهاية المطاف فلا ذكر ولا ذكرى ولا بعث ولا حساب!

فالمتنبي يميل إلى المذهب المادى الذى يرى أن جسم الإنسان نَبت من الأرض وأن رُوحه نزلت من الجو... ولابد من الموت ولابد من أن يَرجع الإنسان إلى مَنْبته(*):

نحن بَنَوُ المَوْتي فما بالُنَا ... نَعَافُ ما لا بُدَّ من شربه
تَبْخَلُ أيدينا بِأرْوَاحِنَا ... علي زَمَانٍ هيَ من كَسْبه
فهذه الأرواحُ من جَوِّه ... وهذه الأجسامُ من تُربِه

(*) ديوان المتنبي ٥٥٧ .

ويشكك في خلود الروح وهي من أركان العقيدة الإسلامية:(١)

فقيل في تَـخلصُ نفس المرء سالمةً .. وقيل تَـشْرَكُ جسم المرء في العَطَبِ

ثم يضيق بهذا الجدل:

ومن تفكّرَ في الدينا ومهجته ... أقامهُ الفكر بين العجز والتَعبِ

والمتنبي متكبر لا يؤمن إلا بنفسه ولا يرى من هو كفؤاً له. ويحتقر كل الناس، بل كُلْ ما في الوجود، بل الوجود نفسه!!...(٢)

أي مَحَلٍ أرتقي ... أيَّ عظيمٍ أتقي

وكُلِّ ما قد خلقَ اللـه ... وما لمْ يُخلقِ

مُحتقَرٌ في همّتي ... كشعرةٍ في مفْرقي

ولو برز الزمان إليَ شخصاً ... لخضّب شعر مَفْرقه حسامي(٣)

وهذه الأبيات تبين مدى ضعف العاطفة الدينية عند المتنبي

والمتنبي عندما يمدح ينسى نفسه، فيبالغ في المدح، ويخرج عن الإيمان، الإيمان الذى لم يقتنع به يوما ما، فيرفع ممدوحه إلي مرتبة الألوهية!

تتقاصر الأفْهام عن إدراكه ... مثل الذي الأفلاك فيه والدني

ويرفع غيره إلي مرتبة النبوة:

لو كان علمك بالآله مُقسّماً ... في الناس ما بَعثَ الإله رسولا!(٤)

لو كان لَفْظك فيهمِ ما أنزل الفُرقا ... نَ والتوراةَ والإنجيلا

وفي شعر المتنبي نجد كثيراً من الأبيات يتهكّم فيها على الأنبياء وعلى ما أتَوْا به من معجزات، ولا يتورع أن يجعل حصانه يَتهكّم على سيدنا آدم!:

(١) ديوان المتنبي ٤٣٦. دار صادر للطباعة والنشر ببيروت ١٩٦٤ .

(٢) ديوان المتنبي ٤٠.

(٣) ديوان المتنبى ٥١.

(٤) ديوان المتنبى ١٤٧

يقولُ بشعبِ بَوَّانٍ حِصاني ... أعن هذا يُسار إلى الطعان[١]
أبوكم آدمٌ سَنَّ المَعَاصي ... وعلّمكُم مُفارقةَ الجِنانِ

ويتهكم علي معجزات سيدنا عيسى وسيدنا موسى:[٢]

لو كان صادف رأس عازر سيفه ... في يوم معركة لأعيا عيسي
أو كان لُجّ البحر مثل يمينه ... ما انشق حتي جاز فيه موسي

وبعد كل هذه الأبيات التى تثبت أن المتنبي ضعيف الإيمان، لا أرى أنه ادّعى النبوة، فكيف يدّعى النبوة من ليست له صلة وثيقة بالسماء ولا إيمان بقدرة الخالق، وكيف يقنع الناس باتّباعه كَنَبّى مرسل؟!

كيف يَتْبع الناس من قال في شبابه "إن كل ما خلق الله محتقر في هِمّتى"

كيف يتبع الناس ملحداً أعلن إلحاده بلا مواربه ولا إخفاء...

أما تشبيه نفسه بالأنبياء "كصالح فى ثمود" أو "كالمسيح بين اليهود". فهذه مبالغة متفق عليها في الشعر العربي كتشبيه الكريم بالبحر والشجاع بالأسد - وقد قال شوقى :

خلقت كأنني عيسي حرامٌ ... على نفسي الضغينة والشِمات

ولم يقل أحد أنّ شوقى ادّعى النبوة.

والمتنبي من واقع ضعف إيمانه، لم ينظم شعرا في الدعوة الإسلامية ولكن جاء في بعض قصائده أبيات بها أفكار إسلامية، ولا أعتقد أنّ المتنبي قصدها ولكنها أتت من جذوره الإسلامية التي يُرَدِّدْها أى مسلم في بقاع الأرض فى أى مناسبة.

---

(١) ديوان المتنبي ٥٤٢ .

(٢) على هامش الأدب والنقد ٨١ .

وقد نظم المتنبي بيتا واحدا في مدح رسول الله (صلى الله عليه وسلم)! وهو بيت ضعيف، وأعتقد أنه نظمه لكى يَنتقد الشعراء الذين يبدأون قصائدهم بأبيات من الغزل، تمثلا بشعراء العصر الجاهلى:

إذا كان مَدحٌ فالنسيب المُقَدَّمُ ... أكلّ فَصيحٍ قال شعْراً مُتيَّمُ[1]

لَحُبّ ابنِ عبد اللهِ أولي فإنّهُ ... به يُبدأُ الذكرُ الجميلُ ويُختَمُ

وعندما يهجو أحد الموالى يقول عنه إنه لا يقيم فرائض الدين، وليس ذلك لإيمان المتنبي بالفرائض ولكن لبلوغ مآربه[2] في الهجاء ؟

شَيخٌ يرى الصّلواتِ الخمسَ نافلةً ... ويستحِلُّ دمَ الحُجّاجِ فى الحَرَمِ

وفي رثائه لجدته يوجد بيت واحد به ذكر للخالق عزّ وجَلّ:

تَغَربٌ لا مستعظما غير نفسه ... ولا قابلا إلا لخالقه حُكْماَ

فهو يفخر بنفسه في الشطر الأول - ثم يرضى بحكم الله في موت جدّته، وربما تكون هذه هى المرة الأولي و الأخيرة التي رضي بها بحكم الله.

ويقول الأستاذ محمد إبراهيم سليم، إن أثر الثقافة الإسلامية يتجلّي في شعر المتنبي ويستشهد على ذلك ببضعة أبيات للمتنبي منها قوله [3] :

ولم أرَ فى عيوب الناس عيباً ... كنقص القادرين علي التمام

ويقول إن المتنبي أخذ هذا المعنى من قول الرسول (صلى الله عليه وسلم). " إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه".

---

(١) ديوان المتنبي ٢ ٣٠٢ دار صادر بيروت ١٩٦٤ .

(٢) ديوان المتنبي ٣٦ دار صادر بيروت ١٩٦٤ .

(٣) أبو الطيب المتنبي ٨٢ دار الطلائع القاهرة.

ونحن لا نرى ما رآه الاستاذ سليم، فبيت المتنبي هو حكمة سائرة يقولها الناس ،ولا أعتقد أنه اقتبسها من حديث الرسول (صلي الله عليه وسلم)، وإذا فرضنا جدلا أنه اقتبسها فقد أخذها كحكمة، وليست كحديث نبوى ولا يَدُلّ هذا علي أثر الثقافة الإسلامية في شعر المتنبي....

والمتنبى كما قدمنا لا يؤمن بالبعث والخلود فيرى أن الموت الذى فرضه الله سبحانه وتعالى على عباده "ضربٌ من القتل"!

وما الدهر أهلٌ أن تؤمل عنده .... حياةٌ وأن يشتاق فيه إلي النسلِ[1]

إذا تأملت الزمان وصرفه ... تيقنت أن الموت ضربٌ من القتل

ويأخذ أبو العلاء المعرى فكر أستاذه المتنبى ويتمادى فى عدم الإيمان:

رَيْب الزمان مُفرِّق الإلفَيْنْ ... فأحكم إلهي بين ذاك وبيني[2]

أنهيت عن قتل النفوس تَعَمداً ... وبعثت أنت لقتلها ملكين!

وزعمت أنّ لها معادا ثانيا ... ما كان أغناها عن الحالين!

ولكن المعرى لا يلبث أن يعاوده الإيمان بالله وقدرته:

وقدرة الله حقٌ ليس يعجزها ... حشرُ لجسمٍ ولابعثُ لأمواتِ

إذا ما أعظمي كانت هباءً .. فإن الله لا يعييه جمعي

ويطلب التوبة من الله عز وجلّ، فيقول فى رثاء صديق له:

لعلك في يوم القيامة ذاكري ... فتسأل ربِّي أن يخفف من إثمي

---

(١) ديوان المتنبي ٢٨١ .

(٢) تجديد ذكرى أبى العلاء ٢٩٥. الدكتور طه حسين دار المعارف القاهرة ١٩٥١م.

ولكن المتنبى لم يتراجع عن فكره.

أما شوقى فمن واقع إيمانه يرى أن الموت هو حكمة الخالق سبحانه وتعالى:

خُلقنا للحياةِ وللمماتِ ... ومن هذين كلّ الحادثات[١]

كما يؤمن بالبعث والخلود ويرى أن الموت ضرورة لصلاح الحياة:

أرى الأحياء يجمعهم نشورٌ ... وكم بُعث النوابغ يوم ماتوا[٢]

صلاح الأرض أحياءٌ وموتي ... وزينتها وأنجمها الهداةُ

وفى قوله "بعث النوابغ يوم ماتوا" أى أنهم خالدون بذكراهم والمعنى بليغ خَلّد فيه شوقى النابغين من البشر.

(١) الشوقيات الصحيحة ٤٢ .

(٢)الشوقيات الصحيحة ٤٧ .

الديــن والإيمــان
فــي شعــر شوقـــى

لـم يـكن شـوقـي شـديد الـتديـن ولكـنـه كـان عـميـق الإيمـان ربمـا كـان يـشـرب الخمر فقد قال:

رمضـان ولـيّ هَاتِهَا يا سَاقِي ... مشـتَاقَةً تسـعي إلي مُشتـاق[1]

ولكنه كما نرى كان يحترم شهر الصيام، وعندما عاتبه الشيخ الشعراوى علي هذا البيت تخلّص من هذا المأزق وقال للشيخ:

قال الله تعـالـى "والشعراء يتبعهـم الغـاوون، ألـم ترأنهـم في كلّ وادٍ يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون"

ويقـال: لما زارته السـيـدة أم كلثوم قدّم إلـيـهـا كـأساً مـن الخمر، فـرفـعـت الكأس بيدها ولم تلمسه بفمها .... فقال بيته المشهور:

سَلُوا كـــؤوس الـــطِلاَ هـــل لامَسَتْ فـــاهـــا[2]
واســـتـخـــبــروا الـــراح هـــل مَسَتْ ثـــنـــايـــاهـــا

وعـنـدما دعـا الخديوى عباس حلمـى شوقـى إلى الحج معـه وخَيّرهَ فـي أن يركب سفينة البحر أو مطية البر، فأجابه بأن دعا لـه دعاءً صالحا، واختار الـتَخَلُّف مـع البـكـاء، وقَدّم أعـذارا مـقـبـولـة وبـسـط ذُلّه لله وخشْيـتـه مـنـه، واستشفع عنده تعالى بما به من ضعف وما له من شكوى.

---

(١) الشوقيات الصحيحة ٧٦ .

(٢) الشوقيات المجهولة ج٢، ٣٠٢ .

وقد قال النقاد في ذلك إن شوقي كان ضعيف التَّدَين لرفضه مثل هذه الفرصة للحج التى قلّما تُتاح لأحد - وقد كان شوقى في هذا الوقت شابًا ويمكنه تَحمل بعض المشاق، إن وُجدت، ولكنه آثر التخلّف.

ولا يمكننا الجزم بأن شوقي لم يكن مريضا، فقد قدّم للخديوى أعذارا مقبولة لاعتلال صحته، وكتب قصيدة "إلى عرفات" وهى من أبلغ ما كتبه فى الدعوة الإسلامية وفيها يعتذر شوقى عن عدم قدرته علي السفر للحج:

إلي عرفات الله يابن محمد ... عليك سلامُ اللهِ فى عرفاتِ[1]
دَعانَي إليك الصالحُ (ابن محمد) ... فكان جوابي صالحَ الدعوات
وخَيرّنَى فى سابحٍ أو نَجيبةٍ ... إليكَ فلم أخترْ سوي العبَرات
وقدّمت أعذاري وذلّـي وخَشْيتي ... وجئت بضعفي شَافعاً وشكَاتِي

ومن واقع إيمانه يقول شوقى عن فريضة الحج في كتابه أسواق الذهب "موكب الإسلام ومظهره، ولباب حسبِه وجوهره، وموسمه الحرام أشْهُره، مهرجانة العظيم وعرشه الفَخيم"[2]

ولكن شوقى لم يُؤَّد فريضة الحج بعد ذلك.

وشوقى كان عميق الإيمان كتب في رفعة الإسلام وجمع شمل المسلمين قصائد خالدة رددها وسوف يرددها المسلمون أبد الدهر. نظم شوقى خمس قصائد إسلامية وهى: نهج البردة، والهمزية النبوية ،وذكرى المولد، وإلى عرفات، وتوديع الدكتور محجوب ثابت في طريقه إلي الحج، وضجيج

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج١ ١٠٣ .

(٢) أسواق الذهب أحمد شوقى- مكتبة مصر.

الحجيج. وهذه القصائد ليست كل شعر شوقى الإسلامى، ففى بعض قصائده في الأغراض المتعددة نجد كثيرا من أبيات الشعر في الدعوة الإسلامية.

لقد كان شوقى يفهم الإسلام بعمق، فبَيَّنَ عظمة الدعوة الإسلامية في بيان عَذْب وَمقّدرةٍ لغوية عالية، مَكّنَته من أن يضع مبادئ الدعوة الإسلامية في بيت واحد من الشعر:(١)

الدين يُسْرٌ والخلافةُ بيعةٌ ... والأمر شوري والحقوقُ قضاء

وشوقى كان معارضا للشيوعية منذ نشأتها فيقول "البلشفية(٢) (الشيوعية) قيصرية لها جبروت الملك وسَرفه وليس لها جَلاله ولا شرفه". رأى شوقى أن الشيوعية تَسير علي منهج القياصر في قسوة الحكم ولكنها تفتقد جلال الملك وشرفه - أى أن الشيوعية أخذت أسوأ ما فى الحكم القيصرى، وأضافت إليه أسوأ ما فيها الوضاعة الحقاره. ثم يبين شوقى حكمة الدعوة الإسلامية في محاربة الفقر، فيهاجم الشيوعية التى فشلت في علاج الفقر، ولو فهم المسئولون معنى هذين البيتين، من مهاجمة وتحقير الشيوعية، لما حاولوا حذفهما من القصيدة في أغنية أم كلثوم فى عهد الملكية، ولا استحسنوهما في عهد الثورة، ويستطرد شوقى يقول مخاطبا الرسول (صلي الله عليه وسلم):

الاشتراكيون أنتَ إمامهم ... لولا دعَاوَي القوم والغُلواءُ
داويتَ مُتَّئدا وداوَوْا طفرةً ... وأخفُّ من بعض الدواءِ الداءُ

فالإسلام عالج الفقر بتؤدةٍ "داويت متئّدا" بفرض الزكاة على القادرين

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج١ ، ٣٦.
(٢) أسواق الذهب: ص ١٢٥ أحمد شوقى- مكتبة مصر. ١٩٩٣م.

فأصَلح المجتمع : أما الشيوعيه فقد عالجت الفقر بطفرة سريعة (تأميم مدّخرات الشعب) ففشلت ، فالدواء هو الشيوعيه والداء هو الفقر الذي يراه شوقي أخف ضررا من الشيوعية.

والبرّ عندك ذمّةٌ وفريضةٌ ... لا منّةٌ ممْنونةٌ وجباءُ
جاءت فَوحّدت الزكاة سبيلهُ ... حتي التقي الكُرَماء والبخلاءُ
أنصفت أهل الفقر من أهل الغني ... فالكلُّ فى حقّ الحياة سواءُ

أما الشيوعية فقد سلكت إلى الإصلاح أسلوبا عنيفا غير إنسانى وغير أخلاقي، فدمّرت المجتمعات، ووزعت الفقر على أفراد الشعوب ففشلت الشيوعية وسقطت. وفى تطبيق هذا الأسلوب الهمجى استخدمت الشيوعية العنف والقهر والظلم فصادرت أموال الناس وأملاكهم.

ولا يمكن أن يقوم مجتمع علي الظلم، ويقول شوقى "وحائط البَغْى إن تلمسه يَنْهَدِمِ" كما لا يمكن أن يستقيم الحُكم في أمةٍ تحارب غَريزةَ من غرائزِ الإنسان - حُبْ التَمّلكْ .

وإذا كان المتنبي قد مدح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في بيت ضعيف التكوين، فإن شوقى مدحه بعشرات من الأبيات البليغة الصادرة عن إيمان عميق - وشوقى في مدحه للرسول يمدحه لأعماله وإنجازاته التى حَسَّنت وجه الدنيا، وحاربت الفقر ورفعت من كرامة البشر، ثم يمدحه كإنسان قوى يحمل بين جوانحه أنبل صفات البشر ويتحلى بالأخلاق الفاضلة والمبادئ السامية(*).

(*) الشوقيات الصحيحة ج١، ٣٦ .

يا من له الأخلاقُ ما تهوي العلا ... منها وما يَتَعشّقُ الكبراءُ
وإذا غَضِبْتَ فإنما هي غَضْبَةٌ ... في الحَقّ لا ضِغن ولا بَغضاءُ
وإذا عَفَوْت فقادراً ومقدّراً ... لا يستهينُ بعَفْوكَ الجُهلاءُ
وإذا أخذتَ العهدَ أو أعطيتَهْ ... فجميعُ عَهْدِكَ ذمةٌ ووفاءُ

ويدافع شوقي عن مبادئ الإسلام ضد أعدائه الذين انتقدوا استخدام السيف، فلقد استَخْدم الإسلام السيف للدفاع عن العقيدة أو الدفاع عن الوطن، والسيف ضرورة لرَدْ العُدوان.

الحربُ فيِ حقّ لديكَ شريعةٌ ... ومن السُمُومِ الناقِعاتِ دَوَاءُ .

ويقول الله تعالى "كتب عليكم القتال وهو كُره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خَيْر لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرٌ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون " صدق الله العظيم.

وقد رَأَيْنا أن المسيحية التى هى رسالة السلام على الأرض لم تسلم من العدوان، ولم ينقذها إلا السيف، يقول شوقى:

سَلِ المسيحية الغرّاءَ كم شَرِبَتْ ... بالصابِ من شهوات الظالم الغَلِمِ[١]
لولا حُماةٌ لها هَبُّوا لنَصرتِها ... بالسيفِ ما انتَفعتَ بالرفق والرُّحم

ثم يُبيِّنْ شوقى نظام الحكم في الإسلام الذى بُنِيَ على المساواة والعدل، فيخاطب الرسول (صلي الله عليه وسلم)[٢]:

فرسَمْتَ بعدكَ للعبادِ حكومةً ... لا سوقةٌ فيها ولا أُمراءُ

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٤٢ .

(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٤٠ .

اللـه فوق الخلـق فيـهـا وحـده ... والنـاس تحت لـوائهـا أكـفـاءُ
مَشَتْ الحضارةْ فى سناها واهتدي ... فى الدين والدنيا بها السعداءُ

ويؤكد شوقي أن العدل والعلم هما من أسس الحكم في الإسلام:

لا يَهْدِمُ الدهرُ رُكناً شادَ عدلُهمُ ... وحائط البَغْي إن تلمسْهُ ينهدم
للعلمِ والعدلِ والتمدينِ ماعَزَموا ... من الأمورِ وما شَدُّوا من الحُزَمِ

ولا عَظَّمْتُ فى الأشياء إلا ... صحيح العلم والأدبَ اللُبابا[١]
وفي هذا الزمان مَسيحُ علـمٍ ... يـرُدُّ علي بني الأمم الشبابا

ويبين شوقي في مدحه للرسول (صلى الله عليه وسلم) أن دعوة الإسلام قوة لا أستكانة وخضوع، والشعوب والساسة يدركون ذلك تماماً فلا مكان تحت الشمس للضعفاء، هذه هي الحقيقة مهما حاولوا تجاهلها وإخفائها:

وكـان بيـانه للـهَدْيِ سُبْلا ... وكانت خيله للحق غابا[٢]
ومـا نيـل المطـالب بالتـمـني ... ولكن تؤخذ الدنيـا غلابا

فالحقوق لا تعطى طواعية ولكنها تُؤْخذ بالقوة، وكأن شوقى نظم هذه الأبيات للوضع الراهن الذى تم فيه اغتصاب حقوق (الفلسطينيين)، وينبههم ويحرّضهم على أخذ حقوقهم بالقوة.

ثم ينظر شوقى حوله فيجد الدول الإسلامية في حالةِ قَهْر أشبه بالموت ولكنه متفائل فهو يري أنها سوف تستيقظ لتُعيد مجدها ويطلب من الله سبحانه وتعالى (لأجل رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يُحسن ختامها:

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٧٤ . دكتور مصطفى الرفاعى منشأة المعارف بالإسكندرية ٢٠٠٠م.

(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٧٤ .

يارَبِّ هبّت شعوبٌ من مَنِيَتِها ... واستيقظت أممٌ من رقْـدَةِ العدمِ[١]
فالطف لأجل رسول العالمين بنا ... ولا تزِد قومه خَسْفاً ولا تَسُم
يارب أحسنت بدء المسلمين به ... فتمم الفضل وامنح حُسن مختتم

فشوقي لا يُمَجد الإسلام من الناحية العقائدية فحسب، ولكنه يرفع من شأن الإسلام كقوة اجتماعية وسياسية، فيطلب من المسلمين أن يتمَسّكوا بمبادئ العدل والمساواة وأن يطرقوا طريق القوة لاستخلاص حقوقهم المسلوبة ولا مانع من استخدام السيف إذا دعت الضرورة إليه.

ألا ينطبق حالنا الآن على ما قاله شوقى من أكثر من ثمانين عاما ؟.

وإذا كان المتنبي يُشَكِكُ في خلود الروح كما بَيَّنَّا، فإن شوقى من واقع إيمانه العميق يري أنّ الروح هى سرٌ من أسرار الخَلقْ، لا يعلمها إلا الخالق سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: "يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" صدق الله العظيم.

ويقول شوقى:

لا تسمعنّ لعصُبةِ الأرواح ما ... قالوا بباطلِ علمهْم وكِذابه[٢]
الرّوحُ للرحمن جل جلاله ... هي من ضَنَائِنِ علمه وغيابه

والفلاسفة يشعرون بشئ لا يستطيعون معرفته، فيصفونه كما يتصورونه، وأفلاطون يرى النفس روحا كانت عند الخالق ثم هبطت ودخلت جسم الإنسان. والشعراء يجارون الفلاسفة في التَصَوُّر ويفوقونهم في

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٤٢ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٨٩ .

الوصف. والطبيب الفيلسوف الشاعر الرئيس ابن سينا أصابته الحيرة، فيتصور أن الروح هبطت من السماء، ولكن لا يمكن رؤيتها:[١]

هبطت إليك من المحل الأرفعِ ... ورقاءُ ذات تعزُّز وتمنُّعِ
محجوبةٌ عن كلّ مُقلةِ عارفٍ ... وهي التي سفَرت ولم تتبرقَعِ
وصلت علي كره إليك وربّما ... كرِهت فُراقَك وهي ذات تفجُّعِ

وشوقى خاطب الروح كما يخاطبها فيلسوف علم بدائعها وبحث عن حقيقتها فرآها تزداد غموضا كلما ازداد بحثا عنها، مع أنها أقرب ما تكون إليه - فينظم قصيدة يعارض بها الرئيس ابن سينا فيقول:

ذهب ابن سينا لم يَفُزْ بك ساعةً ... وتولت الحُكماءُ لم تتمتّعِ
(فمحمدٌ) لك و(المسيح) ترجّلا ... وترجّلت شمسُ النهار (ليُوشَع)
ما بال (أحمد) عَيّ عنكِ بيانه ... بل ما (لعيسي) لم يَقُل أو يدّع
لما حللْتِ (بآدم) حلّ الحُبَي ... ومشي على الملأ السجودِ الركّع

فإذا لم يكن شوقى شديدَ التديُّنْ ، إلا أنه كان عميق الإيمان،

ولم يقتصر شعر شوقى الإسلامى علي قصائده الإسلامية، ولكننا نجد بين أبيات قصائده عشرات من الأبيات في الدعوة الإسلامية وسماحة الإسلام، وهذا يبين إيمان شوقي العميق. يقول الله تعالى "شَرع لكم من الدين ماوصّى به نوحا ، والذي أوحينا إليك، وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى: أن أقيموا الديّن ولا تتفرقوا فيه" صدق الله العظيم

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٥٩.

ويقول شوقى في قصيدته العلم والتعليم وهى تكريم للمعلم:[١]

سبحانك اللهم خيرَ معلمٍ ... علمت بالقلمِ القرون الأولي
أرسلت بالتوراةِ موسي مرشدا ... وابن البتولِ فعلّم الإنجيلا
وفَجرْتَ ينبوعِ البيان محمداً ... فسقي الحديثَ وناول التنزيلا

وفى رثائه لبطرس غالى باشا يقول:[٢]

نُعْلي تعاليم المسيح لأجلهم ... ويوقّرون لأجلنا الإسلاما
الدينُ للدّيانِ جلّ جلالهُ ... لو شاء رَبُّك وحّد الأقواما

ويقول في قصيدة الدستور العثمانى:[٣]

الكتب والرسل والأديانُ قاطبةٌ ... خزائن الحكمة الكبري لواعيها
محبة اللهِ أصلٌ فى مراشدِها ... وخشيةُ الله أسٌ فى مبانيها

وفي هذه الأبيات يبين شوقى روح التسامح والإخاء في الإسلام، كما يبين اعتراف الإسلام بالرسالات السماوية التى أُنزلت قبله.

وفى قصيدته التى وجهها إلى السيدات المصريات في اجتماع كن قد أقمنه:[٤]

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢١٨ - دكتور مصطفى الرفاعى - منشأة المعارف بالاسكندرية ٢٠٠٠

(٢) الشوقيات الصحيحة ج٣، ١٥٤ .

(٣) الشوقيات الصحيحة ج١، ٣٣٥ .

(٤) الشوقيات الصحيحة ج١، ١١٠ .

خُذْ بالكتاب وبالحديثِ وسيرةِ السَّلفِ الثقاتِ
هذا رسولُ الله لمْ ... ينقصْ حُقُوقَ المؤمناتِ
العلمُ كان شريعةً ... لنسائه المتفقهاتِ
وحضارةُ الإسلامِ تنطِقُ عنْ مكانِ المسلماتْ

وما هذه الأبيات إلا مثل لكثير من الأبيات الإسلامية التى تذخر بها قصائد شوقى.

الأخلاق في شعر شوقي

والمقصود بالأخلاق هى الأخلاق الفاضلة والقيم الإنسانية السامية ومن الصعب فصل الدين عن الأخلاق فهما توأمان ملتصقان، فالدين يحث على مكارم الأخلاق: يقول الله تعالى لرسوله (صلى الله عليه وسلم) "وإنك لعلي خُلقٍ عظيم" ويقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق" ونحن لا نوافق المفكر الفرنسى "كوزان" "Cousin" الذى يقول "ينبغى أن يكون الدين للدين والأخلاق للأخلاق كما أن الفن للفن"...

ومما يُرَجِحْ وجهة نظرنا أن المتنبي البعيد عن الدين والإيمان، لا يوجد في قصائده أى إشارة إلى الأخلاق الفاضلة أو أى دعوة للتوجيه إلى مكارم الأخلاق...

وشوقى كان مُميَّزا في الدعوة إلي الأخلاق الفاضلة والسمو الإنسانى حتي أن كثير من النقّاد وصفوه بأنّه شاعر الأخلاق(١). ويرى شوقي أن الدعوة الإسلامية بنيت على الأخلاق الفاضلة.

فعندما يوجه شوقى دعاءه إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول(٢):

بنَيت لَهم من الأخلاقِ رُكناً ... فخانوا الركن فانهدم اضطرابا
وكان جنابهم فيها مهيبا ... وللأخلاق أجدرُ أن تهابا
فلولاها لساوي الليث ذئباً ... وساوي الصارم الماضي قِرَابا

ويقول:

يا من له الأخلاقُ ما تهوى العلا ... منها وما يتعشّق الكُبراءُ(٣)
لو لم تقم ديناً، لقامت وحدها ... دنيا تُضيئ بنورِهِ الأنْاء

---

(١) الدين والأخلاق فى شعر شوقى ٢٦٠ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١ ، ٧٤.
(٣) الشوقيات الصحيحة ج١، ٣٦.

وفى قصيدة نهج البردة:

صلاح أمرِكَ للأخلاق مَرْجعه ... فقوّمِ النفس بالأخلاق تستقم

والنفس فى خيرها في خير عاقبةٍ ... والنفسُ في شرِّها في مرتَع وخم

والأخلاق كفضيلة اجتماعية يضعها شوقى فى المقام الأعلى لبناء المجتمعات الراقية:

المجد والشرف الرفيع صحيفةٌ ... جعلت لهَا الأخلاقٌ كالعنوان(١)

وإذا المقاتلُ من أخلاقهم سلمَتْ ... فكل شيء علي آثارها سَلِمَا(٢)

وما السلاح لقومٍ كل عُدّتهم ... حتي يكونوا من الأخلاقِ في أهَبِ(٣)

وفي قصيدة شكسبير يُبدى شوقى عجابه بنظام الحكم في إنجلترا:

ملكٌ يطاول ملك الشمس عزّتُه ... في الغرب باذخةٌ في الشرق قعساءُ(٤)

تأوي الحقيقة منه والحقوق إلي ... رُكنٌ بَناه من الأخلاقِ بنَّاءُ

ويرى شوقي أن قوة هذا الحكم وعظمته يرجع إلى أنه شُيِّد على الأخلاق الفاضلة التى تحافظ على حقوق الشعب.

وفى قصيدة "صقر قريش"

بُنيت من خلق دَولتُهُ ... قد يَشيدُ الدول الشُّمَّ الخُلُق(٥)

وإذا الأخلاقُ كانت سُلّما ... نالت النَّجْم يَدُ المُلْتَمِس

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ١٦٧.
(٢) الشوقيات الصحيحة ج٣، ٢٥٨ .
(٣) الشوقيات الصحيحة ج١١، ٦٢ .
(٤) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٦ .
(٥) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١٧٥ .

ويحذر شوقى من الابتعاد عن الأخلاق الفاضلة، ويرى أن في ذلك دمار للمجتمع:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هم ذهبت أخلاقُهم ذهبوا

وليس بعامر بنيان قومٍ ... إذا أخلاقُهم كانت خرابا(١)

كذا الناسُ بالأخلاق يَبْقَي صَلاَحُهم .... ويذْهَبُ عنهم أمرهمْ حين تَذْهب(٢)

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم ... فأقم عليهم مأتما وعويلا(٣)

وشوقي كان يرى أن الطفل هو رجل المستقبل فنظم له قصائدا وأبياتاً يَحثُّه فيها على التمسك بالأخلاق الفاضلة، والبعد عن الأعمال الغير أخلاقية، ففى قصيدة نشيد مصر يقول للنشأ:

علي الأخلاق خُطُّوا المُلكَ وابنوا ... فليسَ وراءها للعزِّ ركنُ(٤)

أليس لكم بِوادي النِّيل عَدْنٌ ... وكوثرُها الذي يَجري شهيا

وفي قصيدة سليمان والهدهد ينهى الطفل عن السرقة، وكان الهدهد قد سرق حبَّة غلة من بيت النملة فأحدثت له آلاما شديدة فى صدره فيقول سيدنا سليمان لمن حوله:(٥)

ما أري الحبَّةَ إلا ... سُرِقَت من بيت نمله

إن للظالم صَدْراً ... يَشتكي من غير علِه

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٦٦ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٤٦ .
(٣) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢١٨ .
(٤) الشوقيات الصحيحة ج٤، ١٩٧ .
(٥) الشوقيات الصحيحة ج٤، ١٥٣ .

وتتكرر قصائد شوقى على لسان الطير والحيوان تدعو إلي مكارم الأخلاق وتنهى عن الشر.....

ويوجه شوقى المسئولين علي تَبَّنى الأخلاق الفاضلة في تربيتهم للطفل:(١)

ومدارس لا تنهض الأخلاق ... دراسة الرسومْ
يمشي الفساد بنبتها ... مَشْيَ الشرارةِ بالهشيم

وفى قصيدة "العلم والتعليم" يحذِّر شوقى من انحراف المعلم(٣)

وإذا المعلم لم يكن عدلا مشي ... روح العدالةِ في الشباب ضئيلاً
وإذا المعلم ساء لحظ بصيرةٍ ... جاءت علي يده البصائر حُولا
وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم ... فأقم عليهم مأتما وعويلاً

ويبين شوقي للنشء عظمة مصر القديمة والتى بنيت على الإيمان العميق والأخلاق الفاضلة، يقول في قصيدة توت عنخ آمون(٣):

غداً يبنون ما يُبْقي وراحوا ... وراء الآبداتِ مُخَلَّدينا
إذا عمدوا لمأثرةٍ أعدّوا ... لها الإتقان والخلق المتينا

وفى قصيدة النيل يبين شوقى الارتباط الوثيق بين قوة العقيدة ومكارم الأخلاق:(٤)

واستحدثت دينا فكان فضائلاً ... وبناء أخلاق يطول ويشهقُ
قوم وقار الدين في أخلاقهم ... والشعب ما يعتاد أو يتخلَّقُ

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٥٩ دكتور مصطفى الرفاعى-منشأة المعارف بالاسكندرية ٢٠٠٠م.
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢١٨ .
(٣) الشوقيات الصحيحة ج١، ٣١٥ .
(٤) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٦٣ .

وفي مسرحية قمبيز يصف رجل من الفرس شعب مصر:[١]

وشعبا على خُطةٍ في الحياة ... ونظم به في الشعوب انفردْ
ولم أر مثل صناعاتهم ... سُمُوًّا وبعداً على المنتقد
ولا مثل أخلاقهم مبلغاً ... من الفضل أو من خلال الرُّشد
إذا مر يافعهم في الطريق ... بشيخٍ تنحّي له أو سَجَدْ

ويتمادى شوقي في ترجيح رأيه، فيبيّن أن بالأخلاق وحدها يمكن بناء مجتمع صالح، ويضرب لذلك مثلاً بمملكة النحل في دقة نظامها والعدالة في إدارتها:

مملكة مُدَبَّرة ... بامرأة مؤمَّره[٢]
قف سائلِ النحلَ به ... بأي عقلٍ دبّره
يُجِبْك بالأخلاقِ وهـ ... ي كالعقول جوهره
تغنى قوى الأخلاقِ ما ... تغنى القوى المفكّره
ويرفع الله بها ... مَنْ شاء حتى الحشرة

ويستمر شوقي في تمجيد الأخلاق ويؤكد أنه بدون الأخلاق القويمة لا يمكن إقامة المجتمعات الفاضلة ولا بناء الأمم الراقية.

ويدافع عن رأيه بكل قوة ويعطى الأمثلة والأدلة على صحة أقواله بلا كلل ولا ملل حتى أن بعض النقّاد عابوا عليه الإكثار والإطناب في هذا المجال ... مثل مصطفى صادق الرافعي.

(١) مسرحية قمبيز ١٨ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ١٧١ .

ويعلق الأستاذ فؤاد شاكر على نقد النقّاد فيقول "والحق أن فساد الأخلاق وكساد القيم الرفيعة النبيلة فى حياة الأفراد والجماعات والأمم مدعاة إلى الفشل والضياع ثم الزوال وجلبة الأزمات والمشكلات والكوارث. ولو امتد العمر بالذين بادروا شوقياً بالملامة لإطنابه وتكراره فى الحث على الاستمساك بالفضائل والضوابط الأخلاقية لأيقنوا أن أمير الشعراء لم يتجاوز ولم يُفرّط، وكأنه كان يتوقع ويستبق الزمن، بعد أن انطوت صفحة القرن العشرين على تراجع كسيف لكثير من المبادئ والقيم الأخلاقية في معظم الدول وفى أعالى وأسافل المستويات، إزاء الاندفاع المادى، والجشع الفردى، والضمور الروحى والظلم الاجتماعى والطغيان الدولى".ونتيجة لبعد الشعوب عن الأخلاق الفاضلة، انتشر الفساد، وعمت الفوضى، واعتدت الدول الباغية على الشعوب الضعيفة، فاغتصبوا الأرض واعتدوا على الأعراض وقتلوا الآلاف من النساء والأطفال، وهدموا الديار، فأعادوا الإنسان إلى عصور البربرية والهمجية.



الوصـــف
فى شعر المتنبى وشوقى

الوصف فى شعر المتنبي

يقول الأستاذ أنيس مقدسى إنّ الوصف نوعان حسي وخيالى(١) . "فعندما تقف إلى نهرٍ فى وادى كبير وترى تدفُّق المياه فى تلك الشواهق العظيمة فتأخذك روعة المنظر وتستَفزْ فيك الميل إن كنت شاعرا إلى وصف ما تراه من جمال وجلال، فإذا أنت تصف أسناد الوادى وما عليها من الأشجار والكروم وتصف تلك الصخور القائمة وانفضاض الماء من بينها....... فهذا هو الوصف الحِسّى.

أما الوصف الخيالى فنظر فَنّى إلى ما وراء المحسوسات، فإذا كان الشاعر واسع الخيال لا يقف عندما يقع تحت حسه فقط، بل يتعداه إلى مناطق يفتحها أمامه الخيال، فيجعل المرئيات أساسا لغير المرئيات، ويولد من المحسوسات صوراً مجردة يرسمها للبشر تَأمُّلات وذكريات. يقف مثلا فى قلب الوادى فيسمع فيه نبضات الحياة ويمر أمامه على صفحات الماء حوادث التاريخ فيُذكر الأمم الغابرة والوقائع الماضية، ويستخلص من ذلك عِبَرَ الأيام وعلاقاتها بازدهار المدَنيّات واندثارها وما إلى ذلك مما يستخدم فيه الحس تَوَصُّلا إلى صورة الخيال البعيدة.... وإذا تَأمّلت شعر المتنبى وجدته - كأكثر الشعر العربى - معنيا بالوصف الحسى دون الخيالى ويتناول المناقب البشرية والمشاهد الطبيعية والعمرانية ووقائع الحروب والفروسية وهو عادة جيد الديباجه".

ولكن لم يكن للمتنبى اهتماماً كبيراً بوصف الطبيعة وجمالها(٢)، فقد كانت قصائده في هذا المجال محدودة - وقد جاب المتنبى البلاد والأمصار، دخل

(١) أبو الطيب المتنبى حياته وشعره، ٤٥ .
(٢) مطالعات فى الكتب والحياة ١٤١

مصر فلم يَصف النيل ولم يشعر برياض مصر، ولا بأهرام مصر، كما لم يشعر بدجلة والفرات.

وصف المتنبي جبال لبنان عرضا في قصيدة مدح[١]:

يبني وبين أبي عليّ مثله ... شَمُّ الجبال ومثلهن رجاءُ
وعقاب لبنان وكيف بقطعها ... وهو الشتاء وصيفهن شتاء
لَبِسَ الثلوج عليّ مسالكي ... فكأنها ببياضها سَوْداءُ

والوصف لاشك جميل بليغ

كما وصف حديقة في أرض بوان[٢]:

غدونا تنفض الأغصان فيها ... علي أعرافها مثل الجُمَان
فَسِرت وقد حَجَبن الحرَّ عني ... وجئْن من الضياء بما كفاني
وألقي الشرق منها في ثيابي .... دنانيرا تَفرُ من البنَان
لها ثمر تُشير إليك منه .... بأشربَةٍ وقفنَ بلا أوان
وأمواهٌ تَصلّ بها حَصَاهَا ... صَليلَ الحَلي في أيدي الغواني

والوصف غاية في الجمال والإبداع

ومن أبلغ ما نظمه في الوصف هو وصفه للأسد، ويظهر فى وصفه إعجابه الشديد بالأسد وبقوته وكبريائه وعظمته، وكأن المتنبى يرى نفسه فى ملك الغابة، فَيُخَيَّلْ للقارئ أن المتنبى يَصف نفسه:[٣]

يطأ الثري مُترفقا من تيهه ... فكأنه آسٍ يجَسُّ عليلا
ويَرُدُ عَفْرته إلي يأخوفه ... حتي تكون لرأسه إكليلا

---

(١) ديوان المتنبى ١٢٦ .
(٢) ديوان المتنبى ٥٤١ .
(٣) ديوان المتنبي ١٤٤ .

وهذه الصورة تبين القوة والعظمة والكبرياء ثم يستطرد:

ما زال يجمع نفسه في زوره ... حتي حَسِبْتَ العرض منه الطولا
ويدّق بالصدر الحجار كأنه ... يبغي إلي ما في الحضيض وصولا

وفي هذين البيتين يصف المتنبى الأسد وهو يتأهّب للوثوب فينكمش حتى أن طوله أصبح أقصر من عرضه، وهى مبالغة بليغة تنقل صوره مخيفه للأسد وتخيل للقارئ أن الأسد سوف ينقض عليه من بين السطور..... وجمال الوصف لا يحتاج إلى تعليق.

وعندما أصابته الحمى بمصر ولعلها الملاريا، وصفها المتنبى بدّقة وكأنه طبيب متخصص، مشبها الحمى بغانية تزوره في الظلام:

عليلُ الجسم مُمْتَنِعُ القِيَام ... شَديدُ السُكْر من غير المُدَامِ[١]
وزائرتى كأن بها حياءُ .... فليس تَزُور إلا في الظلامِ
بَذَلْت لها المطارِفَ والحشايا ... فَعافَتْها وبَاتَتْ في عظامي
إذا ما فارقتني غسلتني ... كأنا عاكفان علي حرام
كأن الصبح يطرُدها فتجري ... مدامعُها بأربعةٍ سجَام
أراقبُ وقْتَها مِنْ غير شوقٍ ... مراقَبة المَشُوقِ المُسْتَهام
ويصدُقُ وعدُها والصدق شرٌ ... إذا ألقاكَ في الكَرَبِ العظام

بهذا الوصف الدقيق عَبّر المتنبى عن آلام الجسم، والهذيان، وآلام العظام، والحمى التى تعتريه كل مساء، وزوالها عندما يصبح الصباح، والنافض الذى يسبقها، والعرق الشديد التى تنتهى به.

---

(١) ديوان المتنبى ٤٨٤ دار صادر للطباعة والنشر ببيروت ١٩٦٤ .

فيشبه الحمى بغانية تزوره خلسة في المساء لأن بها حياء ثم تنصرف عنه في الصباح فهى غانية، قمة فى التشبيه البليغ. ولو كان المتنبى قد اتجّه إلى ممارسة الطب لنبغ فيه، فهو فيلسوف حكيم يحمل موهبة أصيلة في دقة الوصف وبراعة التعبير فضلا عن أن به إصرارا على التفوق، ولكان قد انضم إلى الرعيل العبقري من الأطباء العظام الذين عاصروه، ابن سينا والرازى والزهراوى.

لو كان ذلك قد حدث، لفقدت العربية شاعرا فذاً.

أما وصفه لوقائع الحرب والفروسية فكان في غاية القوة والبلاغة فالمتنبى فارس يخوض المعارك ويصفها وصف شاعر وخبير، ومثله فى ذلك عنترة العبسى.

وفى وصفه لمعركة "درب القلّة" التى حدثت بين سيف الدولة والروم يَصف هجوم الفرسان كأنها سهام تنهال على العدو، وكأنها سحائب تمطر السيوف.

رَمي الدُرْب بالجُرْدِ الجيادِ إلي العِدي ... وما علِمُوا أن السّهامَ خيولُ[1]
وخَيلٍ بَراهَا الرّكضُ فى كلّ بلدةٍ ... إذا عَرّسَتْ فيها فليس تَقِيلُ
فما شعروا حتي رَأوْها مغيرةً ...قِباَحا وأما خَلقُها فجميل
سحائِبُ يَمْطُرْنَ الحَدِيدَ عليهِمُ ... فكل مكانٍ بالسيوفِ غسيلُ

ثم يصف الجواد وهو يعبر الفرات فلا يظهر إلا الرأس والعنق :

تراه كأنّ الماءَ مَر بجسمه .... وأقبلَ رأسٌ وحْدَه وتليلُ

من يقرأ هذه الملحمة يشعر وكأنها لوحة حية، ويشعر كأنه يشارك في المعركة.

(١) ديوان المتنبى ٣٥٥ .

الوصف في شعر شوقى

أمّا شوقى فكان معنيا بكلا الوصفين الحسّى والخيالى وكان له اهتماما كبير بالوصف الحسى للطبيعة فقد أبدع في وصف النيل والرياض والغابات والجبال في مصر وتركيا ولبنان وفرنسا كما وصف الطيور وناجاها ووصف شروق الشمس وغروبها والهلال والقمر - قال يصف الربيع[١] :

آذار أقبل قُم بنا يا صاح ... حَيّ الربيع حديقةَ الأرواح
ملك النبات فكل أرض دارهُ ... تلقاه بالأعراس والأفراح
منشورةٌ أعلامهُ من أحمر .... قانٍ وأبيضَ فى الرّبي لمَاحِ
والنخلُ ممشوقُ القدود مُعَصَّبٌ ... مُتزينٌ بمناطقٍ ووشاح
والشمس أبهي من عروسٍ بُرقَعَتْ ... يوم الزفاف بعسجَد وَضّاح
والماء بالوادي يُخالُ مساربا ... من زئبق أو مُلقيات صفَاح
إني لأذكر بالربيع وحسنِه ... عهد الشباب وطِرفهِ المِراح

ومن أجمل ما نظمه شوقى هو وصف النخلة، هذه الشجرة المباركة، فهى رمز الحياة في البيد وزينة الصحراء[٢] :

وباسقةٍ من نبات الرمال ... نَمتْ ورَبَت فى ظلال الكُثبْ
تطولُ وتَقْصُرُ خلف الكثيب ... إذا الريحُ جاء به أو ذَهَبْ
قد اعتَصَبت بفصوص العقيقِ ... مفصّلةَ بشُذور الذهب
ونَاطتْ قلائدَ مَرجانِها ... علي الصدر واتشحتْ بالقصب
وشدّت على ساقها مِئْزراً ... تعقّدَ من رأسِها للذنَب

(١) الشوقيات الصحيحة ج ٢ ، ٢٢ دكتور مصطفى الرفاعى - منشأة المعارف بالاسكندرية ٢٠٠٠م.
(٢) الشوقيات الصحيحة ج٤، ٦٤ .

والوصف جميل والخيال رائع فقد شبه شوقى البلح بفصوص العقيق الأحمر المعلق بخيوط من الذهب.... ويندهش شوقى من أن شعراء العرب قد تجاهلوا النخلة فلم ينظموا فيها شعرا!!

وأعجبُ كيف طَوَي ذكرَكُنّ ... ولم يحتفل شعراءُ العرب
أليس حراماً خلوُّ القصا ... ئد من وصفكِنّ وعُطْلُ الكُتُب!

ونحن أيضا نندهش ونتعجب، كيف خلت القصائد من وصف النخلة مع أن شعراء البادية وصفوا كُلْ ما فى الطبيعة من السماء والقمر والنجوم والحيوان ولكنهم لم يتطرقوا إلى وصف النخلة مع أن الله سبحانه وتعالى ذكرها في كتابه العزيز في عشرين سورة!! لغز لا يمكن تفسيره.

ويصف معبد أنس الوجود وكانت قواعده مغمورة بالماء، وهذا المعبد من أجمل معابد مصر القديمة:[١]

قف بتلك القصورِ فى اليّم غرقي ... مُمسِكا بعضُها من الذعر بعضا
كعذاري أخفْينَ فى الماء بَضّا ... سابحاتٍ به وأبديْنَ بَضّاً
رُبَّ نَقشٍ كأنما نَفض الصا ... نعُ منه اليديْن بالأمسِ نَفْضاً
وخطوطٍ كأنها هُدبُ ريمَ ... حُسنتْ صَنعةً وُطولا وعَرضا

وهذا الوصف قمة في الجمال ودقة فى الوصف والتعبير، فشوقى يشبه قواعد المعبد المختفية تحت الماء بعذارى ممسكات بعضهن ببعض وقد أخفى الماء جزءا من جسمهن الجميل وأظهر جزءا.

ويصف شوقى مقبرة توت عنخ آمون وما بها من صور ونقوش[٢] :

(١)الشوقيات الصحيحة ج٢، ٥٦ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٩٤ .

صـورٌ تـربيك تحُركـا ... والأصـلُ فـى الـصُور الـسُكـونْ
غـلـمـانُ قـصـرك فـى الـرُكـا ... ب يُنـاولـونَ ويَطْرَدون
والـبـوقُ تـهـتـفُ والـسـهـا ... مُ ترِنُّ والـقـوْسُ الحَنـون
وكـلاب صـيـدكَ لُهَّثٌ ... والخـيـلُ جـنٌّ لـهـا جُنـون
والـوحـش تـنـفـر فـى الـسُهـو ... لِ وتـارةً تَثبُ الحـزُون
والـطـيـرُ تـرسُفُ فـى الجِرا ... حِ وفـى مـنـاقِرِهـا أنـين

ومن يقرأ هذه القصيدة يرى نفسه داخل المقبرة ويرى أن الصور تتحرك وتتكلم.

ومن أجمل وأدّق ما نظمه شوقى في الوصف هو وصفه لفرخ الغراب (ولد الغراب) فالغراب الصغير رأسه كبيرة بالنسبة لجسمه، كما أن مخالبه (أظافره) طويلة، أما لونه فهو مميز فرأسه وجناحاه لونهما أسود أما ما بقى فهو رمادى اللون الذى يشبهه بالفحم المحروق، أما اللون الأسود فيشبهه ببقايا الفحم التى لم تُحرق - قمة فى التشبيه البليغ!

ومُمَهّـد فـى الـوكـر مـن ... ولـدِ الـغـرابِ مُزَقَّق(*)
كـرويـهِـبٍ مُتَقـلـس ... مـتـأزّر مـتـمـنـطـق
لـبـسَ الـرمَّاد عـلـي سَوا ... دِ جـنـاحه والمـفْرق
كـالـفـحـم غـادر فـى الـرمـا ... دِ بقـيـةً لـم تُحْرَق
ثُـلـثـاه منـقـارٌ ورأ ... سٌ والأظـافرُ مـا بَقـي
ضـخـمُ الـدّمَاغِ عـلـي الخلْو ... مـن الحجَي والمـنـطِق

وهذا الوصف ودقّتُه لا يقدر عليه إلا مُتَخَصِصٌ فى علم الطيور.

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج٤، ١٩٣ .

ولكن شوقى لم يصف وقائع الحرب والفروسية كالمتنبى، فلم يكن رجلا للسيف ولم يشترك في قتال، ولكن شوقى كان يود أن يشترك في ثورة ١٩١٩، وكان حزينا لأنه لم يشهدها لأنّه كان بالمنفى، فيقول في ذلك مُحرضاً على الثورة(١):

يوم البطولة لو شهدتُ نهاره ... لَنَظَّمتُ للأجيال ما لم ينظم
غُبنت حقيقته وفات جمالها ... باع الخيال العبقري الملهَمِ
لولا عوادي النفي أو عقبانِه ... والنفي حالٌ من عذاب جهنم
لجمعت ألوان الجوادث صورةً .... مَثّلْتُ فيها صورة المستسلم
يوم النضال كستك لون جمالها ... حرية صبغت أديمك بالدم

أما الوصف الخيالى الذى يفلسف فيه الشاعر المشاهد التى يراها فقد أبدع فيه شوقى، وتَفوّق فيه على كل من سبقه، ففى قصيدة النيل التى نظمها عام ١٩١٤، يتكلم شوقى مع النيل وكأنّه إنسان يسمع ويحس ويناقش(٢)

من أي عهد فى القري تتدفق ... وبأي كفٍّ فى المدائن تُغْدِقُ
ومن السماء نزلت أم فُجّرت من ... عُلْيا الجنان جداولا تترقرق

ونجد فى كلمة تترقرق وبتكرار حرف القاف والراء صوت المياه وهى تتدفق، وربما يكون شوقى قد أخذ هذه القافية وهذا الجرس الموسيقى من المتنبى في قصيدته:

أَرَقٌ علي أرقٍ ومثلي بأرق ... وجوي يزيد ودمعه تترقرقُ

(١) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١٨٦ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٦٣ .

ويستطرد شوقى:

أينَ الفراعنة الألي استذري بهم ... عيسي وموسي والكليم المُصْعَقُ
بلغوا الحقيقة من حياةٍ علمها ... حُجُبٌ مُكَثّفة وسرٌ مُغلقُ
وتَبَينوا معني الخلودِ فلم يَرَوْا ... دُون الخلودِ سعادةً تتحققُ

ثم يقول له إن الحضارة نبتت في واديك:

أصل الحضارة فى صعيدك ثابتٍ ... ونباتها حسنٌ عليك مخلقُ
ولدت فكنت المهد ثم ترعرعت ... فأظلها منك الحَفِيٌّ المشفق

ثم يمدحه ويوصيه بالأجيال القادمة (أفرخٌ) ويقول له، احفظها فهى ودائع عندك لأننا سوف نمضى ونتركها أمانة في عنقك:

مما يُحَمّلنا الهوي لك أفرخٌ ... سنطير عنها وهي عندك تُرْزقُ
فاحفظ ودائعك التي استودعتها ... أنتَ الوفُي إذا أؤتمنت الأصدق.

ثم يقول له إن يوم القيامة للوادى هو عندما يجّف ماؤك (تَحَلّقُ)

للأرض يومٌ والسماء قيامةٌ ... وقيامة الوادي غداة تَحَلّقُ

ولا أظن ولا أعتقد أن أحدا بلغ بلاغة الوصف الخيالى الذى بلغه شوقى فى هذه القصيدة.

وفى قصيدة أبو الهول[1] ، نرى صورة فريدة من الوصف الخيالى، يخاطب فيه شوقى أبا الهول ويسرد معه حوادث التاريخ التى عاصرها ألاف السنين يقول:

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ١٥٨ .

أباَ الهَوْلِ طالَ عليك العُصُرْ ... وبلَغت فى الأرض أقصي العُمُرْ
إلامَ رَكوبَك مَتْنَ الرما ... لِ لِطَيّ الأصيل وجَوْب السَّحرْ
تسافر منتقلا فى القرو ... نِ فأيّان تُلقي غُبار السفر

فشوقى يرى أن أبا الهول ليس ثابتا في مكانه ولكنه يسافرعبر الزمن، وهو خيال رائع، والزمن هو البعد الرابع الذي يغفل الناس عنه - ثم يشكر أبا الهول لوفائه في إطالته الوقوف أمام الهرمين وكأنه الشاكله التي لا تبرح قبر إبنها، كما لا يبرح أبو الهول قبر بانيا الهرمين، وهو يرجو عودتهما، ولكن هيهات أن يعود من مات:

أطلت علي الهرمين الوقو ... فَ كثاكلةٍ لا تَريم الحفرْ
تُرَجّي لبانيهما عودةً ... وكيف يَعودُ الرميم النَخِرْ

ويحرك أبو الهول عينيه، فيرى منف عاصمة مصر القديمة التي كانت مهد العلوم والفنون والتى أصبحت قرية لا وزن لها، (ميت رهينه):

تَجوس بِعَيْنين خلال الديا ... ر وتَرمي بأخري فَضاء النهرْ
تروم بِمنفيسَ بِيضَ الظّبا ... وسُمر القَنا والخميس الدُّثَرْ
ومهدَ العلوم الخطيرَ الجلا ... لِ وعهدَ الفنونَ الجليلَ الخطَر
فلا تستبينَ سوي قريةٍ ... أجدَّ محاسنَها ما اندثر
تكاد لإغراقِها فى الجمود ... دِ إذا الأرض دارت بِها لم تَدُرْ

نرى في هذه الأبيات صورة شعرية آية في الإبداع والتخيُّل الشعرى، كما نرى فيها عظمة مصر القديمة، وهذه القصائد تبين الحس التاريخى لشوقى فلم يكن شوقى مَعْنِيًا بتاريخ مصر القديمة فقط بل كان مَعْنيًا أيضا بالتاريخ

العربى والإسلامى، فقصائد ولد الهدى، والهمزية النبوية ونهج البردة والخلافة الإسلامية في تركيا خير شاهد على اهتمام شوقى بالتاريخ يقول:

والشعر ما لم يكن ذكري وعاطفة[١]
أو حكمةٌ فهو تقطيعٌ وأوزانُ

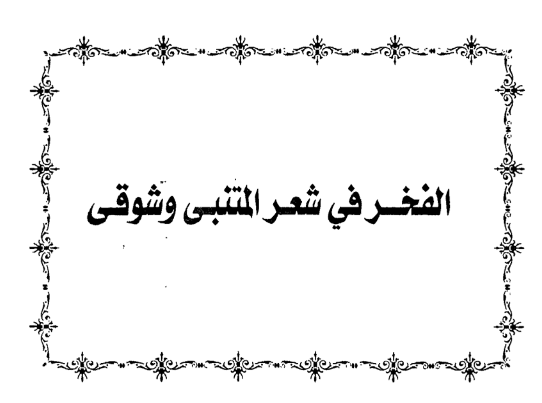
وفى قصيدة (ولد الغراب) ينظر شوقى إلي ما وراء المحسوسات، فينطلق إلى الوصف الخيالى فيخاطب أم الغراب ويلومها على إهمالها لابنها حين تركته يسقط ويموت....[٢]

من أمَّه لقي الصغـ ... ـيرُ منَ البليّة ما لقي
فُتِنَتْ به فتوهّمَتْ ... فيه قُوًى لم تُخلَقِ
قالت كَبُرْتَ فشِبْ كما ... وثب الكبارُ وحلِّقِ
ورَمَتْ به في الجوّ لم ... تَحْرِص ولم تَستَوثِقِ
فهوي فَمُزِّقَ في فنا ... ء الدار شرَّ مُمَزَّقِ
وسمعتُ قاقاتٍ تردّ ... دُ في الفضاء وتَرْتَقي
ورأيتُ غربانا تَفَرَّ ... قُ في السماء وتلتقي
وعرفتُ رَنَّةَ أُمِّهِ ... في الصارخاتِ النُعَّقِ
فاشتَرْتُ فالتفتْ فَقُلْـ ... ـتُ لها مقالةَ مُشْفِقِ
أطلقتِيه ولو امتحنـ ... ـتِ جَناحَه لم تُطلِقي
وكما ترفّق والدا ... كِ عليكِ لم تَترفَّقي.

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج١ ٨٩ .

(٢) الشوقيات الصحيحة ج٤، ١٩٣ .



الفخـــر في شعـر المتنبـي وشوقـي

الفخر في شعر المتنبي

كان المتنبي ذا كبرياء وكان يشعر بتفوقه وعبقريته ويرى أنه أعلى قدرا من شعراء عصره، بل أعلى قدرا من كل البشر حتى ولو كانوا من الملوك.

وفؤادي من الملوك وإن كا.... ن لساني يُرَى من الشعراء[١]

وكان مُعْتَزاً بقيمة الفن، ومحتفظا بكرامته وفرض على الملوك أن يحترموه ويُبّجلوه، فرفع بذلك كرامة الأديب وقدر الأدب في زمن كان الشعراء والأدباء لا وزن ولا كرامة لهم يعاملون كصعاليك في مجالس الملوك والأمراء.

وقد شعر المتنبي منذ نعومة أظافره بتفوقه ونبوغه بين قومه، ورأى أنه أعلى قدرا وأكثر علما وأرفع بيانا من معاصريه من الشعراء والأدباء:

أنا السابق الهادي إلي ما أقوله .... وإذا القول قبل القائلين مقُول[٢]

إن أكن معجبا فعجب عجيبٍ ... لم يجد فوق نفسه من مزيد[٣]

أنا تربُ الندي ورّبُ القوافي ... وَسِمَــامُ العِدَى وغيظ الحسودِ

ما مُقامي بإرض نَخْلةَ إلا ... كمُقامِ المسيح بين اليهود

أنا في أُمةٍ تداركها اللـــ .... ـــــه غريبٌ كصالحٍ في ثمود

فالمتنبي يفخر بنفسه، وربما يوجد بين السطور بعض المغالاة والتعالى على من سواه، ولكننا لا نرى فى هذه الأبيات إدعاءً للنُبُّوة كما ذهب إليه الأستاذ العقاد، فهو لا يعدو أن يكون مبالغة في الفخر بنفسه، وهذا شيء

---

(١)ديوان المتنبى ٤٤٧ . دار صادر للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٤م.
(٢)ديوان المتنبى ٣٦٠ .
(٣) ديوان المتنبى ١٩ .

كثيرُ الورود في الشعر العربى. والبيت الذى يقول فيه "أنا ربُّ القوافى" يحسم هذه القضية، فالمتنبى يعتبر رسالة الشعر كرسالة النبوّة التى تخدم الحياة الإنسانية ، كلٌ فى مجاله - وليس فى معناه أن المتنبى يدّعى النبوّة.

وقد قال شوقى: (١)

خلقت كأنني عيسى حرامٌ .... علي نفسي الضغينة والشماتُ

ولم يقل أحد أن شوقى ادعى النبوة.

وفى فخره يتمادى المتنبى فيخرج من التعالى إلى الغرور وإلى ضعف العقيدة: (٢)

أيَّ محلٍ أرْتَقي .... أيَّ عظيمٍ أتَقِي

وَكُلّ ما خَلَق اللَّهُ وما لمْ يُخْلَقِ

مُحتقرٌ في هِمّتي كشعرةٍ في مِفْرقي

ولو بَرَزَ الزمان إليّ شخصا .... لخضّب شعر مفرقَه حسامي!

ولا شك أن فى هذه الأبيات تجاوز المتنبى الكبرياء إلى الكِبْر، وأعطى القرصة لحاسديه من النقاد أن يهاجموه وينسبوا إليه الإلحاد....

وكنت أتمنى ألا يقولها المتنبى.....

ويستمر المتنبى في فخره ويتعالى حينا ويبالغ أحيانا، فيفخر بنفسه

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج٣، ٤٦ .

(٢) ديوان المتنبى ٤٠ .

ويقول أنه أعلى قدرا وأعلى شرفا من جدوده، ثم يفخر بجدوده بعد ذلك ولم أر أسلوبا في المدح كمثل هذا الأسلوب، فكل الناس يُبَجِّلُون جدودهم ويقدمونهم على أنفسهم!

لا بقومي شَرَفت بل شرفوا بي .... وبنفسي فخرت لا بجدودي![1]
وبهم فخر كل من نطق الضاد ... وعوذ الجاني وغوث الطريد

وأعتقد أن المتنبى وضع البيت الثانى حتى لا يلومه أحد فجاء نظمه ضعيفا مرتكبا.

وحتى عندما يمدح المتنبى سيف الدولة في قصيدته الشهيرة:[2]
واحـــرّ قـــلـــبـــاه ممـــنْ قـــلـــبُهُ شَبِـــمُ

يفخر بنفسه ولا يكتفى بذلك ولكنه يشير بطريقة غير مباشرة على أنه أعلى قدرا من سيف الدولة نفسه.

سيعلم الجمعُ ممن ضمّ مجلسُنَا ... بأنني خيرُ منْ تَسْعَي به قَدَمُ
الخيلُ والليل والبيداءُ تعرفُني ... والسيفُ والرمُح والقرطاس والقلمُ
أنا الذي نظر الأعمي إلي أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صممُ

بعد كل هذا التعالى والفخر يُوَّجه حديثه إلى سيف الدولة ويقول له أنك لست عادلا... وإنك لاتفرّق بين الخطأ والصواب!:

يا أعدل الناسِ إلا في معاملتي ... فيك الخَصَام وأنت الخصم والحكمُ
وما انتفاع أخي الدنيا بناظِره .... إذا استوتْ عنده الأنوارَ والظلمُ

---

(١) ديوان المتنبى ١٩ .
(٢)ديوان المتنبى ٣٣١ .

فهو يقول لسيف الدولة أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى فمن تكون أنت؟

ويُجنِّد المتنبى الدهر لكى يروى قصائده، فيقول فى أبلغ ما قاله في الفخر:

وما الدهر إلا من رُواةِ قصائدي ... إذا قلتُ شعرا أصبحَ الدّهرُ مُنشدا[1]

والمتنبى فارس شجاع يرى أن السيف هو سيد الكون، فيفتخر بقوّته وبسيفه:

أُطاعِنُ خيّلا مِنْ فوارِسِها الدّهْرُ[2]

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني ... والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ[3]

تركنا لأطراف القنا كل شهوةٍ .... فليس لنا إلا بهِنّ لُعابُ

وحتى عندما يرثى جدته وقد كانت له بمثابة الأم لا ينسى أن يفتخر بنفسه:

ولو لم تكوني بنت أكرمِ والد ... فإنّ أباك الضخم كونك لي أما

ويرى الأستاذ عبد الرحمن صدقى[4] أن المتنبى مصاب بمرض نفسى وهو جنون العظمة وغلواء الكبر، واستشهد على ذلك ببيته الذى افتخر فيها بنفسه وبقومه فى قصيدة رثاء جدته:[5]

ولوْ لم تكوني بنتَ أكْرمِ والدٍ ... لكان أباك الضخْم كونُكِ لي أُمّا

وإنّي لمن قومٍ كأن نفوسَهم ... بها أَنفٌ أن تسكنَ اللّحم والعظْماَ

---

(١) ديوان المتنبى ٣٧٣ .
(٢) ديوان المتنبى ١٨٩ .
(٣) ديوان المتنبى ٣٣٢ .
(٤) أبو الطيب المتنبى حياته وشعره ٦١ .
(٥) ديوان المتنبى ١٧٤ .

ونحن لا نرى ما رآه الأستاذ صدقى فالبيت الأول يفتخر فيه بنفسه، ويكرّم جدته التى قامت على تربيته وكانت بالنسبة له بمثابة الأم، فهو يقصد فى ذلك أنّ ما وصل إليه من تفوق يرجع إلى حُسن تربيتها له ...

وقد قلّده فى ذلك أحمد شوقى فى رثائه لجدته التى كانت له بمثابة الأم أيضا:

ولم لم تظهري في العُربِ إلا .... بأحمد كنت خيرُ الوالداتِ(١)

ولم يقل أحدا أن شوقى أصيب بغلواء الكبر.

أما البيت الثانى فهو فخر بنفسه وبقومه، والعربى يرى أمته خير أمة أخرجت للناس، وأن لغته هى أم اللغات، وأنه هو الذى نشر الإسلام في ربوع الأرض.... وكان المتنبى في حالة قهر نفسى شديد فقد استولى الموالى الفرس والأتراك على مُقّدرات الدولة واستبعدوا العنصر العربى، كما أنه كان قد هرب من مصر عندما غدر به كافور الأخشيدى، وأسرع لزيارته جدته فماتت قبل أن يراها. فالبيت الثانى كان متنفسا للمتنبى عما يحمله في صدره من قهر وألم، ولرَدْ الاعتبار لعنصره العربى على الموالى الفرس وقد أخذ هذا المعنى أبو العلاء المعرى:(٢)

أراني فى الثلاثة من سجوني .... فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيني .... وكون النفس فى الجسم الخبيث

ويتحامل الأستاذ صدقى على المتنبى "فيرى أن اشتراط المتنبى على سيف الدولة ألا ينشده إلا وهو جالس، وألا يكلّف بتقبيل الأرض بين يديه،

(١) الشوقيات الصحيحة ج٣، ٤٢ .
(٢) مع أبى العلاء فى سجنه ١٩ .

ويرى فى ذلك خروجا عن المألوف فى زمنه، بل هو "الصلف ثقيل الوطأة والكبرياء إلى غير حَدْ!".

ونحن نرفض هذا التفسير، ونرى ما رآه الأستاذ طاهر الطناحى [١] بأنّ المتنبى بعظمته الأدبية واعتداده بنفسه صان كرامة الأديب ودفع عنه المهانة والمذّله التى كان يلقاها في مجالس الملوك والأمراء.

ويستطرد الأستاذ الطناحى "أما بعد فهذه كبرياء المتنبى، وهذا جنونه بالعظمة، وهما فضيلتان فى جميع ظروفهما المحيطة بهما، وفى حالة صاحبهما الذي كان يَرُدُّ للأدب مكانةً ممتازة ليست دون مكانة الإمارة.

ويرى بشاره الخورى أن المتنبي قمة شامخة لا يرقى إليه أحد، كما أنه رفض الذل والمهانة التى كان يقبلها غيره من الشعراء والأدباء:[٢]

لو أنصفَ العربُ الأحرارُ نهضتهم ... لشيدوا لكَ فى ساحتها النُّصُبَا

لكن خُلقت لأمرٍ ليس يُدْركه ... من يعشقُ الذُّلَ أو من يَعْبُدُ الرُّتَبا

ولكن بشاره الخورى كان يرى أن مكانة الشعر والأدب أعلى من مكانة الإمارة:

فيقول للمتنبى الذى كان يرغب أن يكون واليا على ولاية:

طلبت بالشعر دون الشعر مرتبةً ... فشاء ربُّك ألا تُدْرِك الطَّلَبا

(١) أبو الطيب المتنبى حياته وشعره ٦٦ .

(٢) شعر الأخطل الصغير.

الفخر في شعر شوقي

وكما كان المتنبى عبقرياً كان شوقى عبقريا أيضا، وكان كلاهما يشعر بعبقريته ونبوغه ولكن عندما يفخر شوقي بنفسه تجئ كلماته هادئة وديعة، فعندما أصدر ديوانه الأول فى عام ١٣١٧ هـ، كتب فى مقدمة الكتاب:

مـجـمـوعـة لأحـمـد مُعـجـزة فـيـهـا بَهَرْ [١]
تُعَدُّ فـي تـاريـخـهـا ألـيـق ديـوان ظـهـر

ولكن شوقى لم يكن متعاليا على الناس ففى خُلقه الكبرياء وليس الكِبْر - افتخر شوقى بنفسه وكان لابد له من أن يفخر، ولكنه لم يُحقّر غيره ولم يتعالى على من هم أقلّ منه مكانا ومكانة. ربما يرجع ذلك السلوك القويم، إلى عراقة أصوله.

وكما ذكرنا من قبل ففى رثائه لجدته، يفخر بنفسه كما افتخر المتنبى من قبل، وربما يكون شوقى مقلّدا للمتنبى وسائرا على خُطاه فى ذلك:

ولو لم تظهري فى العُرب إلاّ .... بأحمد كنت خيرَ الوالدات [٢]

ولم تكن جدة شوقى مسلمة ولا مصرية أصلا، ولكنها تمصّرت وأسلمت وحسن إسلامها:

تَبعتِ محمدًا من بعد عيسي .... لخيرك فى سنيك الأولَيات
فكان الوالدان هدي وتقوي .... وكان الوِلْد هذي المعجزات

وهنا يصف شوقى نفسه بأنه معجزة :

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج٤، ١١٧ .

(٢) الشوقيات الصحيحة ج ٣ ، ٤٢

ثم يفخر بانتسابه إلى العرب وإلى لغة العرب كما افتخر المتنبى:

تجاوزت الولائد فاخراتٍ .... إلي فخر القبائل واللغاتِ

ثم يفخر بنفسه وبقدرته البلاغية وبأخلاقه القويمة:

وأحكم من تحكّم في يراع .... وأبلغ من تبلغ من دَواةِ

وأبرأ من تبرأ مِن عداء .... وأنزه من تَنزّه من شمات

وأصْوَن صائِن لأخيه عِرضا وأحفظ حافظٍ عهد اللِّدَات

فشوقى لا يحمل غلاً لأعدائه، وينزه نفسه عن الشمات ولا يُحَقِّر أحدا ولا يتعالى على إنسان

ثم يفخر بصلابته وقوته فى مجابهة الحياة:

وأقتل قاتل للدهر خبرا .... وأصبر صابر للغاشياتِ

كأني والزمان علي قتال .... وأشْفِق من خفوق النائبات

وفى رثائه لوالدته وكانت قد ماتت وهو بالمنفى، وكان يود لقاءها والجلوس معها، فأثّر ذلك تأثيرا عميقا فى نفسيته، فكتب قصيدة رثائها فور سماعه لنبأ الوفاة، ولم ينظر إلى هذه القصيدة بعد ذلك أبدا. وفى القصيدة يظهر الحزن العميق والقهر النفسى الذى كان شوقى يعيش فيه:(*)

إلي الله أشكو من عوادي النوي سَهْما ... أصاب سويداءَ الفؤادِ وما أصْمَي

توارَدَ والناعي فأوجست رنّةً ... كَلاماً علي سمعي وفي كبدي كَلْما

شربتُ الأسي مصروفةً لو تعرضت ... بأنفاسها بالفمّ لم يستفق غمّاً

أست جُرحها الأنباء غير رفيقةٍ .... وكم نازِع سهما فكان هو السهما!

ويفتخر شوقى بوالدته وبنفسه:

(*) الشوقيات الصحيحة ج٣، ١٥٦.

لئن فات ما أمّلته من مواكبٍ ... فدونكِ هذا الحشدَ والموكبَ الضخما
رثيت به ذات التّقي ونظمتُه .... لعنصره الأزكي وجوهرِه الأسمي

يقول لها شوقى إن كان قد فاتها موكب جنازتها، فإن شعره قد عوضها فهو "الموكب الضخما" وهو معنى بليغ رفع شوقى فيه الشعر إلى أعلى المراتب.

ويتمادى شوقى في الفخر بوالدته وبنفسه فيقول لها يكفيك فخرا أنك أنجبت شاعرا لم ينظم أحدا الشعر مثله.!

وكنتِ إذا هذي السماءُ تخايلت ... تَوَاضعْتِ لكن بعدما فُتّها نَجما
أتيتِ به لم ينظمْ الشعرَ مثله ... وجئتِ لأخلاق الكرام به نظما
ولو نهضت عنه السماءُ ومَخّضَتْ ... به الأرضُ كان المُزنَ والتبرَ والكَرْما

وربما يكون تمادى شوقى فى الفخر، كان تعويضا لنفسه عن القهر والألم الذى كان يعيش فيه فى المنفى.

وفى رثائه لمصطفى كامل ،كان قد هَزّه المصاب وبرحه الألم

وكان الزعيم مصطفى كامل قد طلب من شوقى أن يرثيه وهو على فراش الموت (*) :

وجَعلتَ تسألُني الرِّثاءَ فَهاكه .... من أدمُعي وَسرائري وجَناني
لولا مُغالبةُ الشّجون لخاطري .... لنظمت فيكَ يَتيمةَ الأزمان
وأنا الذي أَرثي الشّموس إذا هَوَت .... فتعودُ سيِّرتها إلي الدَّوَران

فالزعيم مصطفى كامل كان يرمى إلى تخليد ذكراه برثاء شوقى له،

(*) الشوقيات الصحيحة ج٣، ١٦٧ .

وشوقى يفى بوعده فيرثيه وربما يكون البيت الذي يفخر به شوقى بنفسه يطمئن فيه روح مصطفى كامل بأن ذكراه سوف تظل فى أعلى مرتبة.

وُفي قصيدة دمعة وابتسامة التى كتبها شوقى لتعزية والدة الخديوي عباس حلمى الثانى في وفاة حفيدها ، وكانت عائدة إلى مصر بعد غيبة طويلة، وفى القصيدة إشارة إلى أنّ مصر قد نسيتها ...... يقول عن موكبها الذي لم يرحب به أحد [١] :

نُسِيَتْ روعته في بلدٍ .... كل شيء فيه يُنْسَى بعد حِينْ

فيعوضها عن هذا النِسْيان، ويقول لها إن شِعره هو الذى سيخَلدها ، فيفخر بنفسه:

لا ترومي غير شعري موكباً .... إن شعري دَرَجاتُ الخالدين
كل حمدٍ لم أصغْه زائلٌ ... خالد الحمد بما صُغْتُ رهين

أما المظاهر والمواكب فهى إلى زوال، وقد قال سعد زغلول لشوقى:

سوف نمضى نحن وتنتهى مواكبنا وتبقى أنت تسكن كلّ القلوب... ثم أشار إليه وقال "هنا الخلود".

وفى قصيدة المولد النبوى يبين شوقى تعبه من كثرة لومه للمسئولين على الإصلاح ولا من مجيب يقول:

تعبت باهله لوما، وقبلي .... دعاةٌ البر قد سئموا الخطابا[٢]

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٣٠٣ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٧٠ .

ثم يفخر بنفسه:

ولوْ أني خطبت علي جمادٍ .... فَجَرْتُ به الينابيعَ العِذَابا

فهو لم يكن يتعالى ولكن كان هدفه الإصلاح.

وعندما نُصِّب شوقى أميراً للشعراء عام ١٩٢٧، أقام له شعراء العرب حفلة تكريم في القاهرة، فنظم شوقى قصيدة يشكرهم ويحييهم فيها:

شَرَّفَتْ مصرُ بالشموسِ من الشر .... ق نجُومِ البيانِ من أعيانه(*)

إنما أظهروا يدَ اللّهِ عندي .... وأذَاعوا الجميلَ من إحسانه

ولكن هذه القصيدة قصيدة سياسية من الطراز الأول، ونرى بين سطورها الألم والقهر الذى يشعر به شوقى، فكيف يكون ·ميدا وقد سقط الشعب العربى فى مخالب الاستعمار!

وعلينا كما عليكم حديدٌ .... تتنزي الأسود فى قُضبانه

ويَبْرح بشوقى الألم فيأتى شعره وكأنه بكاء حزين، ولكنه لا ييأس فيدعو إلى التآلف، ولتكن جراحنا هى السبيل إلى ذلك:

قد قضي الله أن يؤلفنَا الجر.... حُ وأن نلتقي علي أشجانه

كلما أنّ بالعراق جريحٌ .... لَمَسَ الشرقُ جَنْبه فى عُمانه

نحن فى الفقه بالديار سواءٌ .... كلُّنا مُشفِقٌ علي أوطانه

وقد قال فى منفاه: إن المصائب يجمعن المصابينا

ولم يلبث شوقى أن يرفع من قدر الشعر، فقدره من قدر الشعراء:

(*) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١٨٩ .

لـم تَثُرْ أُمَّةٌ إلي الحق إلا .... بِهُدَى الـشعـرِ أو خُطا شيـطانـه

ثم يفخر بنفسه وهو فى ذلك مفتخراً بدولة الشعر:

كان شعري الغناءَ في فرح الشر .... قِ وكان العَزاءَ في أحزانه

وتَرٌ فـي اللّهـاة مـا لـلـمغَنّي .... مـن يـدٍ فـي صـفـائـه ولِيانِه

وقد رأينا أن المتنبى كان يفخر بجدوده وعشيرته، وهذا الفخر كان سيماء العرب في العصور القَبلية، ولكن الدنيا قد تغيرت وأصبح الفخر والإنتماء للوطن وليس للقَبيلة.، من هنا نرى أن فخر شوقى كان فخرا حضاريا بعيدا عن تحقير الناس والتعالى عليهم، كان فخرا هادفا يرمى إلى شَحْذِ هِمَمْ الشباب ورفع روح الأمم ودفعها إلى التحرر والتفوق. ولا شك أن الروح الوطنية التي بعثها مصطفى كامل وسعد زغلول كان لها الأثر الكبير في إنتماء المصريين إلى وطنهم .

ففى قصيدة "الحرية الحمراء" يثور شوقى لوطنه ويُبْدِى أسفه لأنه لم يشترك فى ثورة ١٩١٩ لوجوده بالمنفى، فيفخر بمصر ويفخر بنفسه فهو جزء من مصر:

يومُ البطولة لو شهدتُ نهارَه .... لنظمت للأجيالِ ما لَمْ يُنْظَمِ(*)

غُبِنَتْ حقيقتُه وفات جمالها .... باعَ الخيال العبقرّي الملهَم

وربما يقول شوقى شعراً يفخر فيه بوطنه ولا يفخر بنفسه، فهو جزء من هذا الوطن العظيم فكأنه يفخر بنفسه، فعندما يفخر بملوك مصر القديمة يقول:

(*) الشوقيات الصحيحة ج ٢ ١٨٦

فكانوا الشهب حين الأرض ليل .... وحين الناس جدٌّ مضللينا[١]
مشت بمنارِهم في الأرض روما ... ومن أنوارهم قبست أثينا

وعندما يطالب بحقوق مصر الوطنية يفخر بالحياة الدستورية في مصر:

نطالب بالحقّ في أمةٍ ... جرى دَمها دُونه وانْتَشر[٢]
ولم تفتخر بأساطيلها .... ولكن بدستورها تَفْتَخر

ويفخر بأمته العربية فيقول عن سوريا وأبناء سوريا:[٣]

وكلُّ حضارةٍ في الأرض طالتْ ... لها من سَرحك العُلْوَي عِرقُ
.... وعـــز الـــشـــرق أولـــه دمـــشـــق.....

ويفخر بأبناء سوريا وببلاغتهم:

على لَهَوَاتهم شعراء لُسْنٌ .... وفي أعطافهم خطباءُ شُدْق
رُواةُ قصائدي فأعجبْ لشعرٍ .... بكل محَلةٍ يَرْويه خَلقُ
رواةُ قصائدي قد رتَّلوها .... وغنُّوها الأسنةَ والنصالا

فشوقي يفخر بنفسه بعد أن فخر أولا بوطنه وأبناء وطنه العربي

ويفتخر شوقي بالأتراك وهو في ذلك مفتخرا بالخلافة الإسلامية التي كان يراها ضرورة لحفظ كيان المسلمين... فَيُوجّه حديثه إلى سلطان الأتراك الذي انتصر على اليونان:[٤]

بسيفك يعلو الحقُّ أغلبُ .... ويُنْصَر دينُ الله أيان تَضْرب

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج ١ ، ٣١٥
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ١٧٠ .
(٣) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٧٤ .
(٤) الشوقيات الصحيحة ج١، ٤٤ .

نَهَضْتَ بعرش ينهضُ الدهرُ دُونَه ... خشوعًا وتخشاها الليالي وتَرْهب

ويُهَاجِم شوقى مِنْ النقّاد فيتهمونه بأنه تُركّى الهوى... فيبين لهم شوقى أن فخره بالأتراك هو فخر ودفاع عن الخلافة الإسلامية وعن الإسلام - وأن انهيار الخلافة سوف يؤدى إلى انهيار الدول الإسلامية، وأنّ ما قاله هو ما يعتنقه الشعب المصرى:(١)

حتي اتُهِمتُ فقيل تركّي الهوي ... صدقوا هوي الأبطال ملء فؤادي

الله يعلم ما انفردت وإنمّا ... صوّرْتُ شعْري من شعورِ الوادي

وفى قصيدته تكليل أنقرة يفتخر بالترك الذين رفعوا راية الإسلام:

لم يُنْقذِ الإسلامَ أو يَرْفَعْ له ... رأسا سوي النفر الألي رفعوك

ولكن شوقى لا يقبل أن يكون ذنباً لتركياً، فيفخر بنفسه ويقول إن شعره أعلى قدراً مما أنجزه السلاطين(٢)

لم تَرْضني ذنباً لِنَجْمك همتّي ... إنّ البيانَ بنجمه يُنبيك

قلمي وإن جهل الغبيُّ مكانَهُ ... أبقي علي الأحقاب من ماضيك

ظَفرتْ بيونانَ القديمةِ حِكْمَتي ... وغزا الحديثةَ ظافراً غازيك

---

(١) الشوقيات المجهولة ج١، ٢٠١ .

(٢) شوقى وقضايا العصر والحضارة ٩ .

سيف الدولة الحمدانى

ولقد رأيت أن أكتب نُبذة عن سيف الدولة الحمدانى لأنه من غير المعقول أن نقوم بدراسة لشعر المتنبى عامة، والمدح فى شعره خاصة، من غير أن نلقى الضوء على شخصية سيف الدولة.

وُلِدَ سيف الدولة فى عام ٣٠٣هـ - ٩١٥ ميلادية وهى سنة ميلاد المتنبى - فهما فى عمر واحد وربما يكون ذلك من أسباب التوافق والتآلف بينهما.

وسيف الدولة كان أميراً عربيا يحكم شمال الشام ابتداء من شمال دمشق، كما يحكم الموصل والجزيرة، وكانت عاصمة حكمه مدينة حلب. وقد حكم سيف الدولة من عام ٣٣٣هـ - ٣٥٦هـ، وهو من أسرة عربية عريقة شاركت في الحياة السياسية، وثقفت أبناءها بمعلمين ومربين أكفاء. وقد كان سيف الدولة هو الحاكم العربى الوحيد في الدويلات العباسية، فمصر يحكمها الأخشيديون وهم من أصل تركي، كما يحكمون الحجاز والشام حتى جنوب دمشق، وبنى بويه يحكمون فارس. أما الخليفة العباسى المُتَّقِى فكان لا حول له ولا قُوَّة يعيش مُنْكمشا فى قصره فى بغداد.

وكان بنو حِمْدان مستقلين عن الخلافة، ولكن الخلفاء هم الذين يمنحونهم الألقاب "كسيف الدولة وناصر الدولة".

وكان سيف الدولة كريما، عالى الهمة، يجاهد ويحارب وحده ليحمى ثغور الدولة الإسلامية من اعتداءات الروم، بالرغم من تواضع موارده المالية، وقلّة قواته العسكرية. كان سيف الدولة يحارب وحده هذه الإمبراطورية البيزنطية

الكبيرة، وينتصر عليها في أكثر الأحيان. وتنتصر هى عليه أحيانا - ونتوقف هنا قليلا ونقول كيف يحمل سيف الدولة هذا العبء وحده، فلم يساعده الخليفة العباسى ولم يقف إلى جانبه الإخشيديون ولا بنو بويه!

ويقول المتنبى في ذلك لسيف الدولة :(١)

أري المسلمينَ مع المشركيـــ .... ن إما لعجزٍ وإمّا رهَبْ
وأنت مع اللهِ في جَانبٍ .... قليلُ الرقاد كثيرُ التّعبْ
كــأنــكَ وَحْدَكَ وحَدْتَهُ .... ودَانَ البَرِيَّةُ بــابــنٍ وأبْ

فباقى البلاد الإسلامية كانت فى وادى آخر مشغولة بأمورها الخاصة - وقد ظهر ذلك فى شعر المتنبى الذى كان يهاجم هذه الدويلات وحكامها المتخاذلين، يقول لسيف الدولة:(٢)

فَدَتَكْ مَلوكٌ لم تُسَمّ مَواضياً ... فإنّك ماضي الشّفْرتَين صقَيلُ
إذا كان بَعضُ الناسِ سيفاً لدولةٍ ... ففي الناسِ بوقاتٌ لها وَطُبُولُ

ويُهَدّد المتنبى الخليفة العباسى، ويهاجمه لموقفه المتخاذل، ويسخر منه:(٣)

فيا عجباً من دائلٍ أنت سيفُهُ .... أما يتوَقَّي شَفْرتَيْ ما تقَلّدَا
ومن يجعل الضرغام للصيد بَازَهُ .... تصيَّدَه الضرغام فيما تَصيَّدَا

ويعلّق الدكتور طه حسين علي هذين البيتين « إنما يسخر المتنبي من الخليفه الذي يتقلّد سيفاً يُوشِك أن يَقتله، ويرسل للصيد جارحاً يوشك أن يصيده » (٤).

وهذا يبين شخصية سيف الدولة، فهو أمير عربى أصيل، لا يخضع

(١) ديوان المتنبى ٤٣٧ .
(٢) ديوان المتنبى ٣٥٩ .
(٣) ديوان المتنبى ٣٧٢ .
(٤) مع المتنبى- طه حسين ٢٥٢ دار المعارف مصر

لسلطان الأعاجم، مُتَعَصِّب للعرب، يرفض الشعوبية ولعّل هذه الصفات هى التى حببّت المتنبى فى سيف الدولة، فالمتنبى كان لا يحترم الأعاجم فهاجمهم وحقّرهم ودعى للثورة ضدهم فَأُدخل السِجْنْ من أجل ذلك.

وإذا كنا نرفض تخاذل الدول العربية والإسلامية في عصر سيف الدولة، أقول : أليس هذا الموقف هو حالنا الآن : ؟ ألم يعتد أحفاد الروم علي دولة عربية ولم تَهّب لنجدتها باقي الدول العربية.

فشخصية سيف الدولة شخصية فريدة أسطورية، فهو بطل من أبطال العرب والمسلمين ،وليس مجرد حاكم لأحدى الدويلات الإسلامية ،كما اعتبره بعض النقاد.

ومثل هذه الشخصية تجذب المتنبى الفارس الشجاع والمقاتل القوى. كما كان سيف الدولة يختلف مع كافور الإخشيدى، فحاول الاستيلاء علي دمشق وماحولها مرتين، ولكن كافور الأخشيدي ردّه وانتصر عليه، فكافور كان أيضا قائدا عسكريا قويا.

ويعيد التاريخ نفسه هنا أيضاً. فسيف الدوله الحاكم الإسلامي يحارب كافور الحاكم الإسلامي، أي أن الشام تحارب مصر، بالرغم من وجود خطر الروم أعداء الأمة الإسلامية، وفي عصرنا تشتعل الحرب بين العراق وايران والكويت بالرغم من وجود الخطر الصهيوني في فلسطين.

وكانت لسيف الدولة رَعّية بَدَوِيّة تخرج أحيانا على النظام فكان سيف الدولة يَرْدعها ويعيدها إلى النظام واحترام القانون.

أما في السلم، فسيف الدولة كان يحب اللهو والمرح ويعيش فى ترف، وله مجالس أدبية يَجْتَمِع فيها الشعراء ورجال الأدب والعلم والفن والفلسفة ورجال الدين، وكان يُجادلهُمْ ويناقشهم.

وكان يُقَدِّر العلماء ورجال الأدب ويُبجلهم، وقد حَمَى العالم الفارابى عنده عندما تَعَرَّض للعُدْوان - وقد كان جوادا كريما يعطى الأدباء والشعراء ببذخ فازدهرت في عصره الحياة الأدبية والعلمية فى حلب، وربما يكون اتصال سيف الدولة بالروم حربا أو سلما من أسباب إزدهار الحياة الأدبية والفكرية فى إمارته.

انتصر سيف الدولة فى معارك كثيرة ضد الروم، منها معركة مَلَطيّة ومرعش، وتل البطريق التى دَمَّر حصونها وقلاعها، وانتصر أيضا فى موقعة خرشنة ولكنه إنهزم فيها بعد النصر - وقد خلَّد المتنبى معارك سيف الدولة فى قصائده التى قالها فى سيف الدولة، ويسميها النقاد « السيفيات ». وهى تبلغ ثلث ديوان المتنبى (*)

وكان المتنبى يشارك فى بعض معارك سيف الدولة ضد الروم، وفى غزوة العثاء ، لم يَنْجُ فيها إلا سيف الدولة وستة معه أحدهم المتنبى، وكان الروم قد سدُّو عليه الطريق، فجرَّد سيف الدولة سيفه وحمل على الجنود وفرق الصفوف. وكان سيف الدولة يُكْبر المتنبى ويؤثره، مما أثار الحسّاد على المتنبى فضلا عن أن المتنبى كان متغطرسا متعاليا على من حوله.

وقد تعرض سيف الدولة فى حياته لكثير من المحن ونوائب الدهر، ففقد

(*) شعراء العرب والإسلام ٦ .

ابنه وكثيرا من إفراد عائلته، كما مُنِى بهزيمة كبيرة من الروم، وقد وقف المتنبى دائما إلي جانبه . لم يبق أثر من دولة الحمدانيين إلا بعض قطع من عمله عليها اسم سيف الدولة - ولم يبق أثر للقصر الذى بناه سيف الدولة فى حلب - فقد أحرقه امبراطور الروم عام ٣٥١ هـ فى معركة خسرها سيف الدولة ونهب كل ما فى القصر كما أحرق بلاد حلب.

هذا هو الأمير العربى الشجاع سيف الدولة الحمدانى أمير حلب، الذى إرتبط اسمه باسم المتنبى، وارتبط المتنبى به حتى كأنه توأم له. وقد خلّد المتنبى سيف الدولة فى قصائده كما أن هذه القصائد "السيفيات" خَلّدت المتنبى، فهى ليست مدحا تقليديا فى سيف الدولة كما نزح إلى ذلك بعض النقاد ولكنها ملاحم قومية من أدب القتال تذكرنا بألياذة هوميروس.

ويقول فى ذلك الشاعر أحمد محرم عن المتنبى:(*)

أبقي لسيف الدَّولة الشّرف الذيَ ... تركَ السُّيوفَ مَشُوقَةَ تتشوَّفُ
نَجّاه من غول الفناء فهذه .... دُنْيَاه مونقه تَرِفُ وتَنْطُفُ

وتَمُر السُنُون ويرحل المتنبى عن سيف الدولة فيأفل نجماهما، يهزم الروم سيف الدولة ويدخلون حلب ويقتلون الناس ويدمرّون المدينة، ويرحل المتنبى إلى كافور ثم إلى رحلة الضياع حتى يقتل بجوار بغداد......

وكأن القدر لم يُرِدْ إنصافهما إلا إذا كانا معاً.

(*) أبو الطيب المتنبى حياته وشعره ١٦ المكتبة الحديثة للطباعة والنشر- بيروت١٩٦٢ .



المـــدح
فـى شعـر المتنبـى وشوقـى

المدح فى شعر المتنبى

كان المدح بابا مميزا فى ديوان المتنبى، وكان أكثر من مدحهم سيف الدولة الحمدانى حتى لُقّبت القصائد التى قيلت فى سيف الدولة "بالسيفيات" والتى بلغت حوالى ثلث ديوان المتنبى.

وقد اختلف النقاد اختلافا حادا فى تقييم قصائد المدح، فقد اعتبر بعض النقاد أنه تاجر من تجار الأدب وأنه يتاجر بشعره، وأن المال كان له عنده منزلة سامية فهو القائل:

فلا مجد فى الدنيا لمن قلّ ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

ولكن هؤلاء النقاد أجمعوا أنه بلغ من الشعر مرتبة قصر عنها فحول الشعراء.

ويقول الدكتور محمد مظهر سعيد[1] "إن شِعْر المتنبى كان كلّه شعرا خاصا يَنْصَبّ على مدح الناس عند التقرب إليهم ثم ذمّهم عند الإنصراف عنهم"

ويقول أمير الشعراء أحمد شوقى "إن بعض الشعراء اتخذوا الشعر حرفة وتعاطوه تجارة إذا شاء الملوك ربحت وإن شاءوا خسرت.... ويستطرد ولا أرى بدًا من استثناء المتنبى مع علمى أنه المدّاح الهجاء، لأن مُعْجزَهُ لا يزال يَرْفع الشعر ويعليه، ويغرى الناس به فيجدده ويحييه. وحسبك أن المشتغلين بالقريض عموما - والمطبوعين منهم خصوصا - لا يتطلعون إلا إلى غباره

---

(١) أبو الطيب المتنبى حياته وشعره ص ٩٦ .
المكتبة الحديثة للطباعة والنشر بيروت ١٩٨٢ .

ولا يجدون الهدى إلا على مناره.... أو لم يكن من الغُبْنِ على الشعر والأمة العربية أن يحيا المتنبى مثلا حياته العالية التي بلغ فيها إلى أقصى الشباب ثم يموت عن نحو مائتى صحيفة من الشعر تسعة أعشارها لمدوحيه والعشر الباقى وهو الحكمة والوصف للناس". (*)

ونحن نرفض نقد أمير الشعراء أحمد شوقى، وسأتناول أولاً المسألة الإحصائية. فأقول إنّ الهجاء لم يشكل إلا جزءاً قليلا فى ديوان المتنبى فعدد أبيات الهجاء بلغت مائة وعشرون بيتا فقط من عدد أبيات الديوان (٥٤٩٠) بيتا من الشعر، أى إثنين فى المائة. وربما وصف النقاد المتنبى بأنه "هجّاء" لشهرة قصائده التى هجا بها كافور الإخشيدى واضحكت الناس مئات السنين، كما أنه قُتل من أجل قصيدة هجاء خرج فيها عن اللياقة.

أما وصف شوقى له بأنه "المدّاح"، فأقرر أن المدح فى ديوان المتنبى ليس بتسعة أعشار الديوان، كما قال أمير الشعراء شوقى.

فإذا تناولنا قصائد المدح وجدنا أن الأغراض فى قصيدة المدح هو مداوله بين أغراض الشعر جميعا، فالمتنبى يبدأ قصيدته بالغزل ثم يشربها بأبيات وصف الطبيعة ووصف المعارك الحربية، ثم يفخر بنفسه، ويمدح الممدوح ولا مانع من أن يعاتبه. لذلك لابد أن نعتمد فى الإحصاء على عدد أبيات المدح فى القصائد، وليس على عدد قصائد المدح فى الديوان لكي يكون الإحصاء صحيحاً . فقد بلغت عدد أبيات المدح في الديوان ٢١٦٩ بيتاً من الشعر، أما مجموع أبيات الديوان فهو ٥٤٩٠ بيتا أى أن أبيات المدح تبلغ ٣٩,٥ ٪ وليست ٩٠ ٪. وأغلب هذه القصائد كانت في مدح سيف الدولة وتسمى هذه القصائد (السيفيات) كما ذكرنا وتبلغ هذه القصائد ثلث

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٣٧ .

الديوان "٧٤ قصيدة" ويبلغ عدد أبيات المدح فيها ٥٦٨ بيتا.

وسيف الدولة كان قائدا عسكريا حمى الدولة الإسلامية من غزوات الروم وظل يحاربهم ثلاثة وعشرين سنة فى أربعين غزوة وإنتصر عليهم فى أغلب المعارك[١]، والمتنبى كان يشترك معه فى القتال وكان يعتبر سيف الدولة رفيق سلاح وكان مُعجبا به ويراه مثله الأعلى، فضلا عن أن سيف الدولة يكاد يكون الحالم العربى الوحيد فى الدُويْلات العباسية.

ومن يقرأ هذه القصائد يشعر وكأنه فى وسط معركة حربية، ويُخَيَّل إليه أنه يسمع صهيل الخيل وصليل الرماح والسيوف، وكأنه يرى دماء الأعداء تغطى أرض المعركة. وهذه القصائد تعتبر ملاحم حربية كما قدمنا.

ففى قصيدة "ليالى بعد الظاعنين شُكُول" على سبيل المثال" تبلغ ستة وستون بيتاً من الشعر، بدأها المتنبى بالغزل فى إحدى عشر بيتا، ثم يصف المعارك الحربية التى خاضها سيف الدولة ضد الروم فى خمسة وثلاثين بيتا، ثم يفخر بنفسه وينظم باقة من أقوى ما قاله من أبيات الفخر والحكمة، أما أبيات مدح سيف الدولة فى هذه القصيدة فقد كانت ثمانية أبيات فقط أى حواله ١٤٪ من القصيدة، ومع ذلك صُنِّفتْ هذه القصيدة فى الديوان على أنها قصيدة مدح لسيف الدولة!

وهذه القصيده تبين بدِقة شخصية المتنبى وطموحه، فالمتنبى مُتكالب على الدنيا، فيتغزل بالمرأة فى بعض الأحيان فيبدأ القصيدة بأبيات من أرق أبيات الغزل منها.[٢]

لَيالِّي بَعد الظاعنين شُكُولْ ... طوالٌ وليلُ العاشقين طويلُ

(١) شعراء العرب والإسلام ٢٢ .

(٢) ديوان المتنبى ٣٥٥ .

يُنّ لي البدر الذي لا أريده .... ويخفين بدرا ما إليه سبيلُ
وما عشت من بعد الأحبَة سَلْوةً ... ولكنني للنائبات حَمُولُ
وإنّ رحيلاً واحدا حال بيننا .... وفي الموت من بعد الرحيل رحيلُ
وما شرقي بالماء إلا تَذَكُّرًا ... لماءٍ به أهل الحبيب نُزول
يُحرّمه لمعُ الأَسنّةِ فوقَه ... فليس لظمآنٍ إليه وصولُ

وفى هذا البيت يقول المتنبى إنه يَشْرَق بالماء عمدا لكي يتذكر النبع الذى يَنْزِل به أهل حبيبته - وهو معنى جميل لا أعتقد أن أحداً سبقه إليه.

ثم يرفض المتنبى الليل وما به من شجون وغزل ولهو، ويتعجل طلوع الفجر وشروق الشمس لكىْ ينطلق إلى القتال فهو فارس شجاع يحارب للدفاع عن الأمة الإسلامية ضد الغزاه من الروم:

أمَا في النجومِ السائراتِ وغيرها ... لعيني علي ضوء الصَباحِ دليلُ
ويوما كان الحُسن فيه علامةً ... بعثت بها والشمس منْك رسولُ
لقيتُ بدربِ القلة الفجرَلَقْيَةً ... شَفَتْ كبدى والليلُ فيه قتيلُ

ويري الدكتور طه حسين[1] أنّ هذه الأبيات هي من الشعر الرمزي فيقول: « لم لايكون هذا البدر شيئاً آخر غير هذه الفتاة الإعرابية التي تحميها الأسّنة والرماح، لم لايكون البدر رمزاً لهذه الآمال النائيه وهذه الهموم البعيدة التي طاقت إليها نفس الشاعر منذ أحَسّ الحياة وقَدَر علي النشاط، والتي أنفق ما أنفق من حياته دون أن يبلغها أو يدنو منها ».

ويقول الأستاذ سامي الكيالى[2]«إن وصف المتنبى للمعارك التى خاضها

(١) مع المتنبي ٢٣٩- طه حسين- دار المعارف مصر.

(٢) أبو الطيب المتنبى حياته وشعره ٣٧ المكتبة الحديثة للطباعة والنشر- بيروت١٩٦٢ .

سيف الدولة مع نيقور البيزنطى تكاد تُشْبه معارك هوميروس فى الياذته. وأرى أن أدب المتنبى لم يكن أدب الحكمة والمديح فحسب بل كان صورة حية لهذا "الأدب القومى" التي تكاد ترتفع دعوته الصارخة فى هذه الأيام على "الأدب العالمى".

وأرى أن أبيات المدح التى قالها المتنبى فى مدح سيف الدولة تعتبر من الأدب القومى أو أدب القتال فسيف الدولة كان قوة عسكرية تحارب دفاعا عن الدولة الإسلامية - وقد بلغ عدد أبيات المدح التى قالها المتنبى فى سيف الدولة ٥٦٨ بيتا، فلو أنقصنا هذه الأبيات من أبيات المدح فى الديوان باعتبارها من أدب القتال لأصبح عدد أبيات المدح في الديوان ١٦٠١ بيتا فقط، وهذه تشكل ٢٩,٢٪ من الديوان وليس بتسعة أعشاره كما ذكر أمير الشعراء شوقى.

فالمتنبى كما نرى لم يكن مُتسَولا يتاجر بشعره، ولكنه ذا كبرياء وشمُوخ، يتحلّى بعظمة أدبية وإعتداد بالنفس، فقد حافظ على كرامته، وفرض على الملوك والأمراء أنْ يحترموه ويُجْلسوه فى مجلسهم خير مجلس، فلم يقبل أن يقف ويلقى قصيدته أمام سيف الدولة، وشرط عليه ألا يمدحه إلاّ وهو جالس، كما رفض تقبيل الأرض بين يديه كما كان يفعل سائر رجال الدولة. كما فَرض علي كافور ألا يمدحه إلا وهو مُتَقَلّد منطقته وسيفه ولا يسير في الطريق إلا بمملوكين شاهرين سيفهما عن يمينه وعن شماله.

لقد رفع المتنبى قيمة الأديب وأعلى من مكانة الأدب ولكن للأسف لم يفهمه معاصروه وهاجموه وأتهموه بالكِبر وبجنون العظمه، وكان المتنبى يراهم كعبيد لا كرامة لهم.

ويسقط أبو فراس الحمدانى وهو الأمير الشاعر فى خطأ فادح، فينصح سيف الدولة أن يتخلّى عن المتنبى ويفرق مائتى دينار على عشرين شاعرا يأتون بما هو خير من شعره! هل هناك مهانة تُوَجَه لرجال الأدب أكثر من هذه المهانة. أما الذين يأخذون على المتنبى أنه يأخذ عطايا مقابل شعره، فقد كان الخُلَع والعطايا عادة سارية وهدية مألوفة للشعراء فلا جناح فى ذلك. وإذا كان المتنبى يطالب بأكثر مما يأخذه غيره من الشعراء فأرى أن هذا الطلب لا غُبار عليه، ألا نرى الطبيب الكبير أو المحامى القدير يطلب أضعاف ما يتقاضاه الطبيب والمحامى المبتدئ...

يقول المتنبى لسيف الدولة:(*)

أجزني إذا أنشدتُ شعراً فإنما ... بشعري أتاك المادحون مردَّدَا
ودَعْ كلّ صوتٍ غير صوتي فإنني ... أنا الطائرُ المحكيّ والآخر الصدي

وفى عهدنا هذا، ألا يحصل الأدباء والشعراء على عائد مادى من نشر أدبهم وشعرهم فى القنوات المختلفة كالإذاعة والتليفزيون ودور النشر والصحف والمجلات. ولقد تَبَنّيَ ملوك وأمراء أوروبا كثيرا من الموسيقيين والفنانيين فى قصورهم وأغدقوا عليهم بسخاء حتى يتفرغوا للخلق والإبداع، ولم يهاجم أحدٌ هؤلاء الموسيقيين والفنانيين.

ولم يكن المتنبى يمدح كل من يطلب منه المدح، فقد رفض مدح الوزير المهلبى، كما رفض مدح إسحق بن الاعور وكان محافظا على طريق طرابلس، فاعْتَاقَهُ عن طريقه، فهجاه المتنبى، ما كان أسهل من أن يمدحه ويكتفى شرّه، ولكنه مدح ابن العميد لأنه أديب كبير وكان المتنبى يحترمه ويُقَدّره - وإذا درسنا شعر المتنبى وتَعَمقنا فى تحليل شخصيته وجدنا أن

(*) ديوان المتنبى ٣٧٣ .

المتنبى لم يكن مقتنعا بما يقوله من مدح، فنجده فى قصائد المدح يهرب من أبيات المدح إلى أبيات الغزل والحكمة والوصف، فهو يضّن بكل أبيات القصيدة علي أي إنسان حتى لو كان سيف الدولة.

وسأستعرض قصيدة أخرى صُنِّفتْ فى ديوان المتنبى على أنها مدح لسيف الدولة، تُبَيِن فيها هذه الحقيقة، وعدد أبيات هذه القصيدة ثمانية وثلاثون بيتا بَدَأها بقوله:

واحرَّ قلباه ممّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ .... ومنْ بجِسْمي وحالي عِنِدَهُ سَقَمُ[١]

ويمدح المتنبى سيف الدولة فى عشرة أبيات أغلبها فى وصف قدرته العسكرية وشجاعته فى هزيمة الأعداء:

إن كان يجمعنا حُبٌ لغُرَّته ... فليت إنّا بقدر الحُبّ نقتَسِمُ
أكلمّا رُمْتَ جيشًا فانثني هرباً ... تَصرّفَتْ بكَ في أثارِهِ الهِمَمُ
عليك هَزمهُمُ في كلّ مُعْتركٍ ... وما عليكَ بهم عارٌ إذا انهزموا
أما تري ظَفَراً حُلواً سِوي ظَفَرٍ ... تصافحَتْ فيه بِيضُ الهِنْدِ واللِمَمُ

وهذه الأبيات كما نرى هى من الأدب القومى أو أدب القتال قبل أن تكون مدحا.

ثم يعاتب المتنبى سيف الدولة لأنّه لم يَفِ بوعده له باعطائه ولاية يحكمها.

يا أعدَلَ الناسِ إلا في مُعَاملتي ... فيكَ الخصامُ وأنتَ الخصْمُ والحكَمُ

ويهاجم حُسَّاده وعلى رأسهم أبى فراس الحمدانى الذى كان حاضرا في

---

(١) ديوان المتنبى ص ٣٣١ .

المجلس ، ويقول لسيف الدوله إنك لاتفرق بين الغَثْ والثمين (الأنوار والظُلَم)

أُعيذُها نظراتٍ منكَ صادقةً ... أن تَحسَبَ الشّحمَ فيمن شحمُه وَرَمُ
وما انتِفاعُ أخي الدّنيا بناظرِه ... إذا إستَوَتْ عندَهُ الأنوارُ والظُلَمُ!

ثم يفخر المتنبى بنفسه فى أربعة وعشرين بيتا من الشعر!، ويهاجم خصومه بين السطور، ويعاتب سيف الدولة صراحة، ويبين له أنه سوف يرحل عنه، وكثير من هذه الأبيات صارت حكماً يرددها الناس لأكثر من ألف عام منها:

سيعْلَمُ الجمعُ ممن ضَمّ مجلسنا .... بأنّني خَيرُ من تَسعي به قدمُ
أنا الذي نظر الأعمي إلي أدبي ... وأسمَعَتْ كلماتي من به صَمَمُ
أنامَ ملءْ جُفُوني عن شواردِهاَ .... ويَسْهرُ الخلَقُ جرّاها ويختصِمُ
وجاهلٍ مَدّه في جَهْلِه ضَحِكي .... حتي أتَتْه يَدٌ فَراسةٌ وفَمُ
إذا رأيتَ نيُوبَ الليث بارِزَةً .... فلا تظنّنّ أنّ اللّيْثَ يبتَسِمُ
الخيْلُ والليلُ والبيداءُ تَعرفني ... والسيفُ والرمح والقرطاس والقلَمُ
يا من يَعِزُّ علينا أن نُفَارِقَهُم .... وَجدانُنا كُلّ شيءٍ بَعدَكم عدَمُ
إن كان سرّكم ما قال حاسِدنا .... فما لجُرحٍ إذا أرضاكُمُ ألمُ
إذا ترحّلت عن قَوْمٍ وقد قدروا .... أن لا نُفَارِقهم فالراحلون هُمُ
شرُّ البلادِ مكانٌ لا صديقَ به .... وشرُّ ما يَكسبُ الإنسان ما يَصِمُ
هــذا عتَــابُك إلا أنــهُ مِقَةٌ .... قــد ضُمّنَ الــدُّرّ إلا أنّهُ كَلِمُ

ففى هذه القصيدة كما رأينا عشرة أبيات مدح فقط لسيف الدولة وهذه الأبيات تعتبر من الأدب القومى أو أدب القتال قبل أن تكون مدحا كما

قدمنا، ولو فرض جدلا أن اعتبرناها مدحا فهي لا تُشكل إلا ٢٦٪ من القصيدة "٣٨ بيتا" أما عدد الأبيات التى افتخر فيها المتنبى بنفسه فتبلغ ٢٤ بيتا من الشعر أى ٦٣٪ من القصيدة! فضلا عن ثلاثة أبيات بها عتاب لسيف الدولة.

كما تُظهر هذه القصيدة بوضوح بأن المتنبى لم يكن مقاتلا شجاعا في ميدان الحرب فحسب، ولكنه كان مقاتلا قويا فى ميدان الحياة، كما كان يرى نفسه بين الملوك، بل ربما أعلى قدرا منهم - واعتقد أنّ في هذه القصيدة ردّ مفحم على النقاد الذين رَدَدُوا أن المتنبى كان تاجرا من تجار الأدب.

كما أن المتنبى كان يرى أن العطاء الذى يُعْطى له هو حق له بل هو أقل مما يستحق، فمهما قدم سيف الدولة للمتنبى، فلا يُقاس بما قَدَّمه المتنبى لسيف الدولة وللأمة الإسلامية وكما يقول أحمد محرم:(١)

أبقي لسيف الدولة الشرف الذي .... ترك السيوف مَشُوقَةً تَتَشَوفُ
شرف تخلف بعده فكأنه .... باق علي طول المدي مُتَخَلِّفُ
نَجّاه من غُول الفناء فهذه ... دُنياهُ مونقةً ترِّف وتقطف

ولكن النقّاد يهاجمون المتنبى ويسميهم "المتنبى الحاسدون" وهذا هو قدره كماهو قدر العباقرة، يقول لسيف الدولة:

أزِلْ حسدَ الحُسّاد عني بِكَبْتَهِم .... فأنت الذي صيرتهُمْ لِيَ حُسَّدا(٢)

هاجمه أبو فراس الحمدانى واتهمه بسرقة المعانى من الشعراء، وهاجمه الحاتمى ونسب كثيرا من حكم المتنبي وأقواله إلى حكماء اليونان، وفتح الباب على مصراعيه للهجوم على المتنبى، واستمر الهجوم حتى عصرنا هذا، وبقي المتنبى كالعلم الشامخ تتحطم عليه الأقلام....

---

(١) أبو الطيب المتنبى حياته وشعره ١٦ .
(٢) ديوان المتنبى ٣٧٢ .

المتنبى وكافور الإخشيدى

ولقد بَيَّنَا أن رحيل المتنبى إلي كافور الإخشيدى هو خطأ حياته، ولكن كافور لم يكن بالصورة الهزلية التي صورها له المتنبى، فلقد كان كافور حاكما قويًا وقائدا عسكريا شجاعا، فقد إنتصر على سيف الدولة فى عام ٣٣٣هـ عند مهاجمته لحمص ودمشق، وإنتصر مرة ثانية على سيف الدولة عندما استولى على دمشق، فقد كانت دمشق تابعة لمصر. وكان الحاكم الفعلى لمصر لمدة عشرين عام ٣٣٥ - ٣٥٥ هـ عندما كان وصيًا على الحكم ثم حكم مصر لمدة ٣ سنوات من ٣٥٥هـ إلى ٣٥٧ هـ وكان يُدْعى له على المنابر بمكة ومصر والشام.

كما كان يُلَقب بالأستاذ لأنه كان قارئا جيدا للأدب والشعر، وهو الذى دعى المتنبى لكى يستَقِّر بمصر، فرحل المتنبى إلى مصر وهو يطمع فى أن يوليه كافور ولاية ويأخذ ما استعصى عليه عند سيف الدولة. فإذا كان المتنبى قد مدحه فقد مدح حاكما وقائدا عسكريا واستاذاً مُثَقَّفاً وليس بمسخ مُشوّه كما أحب المتنبى أن يصوره فى هذه الصورة عندما غضب عليه. ولكن المتنبى لم يكن يحترم كافور، وكان لا يراه جديرا بالحكم، فالمتنبى هو الذى رفض تَسّلط الموالى على الحكم فى مقتبل عمره ودعى إلى الثورة ضِدّهم وكان يطلق عليهم الخدم:

بكل منصلت ما زال منتظري .... حتي أدلْتُ له من دولة الخَدَم

فكيف يرضى بكافور!، فجاءت قصائده فى مدح كافور غامضة أحيانا يُشْتَم منها الذم لا المدح ، كمثل :

كفي بك داءً أن تري الموت شافِياَ ... وحسْبُ المَنَايا أن يكُنّ أمانِيا(*)

(*) ديوان المتنبى ٤٤٤ .

وعندما يقول المتنبى لكافور:

أنت أعلي محلةً أن تُهنّــا .... بمكان في الأرض أو في السماءِ[١]

فكيف يجعل المتنبى كافور أعلى من أى مكان في السما ء!

ويستمر المتنبى:

تفضح الشمس كلما ذرّتِ الشمس .... بشَمْسٍ منيرة سوداءِ

إن في ثوبك الذي المجدُ فيه .... لضياءً يُزْرى بكلّ ضياء

يا رجاء العيون في كل أرضٍ .... لم يكن غير أن أراك رجائي

ويعلق الاستاذ عمر فاخورى[٢] علي هذه الأبيات بقوله :رفع المتنبى الكذب إلى درجة العبقرية" ويستطرد: إن مجرد التفكير بهذه الشمس السودا ء تفضح شمس الظهيرة أو بهذه العيون التي تقفف رجا ءها وأمانيها من الحياة على الإكتمال بوجه أبى المسك، إن مجرد التفكير بذلك يثير بَسْمة لا تَمُتْ إلى احترام كافور بشئ، ولا يكتفى بهذا لمديح المبطن، بل يُصَوّره (هزأة) تبعث الطربْ فى النفوس ويشتاقها الناس:[٣]

وما طربي لما رأيتك بدْعَةً .... لقد كنت أرجو أن أراك فاطربُ

وقال ابن جنّى: "لما قرأتَ هذا البيت على المتنبى قلت: جَعَلت الرجل (أبازنّه) أى القرد، فضحك ولم يُجِبْ - كما تنبّه ابن الفرات وزير كافور فقال عن هذه الأبيات التالية، التى مدح بها المتنبى كافور (هذا هزء بكافور).

ومالك تعني بالأسنةِ والقَنَــا .... وجَدُّكَ طَعّانٌ بغيرِ سِنَانِ[٤]

(١) ديوان المتنبى ٤٤٦ .
(٢) أبو الطيب المتنبى شاعر الطموح والعنفوان ٤٦ جوزيف الهاشم- دار مفيد.
(٣) ديوان المتنبى ٤٦٦ .
(٤) ديوان المتنبى ٤٧٧ .

ولِمْ تحملُ السيفَ الطويل نِجَادَهُ .... وأنت غنّي عنهُ بالحَدَثَانِ

ونحن نرى أنّ فى قوله جدك طعّان بغير سنان يقصد فيه أنه يطعن بأظافره أو بقرنه، فيجعله كحيوان مفترس "كالكركدن" أما البيت الثانى الذى يقول فيه إن كافور لا يحمل السيف يقصد به أنه جبان وغير مؤهل للقتال، وهذا لا يمكن أن يكون مدحاً فهو سخرية لا نظير لها. ولما هجى المتنبى كافور بعد أن غضب عليه أبان ذلك بوضوح:

وشعر مدحت به الكركدن .... بين القريض وبين الرقي

فما كان ذلك مدحاً له .... ولكنه كان هَجْوَ الوري

وقد كان رحيل المتنبى إلى كافور كما قدمنا هو خطأ حياته، فكيف يترك سيف الدولة صديق عمره، ويرحل إلى عَدّوه. ومهما قيل من أن سيف الدولة لم يف بوعده في إعطاء المتنبى ولاية يحكمها، فهذا لا يبرر المدح الذى قاله فى كافور كقوله:(١)

ولكن بالفسطاطِ بحراً أزرتُهُ ... حياتي ونُصحي والهَوَي والقَوَافيا

قواصِدَ كافُورٍ توارِكَ غيرِهِ .... ومن قَصَدَ البحر استقّل السّوَاقِيا

ثم يلمح فى طلب ولاية:

وغيرُ كَثِيرٍ أن يزروك راجلٌ .... فيرْجِعَ مَلْكاً للعِرَاقَين واليا

ثم يعاتبه علي عدم الاستجابة له:(٢)

أبا المسك هل بالكأس فضلٌ أنا لُه ... فإني أُغَنّي منذ حينٍ وتشربُ

ويقول فى ذلك الاستاذ محمد شوكت القونى(٣)«كل هذا يفسره أمر واحد

---

(١) ديوان المتنبى ٤٤٢ .

(٢) ديوان المتنبى ٤٦٨ .

(٣) أبو الطيب المتنبى حياته وشعره ص ٥١ .

وهو أنّ المتنبى جاء إلى مصر غازيا طامعا مطالبا ولم يدخلها شاعراً »
ومهماقيل من أن كافور قد غدر به ولم يَفِ بوعده فى إعطائه ولاية، فهذا لا
يبرر الهجاء الذى أمطره به ووضعه فى صورة هزلية كمسخٍ مُشَوّه وهى أبعد
ما يكون عن شخصية كافور، الأمر الذى تَسَبَّبَ فى اهتزاز صورة المتنبى
وأعطى المبرر لحاسديه من مهاجمته.

المدح فى شعر شوقى

مدح شوقى الملوك والأمراء، فقد نشأ ببابهم ، وبالغ شوقى فى ذلك فى زمن الصبا ، ولكنه ما لبث أن أحسّ بأنه تمادى فى ذلك، وندم عليه حتى أنه صرح بذلك في المقدمة التى كتبها للطبعة الأولى من الشوقيات المنشور عام ١٩٠٠ يقول "على أن ما جمع فى "الشوقيات" ثم طبع ليس كل ما قيل، فقد أسقطت منه الكثير وعثرت على غيره ولكن فى الزمن الأخير فأما ما أسقط عمدا فأكثره من قولى فى زمن الصبا الذى لا يُؤْمن فيه على المرء الغرور، ولا يسلك فيه سبيلا إلى وهو مضلل عثور ويكون أثمه أكثر من نفعه، ولكنى حرصت على إثبات بعض الشيء منه كما يحرص الإنسان على ذكر ما طاب من أيام الشباب".

فقد قام شوقى بحذف ثلاث وستين قصيدة مدح فى الأسرة المالكة ولم يدوّن في الشوقيات إلا سبع قصائد فقط، وأهمها مدح محمد على الكبير والخديوي اسماعيل، وحسين كامل وفاطمة إسماعيل.

لم يقتصر مدح شوقى على الحاكم أو الأسرة المالكة ولكنه مدح النابغين من أبناء مصر والأمة العربية مثل على باشا إبراهيم وأيضا أحمد حسنين والطيار محمد صدقى - كما كرّم الموسيقار سامى الشوّا، والشاعر السورى أمين الريحانى والسيد نصير عندما حصل على بطولة العالم فى رفع الأثقال والشاعر أبو الوفا.

وهذه القصائد من أجمل ما نظمه شوقى:

يقول لعلى باشا إبراهيم:

عليٌّ لقد لَقّبتْكَ البلادُ .... بآسي الجِراحِ ونِعْمَ اللقبْ[١]
سِلاحُك من أدواتِ الحياةِ .... وكلُّ سِلاحٍ أداةُ العطبْ

ويقول للسيد نصير بطل العالم فى رفع الأثقال:

شَرفًا نُصَيْرُ ارفع جَبينَك عالياً[٢]
وتَلَقَّ من أوطانك الإكليلا
إن الذي خَلقَ الحديدَ وبأسَه
جعل الحديدَ لساعديكَ ذليلا

مدح شوقى محمد على الكبير كما مدح المتنبى سيف الدولة الحمدانى فمَدْحُ كلاهما كان مدحاً سياسياً في المقام الأول.

فكما كان سيف الدولة قائدا عسكريا حمى الأمة الإسلامية من غزوات الروم، فإن محمد على كان قائداً حربيا وسياسا داهية، أنقذ مصر من ظلم المماليك وحُكْم الأتراك الهزيل، وأنشأ أول جيش مصرى، فأعطى المصريين شرف الجندية بَعْد حِرمانهم منها مئات السنين، وأسَّسَ دولة عظمى تمتد من تركيا حتى حدود الحبشة، وأنشأ الدولة العصرية فبنى المدارس العليا فى الطب والهندسة وغيرها التى كانت اللبنة الأولى للجامعة المصرية، ونظم الرى وبنى القناطر الخيرية، وقاد ابنه إبراهيم جيوش مصر الظافرة.

(١) الشوقيات الصحيحة ج٤، ٧٥ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج٤ ، ٧٦

ألا يستحق محمد على المديح!

يقول شوقى :

عَلمٌ أنت في المشارق مُفْرَد .... لك في العالمينَ ذكرٌ مُخلدْ[1]

ولواء فى البِّر والبحر يُعْطِي .... مَظْهَر الشمس في الوجود وأزْيدْ

ليس من يفتحُ البلاد لتَشْقَي .... مثلَ من يفتحُ البلادَ لتَسْعَدْ

وكما هاجم النقاد المتنبى، هاجموا شوقى وتجنوا عليه واتهموه بأنه ربيب القصر يسير على هوى صاحب العرش.

استشهد الدكتور شوقى ضيف ببعض أبيات من قصيدة شوقى الذى يهاجم فيها رياض باشا رئيس وزراء مصر، لأنّ رياض باشا كان قد أشاد باللورد كرومر وكفر بمصر، ومطلعها:

كبير السابقين من الكرام .... برغمي أن أنالك بالمَلامِ

قال الدكتور ضيف إن شوقى لم يغضب لوطنه ولم يغضب لشعبه وإنما غضب لأميره، فلم يكن يفهم حينئذ حق الفهم سوى سلطانه، ولم يكن يدور بخلده سوى القصر الذى يعيش فيه، قصر الأسرة العلوية "الذى يتربع عباس على أريكته".

ونحن نندهش لما قاله الدكتور ضيف وسأكتفى بذكر بعض أبيات جاءت فى هذه القصيدة:

يقول لرياض باشا:

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ١١٧ .

لَهْجَت بالاحتلال وما أتاه ... وجُرحُك منه لو أحْسَسْتَ دامي[١]
فهلا قُلت للشبّانِ قَوْلا .... يليق بحافِل الماضي الهُمامِ
يبُثّ تجارب الأيام فيهمْ .... ويدعو الرابضينَ إلي القيام!
ثم يقول: أحبك مصر من أعماق قلبي ... وحبُكِ في صميم القلب نامي
سيجمعني بك التاريخ يوماً .... إذا ظهر الكرامُ علي اللئام
وهبتكِ غير هيَّابٍ يَراعاً ... أشَدَّ علي العَدُوِ من الحسامِ

فبالرغم من أن شوقى يُحرض على الثورة "ويدعو الرابضين إلى القيام" يُتَّهم فى وطنيته!؟

واستشهد الدكتور ضيف ببعض أبيات من قصيدة شوقى "وداع اللورد كرومر وقال ويذكر شوقى أعمال محمد على وإسماعيل ويغضب غضبة قَوِّيه للأسرة العلوية، وهو فى غضبه لا يستمد من الجذوة الكبيرة الهائلة، جذوة الشعب، وإنما يستَمِدْ من جَذْوة ضعيفة هى جذوة الأسرة العلوية"!

ونحن نرى أن الدكتور ضيف لم يكن منصفا أيضاً هنا ، ففى هذه القصيدة يوّجه شوقى كلامه إلي اللورد:

أيامكم أم عهد إسماعيلا .... أم أنت فِرْعون يسوسُ النيلا[٢]

ويهاجم بكل شجاعة اللورد المستبد:

لما رحلت عن البلادِ تشّهدت .... فكأنك الداءُ العياءُ رحيلا

ثم يهاجم الحكومة الإنجليزية:

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٤٩ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٠٦ .

دخلتْ علي حكم الوداد وشرعه ... مصرا فكانتْ كالسُّلاَلَ دُخولا
هَدَمَتْ معالمها وهدّت رُكنها .... وأضاعت إستقلالها المأمولا

ثم يهاجم اللورد لإضعافه الجيش المصرى:

أم هل يعد لك الإضاعة منةً .... جيشٌ كجيش الهند باتَ ذليلا
إنظر إلي فتياته ما شأنُهم .... أو ليسَ شأناً في الجيوش ضئيلا

ثم يدافع شوقى عن الدين الإسلامى وكان اللورد قد طعن على الدين الإسلامى وزعم أنه دينٌ لا يصلح لهذا العصر:

من سَبَّ دينَ محمدٍ فمحمدٌ .... مُتَمكّنٌ عند الآله رسولا

أبعد كل هذا يُقال إن شوقى لم يثر لشعب مصر، ولم يدافع عن شعب مصر، وعن عقيده مصر وعن جيش مصر.

أما ما ذكره الدكتور ضيف من أن شوقى يذكر أعمال محمد على وإبراهيم وإسماعيل، ورَفْض الدكتور ضيف لذلك!! فإن شوقى ذكر ذلك رداً على مَنّ اللورد المتكرر على مصر والمصريين وإدعائه أنه جلب الحضارة إلى مصر...

فكان ولابد أن يرد شوقى عليه، ويَرّد له الصاع صاعَيْن:

في كل تقريرٍ تقول خلقتكَم .... أفهل تري تقريرك التنزيلا
وحياةَ مصرَ علي زمانِ محمدٍ .... ونهوضها في عهد إسماعيلا

وعندما يفتخر شوقى بإنجازات حُكّام مصر يقول:

ومعاقلا لا تُمّحي آثارها .... وجيوش ابراهيم والأسطولا
ومدائنا قد خططت وطرائقا .... كانت حُزونا فاستحلْنَ سُهولا

قد مَد إسماعيلُ قبلك للوري .... ظِلَّ الحضارةِ في البلاد ظليلا

وعندما يفتخر شوقى بإنجازات حكام مصر ويمدحهم، فهو يدافع عن مصر أمام اللورد المتعجرف، فالحكام هم رمز للدولة لا جدال فى ذلك، ولا نرى فى هذا المدح أنّ شوقى تخلّى عن جذوة الشعب كما ذكر الدكتور ضيف.

ويمدح شوقى الأتراك ، ويتّهمه النُّقاد بأنه منحاز للترك، يقول الدكتور محمد حسين هيكل[١]:« وقد بلغ من حُبْ شوقى للترك أن كان يعتبرهم مجموعة فضائل لا تَشُوبها نقيصه، وأن مرجع ذلك أنّ الأتراك كانوا مقر الخلافة وقبله المسلمين الزمنية يجرى فى دمهم فى عروق الشاعر الكبير"

ونحن لا ننكر أن شوقى كان عثمانيَّ الهوى، وأنه مدح الترك وافتخر بهم كرمزٍ للخلافة الإسلامية، ولم يكن شوقى هو المنفرد بهذا الفكر، فقد أحس شعب وادى النيل بذكائه الفطرى بالخطر القادم من الغرب فأيدوا تركيا بالرغم من ظلم حكامها، وشوقى لا يُخْفى ذلك يقول:[٢]

حتي أُتّهِمْتُ فقيل تُركي الهوَي ... صدَقوا هوَي الأبطال ملءُ فؤادي
وأخي القريبُ، وإن شقِيتُ بِظلمه ... أدني إليّ من الغريب العَادي
الله يعلم ما انفردت، وإنما .... صوّرتُ شِعري من شُعورِ الوادي

أما الأستاذ العقاد فقد هاجمه أيضا، يقول "فقد كان شوقى يُحس الوطنية[٣] المصرية كما يَحُسّها ألتركى المتمصر من طبقة الحاكمين أو المقربين إلى الحكومة - فكان ينظم في الخلافة وحوادث الدولة العثمانية ويبرئ الحكم التركى من عيوبه التى عرفت فى مصر كما عُرفت فى البلاد

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ١٤ .
(٢) الشوقيات المجهولة ج٢، ٢٠١ .
(٣) كتاب مجموعة أعلام مصر ص ٣١٥ .

التركية" ، فالعقاد يهاجم شوقى دائما فى أصوله التركية وقد نسى الاستاذ العقاد أن الإسلام حَسَم ذلك "لا فضل لعربَي على عجمى إلا بالتقوى" ونحن نرفض هذا النقد رفضا تاما ، فشوقى لم يبرأ الحكم التركى من عيوبه لا في مصر ولا فى تركيا ، كما ذكر الاستاذ العقاد ولكن هاجمه هجوما عنيفا!

فشوقى يهاجم الحكم التركى فى مصر ويقول إن الحاكم التركى كان كآلة صماء فى يد المماليك:

واذكر الترك إنهم لم يطاعوا .... فيري الناس أحسنوا أم أساءوا[١]
حكمت دولةُ الجراكس عنهم .... وهي في الدهر دولةٌ عسراءُ
واستبدت بالأمر منهم فباشا .... الترك في مصر آلة صمّاءُ

كما هاجم السلطان التركى وحيد الدين لاستبداده بالحكم فى تركيا ، وممالأة أعداء بلاده قال:

ووليا للطواغيت بها .... كان يُدْعَي بأمير المؤمنينْ[٢]
ألبس الإسلام ذُلاً وكسا .... خُلفاء الله أثوابَ القطين
كان (كالصيّاد) في دولته .... دولة الوهِم ومُلك الحالمينْ

ويقول للسلطان عبد الحميد إن عزله عن الحكم كان نتيجة لإستبداده ، وعدم إحترامه لأحكام الدستور:

سدت الثلاثين الطوا .... ل ولسنَ بالحكم القصير[٣]

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ص ٣٢ (٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ص ٣٠٤ .
(٣) الشوقيات الصحيحة ج١، ١٤٤ .

تَنْهي وتأمُر ما بدا .... لك في الكبير وفي الصغير
صبروا لدولتكَ السنيـ ... ن وما صبرت سوي شُهور
أوذِيتَ من دُستورهم .... وحننت للحُكْم العسير
قالوا اعْتَزِلْ قُلتُ اعتز ..... لتُ - الحكم لله القدير

وهاجم مصطفى كمال عندما أسقط الخلافة الإسلامية:

أفْتَي خُزُعبلةً وقال ضَلالةً .... وأتي بكفرٍ فى البلاد بِرَاحِ[1]
إن الغرور سقي الرئيسَ براحةَ ... كيف إحتيالك في صريع الرَاحِ
تركته كالشبحِ المؤلَةِ أُمَةٌ ... لم تسلُ بعد عِبادةَ الأشباحِ

وكان شوقى يرى أن الأتراك تَخلّفوا فى مجال العلم، ففقدوا قُوّة الحاضر وقُوة المستقبل، وهى القوة التى سوف تحكم وتتحَكَمْ في حياةِ الشعوبِ.

رأى ببصيرته الحادة أنّ الدنيا قد تَغَّيَرت، وأن قوة السيف لا ترقى ولا تعادل قوة العلم - يقول موجّها نصِيحته إلى الترك:

هذا الزمان تناديكم حوادِثُهُ ... يا دولةَ السيف كوني دولة القلم[2]
فالسيف يهدم فجرا ما بني سَحَرَا .... وكل بنيان علم غير مُنْهَدِمِ

ويعاتب الترك لتَخَلفهم العلمى ويحذرهم من الغرور:

هذا جناة عليكم أباؤكم .... صبرا وصفحا فالجناةُ كرام[3]
رفعوا علي السيف البناء فلم يَدُمْ .... ما للبناء علي السيوف دوام

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ١١٤ (٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ص ٢٦٧ .
(٣) الشوقيات الصحيحة ج١، ص ٢٧٨ .

أبقـي المـمالكِ ما المعارفُ أُسُّه .... والعدلُ فيـه حـائطٌ ودعـامُ
أن الـغـرورَ إذا تَمَلَّك أُمَّـةً .... كـالـزهـرِ يُخْفِي المـوتَ وهـو زؤامَ

وكما نرى فقد هاجم شوقى الترك وقال عنهم إنه شعبٌ مغرور، متخلف علميا، يعبد حكامه، وقال عن بعض حكامه أنهم خونة ومغرورون ولا يحكمون بالعدل وشبههم بالأشباح - فكيف يقول الاستاذ العقاد إنّ شوقى يبرأ الحكم التركى من عيوبه التى عرفت فى مصر والبلاد التركية، وكيف يقول الدكتور محمدد حسنين هيكل إن شوقى كان يرى الأتراك بدون نقيصة؟!

ويقول الدكتور حلمى مرزوق إن هجاء شوقى للترك هو "هجاء حضارى"(١)

وأرى أن شوقي فى هجائه هذا للأتراك، كان يرمى إلى الإصلاح وليس إلي الإهانة.

ويَسْتَمِّر الاستاذ العقاد فى هجومه على شوقى فيقول "إن بيئة شوقى هى بيئة الترك المتمصرين الذين عَنَواُ بالجامعة الدينية أكثر من عنايتهم بالوطنية المصرية" (٢) فالاستاد العقاد يرى أن إنتماء شوقى للأمة الإسلامية نقيصة تَسْتَوجِبْ التأنيب، فقد كرّم شوقى الدعوة الإسلامية وتصدى لخصومها بقصائد خالده رددها وسوف يرددها المسلمون أبد الدهر. أما الشق الثانى وهو إتهام شوقى بضعف وطنيته المصرية، فقد جانب الأستاذ العقاد الصواب هنا أيضا فالذى قال وهو في المنفى:

(١) شوقى وقضايا العصر والحضارة دار النهضة العربية بيروت، ص ٢٥ .
(٢) مجموعة أعلام الشعر، ص ٣١٥ .

وطني لو شغلت بالخلد عنه .... نازعتني إليه فى الخلد نفسي[١]

والذى قال :[٢]

ويا وطني لقيتك بعد يأسٍ .... كأني قد لقيتُ بك الشبابا

أدير إليك قبل البيت وجهي .... إذا فُهْتُ الشهادة والمثابا

والذى قال :[٣]

أني أحبُ وإن شَقِيتُ به ... وطني وأوثره على الخلد

لا يمكن أن يُتَّهم فى وطنيته.

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٤٥ .

(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٦٨ .

(٣) مجنون ليلى ١١٤ .

المتنبي في مصر

استدعى كافور المتنبى إلى مصر طامعا في أن يمدحه فى شعره، ويخلدّه فى قصائده، وحضر المتنبى إلى مصر طامعا فى ولاية يتولّاها ومالا وفيرا يحصل عليه. فكلاهما كان طامعا في الآخر، ولم يكن التقاؤهما عن صدقٍ ومودّة، كما كان الحال بين المتنبى وسيف الدولة - وكان كلاهما مُتربِّصْ بالآخر، ولم تكن بينهما ثقة مُتَبادلة، والمتنبى يقول وهو فى مصر:[١]

ولما صَارَ وُدُّ النّاسِ خِبًا .... جُزِيت علي ابتسامٍ بابتسامِ

وصِرْتُ أشُكُّ فيمن أصْطَفيه .... لعلْمي أنّه بعضُ الأنَامِ

وكما كان مُتَوقَّعا، لم يف كافور بوعده، فلَمْ يُوَلِّ المتنبى على ولاية يحكمها، ويطلب المتنبى من كافور أن يفى بوعده ويكرر الطلب فلا يستجيب كافور له، ويبلغ المتنبى أقصى درجات اليأس والإحباط، ويتذكر أيّام المجد والشموخ عند سيف الدولة ويقارنها بما وصلت به حالته، فيثور لكرامته التى أهدرها كافور ويثور على كافور وعلى المصريين الذين قبلوا أن يحكمهم هذا العبد، فيهجو مصر والمصريين:[٢]

حَصَّلت بأرض مصرَ علي عبيدٍ .... كأنّ الحرّ بينهمُ يتيمُ

ثم يتهكم على المصريين ويخرج عن اللياقة:[٣]

إني نزلتُ بكذّا بينَ ضَيْفهُمُ ... عن القري وعن الترحال محمودُ

أكلما اغْتال عبدُ السوء سَيِّدَه ... أو خانه فَلَهُ في مصر تمهيدُ

ولنترك التهكم والسب الذى وجهه المتنبى إلى كافور وإلى المصريين، ونُقَيِّم ما قاله عن الوضع السياسى، فلم يكن كافور "عبد السوء" كما وصفه

(١) ديوان المتنبى ٤٨٣ .
(٢) ديوان المتنبى ٥٠٣ .
(٣) ديوان المتنبى ٥٠٧ .

المتنبى بل كان قائداً سياسياً وعسكرياً شجاعاً كما بَيّنّاَ، ولم يكن خائنا لأبناء الإخشيد فقد حافظ على الدولة والحكم ولا يوجد دليل أو إشارة بأنه اغتال سَيده، ولكن التاريخ يذكر أن كافور كان مخلصا ومطيعا لسيده.

ويتمادى المتنبى فيقول:

أغاية الدين أن تَحْفُوا شواربكم .... يا أمةً ضحكتْ من جهلها الأُمَمُ

ويصف المتنبى المصريين بالجهل وهذا الوصف بعيد كل البعد عن الحقيقة، فقد كانت مصر في هذه الحقبة من الزمن على درجةً عالية من الثقافة والمعرفة، فقد فاقت حلب فى علوم الدين والعلم والأدب والفلسفة.

ويقول الدكتور طه حسين "إن هذه النهضة العلمية بدأها الإمام الشافعى عندما وفَد على مصر فى أواخِر القرن الثانى الهجرى ثم دفعها ابن طولون دفْعَةً قَويّه عندما حكم مصر سنة ٢٥٤ هـ - ٨٦٨م.

وقد شجع الإخشيديون العلماء فازدهرت العلوم والآداب فى عهدهم واستمرت فى الازدهار حتى جاء الفاطميون فى سنة ٢٩٧ هـ/ ٩٦٩م فَتَبَنْوْا العلم العلماء وأنشأوا الجامع الأزهر فقامت حضارة في مصر تَفُوق حضارة بغداد."

فالمتنبى عندما نزل بأرض مصر كانت العلوم والآداب أكثر ازدهارا من حلب، فلم يكن صادقا في وصفه المصريين بالجهل، كما لم يكن صادقا في تقييمه لكافور. ويقول الدكتور طه حسين(٢) "إنّ المتنبى كان يُدرك أنّ فى مصر نهضة رفيعة من العلم والمعرفة، وقد ظهر أثر هذا فى شعر المتنبى

(١) ديوان المتنبى ٢ ٥٠ .

(٢) مع المتنبى ٢٩٠ .

الذى قاله بمصر، فقد ظل الشاعرملاحظا نفسه، مراقبا فَنَّه، لا يظهر الشعر ولا يُنْشِدُه إلا بعد الامتحان والابتلاء والتمحيص لأن المتنبى فيما يظهر كان يقدِّر العلماء والمثقفين المصريين أكثر مما يقدر العلماء والمثقفين الذين يلقاهم في قصر الحمدانيين بحلب"

ويظهر لنا أن المتنبى كان قد تَفَرَّغ لمدح كافور ثم لهجائه وهجاء المصريين فلم يشعر بما عدا ذلك فى مصر، فلم يشعر بنهر النيل ولا برياض مصر ولا بأهرام مصر - فلم يأت ذكرهم فى قصائده كما بَيّنا من قبل.

ولكن المتنبى بعبقريته وشفافيته يرى وضعا في مصر لم يره غيره، فَيجَسّمه ويُجَسّدُه بأبلغ ما قاله من الشعر:(*)

صار الخَصيُّ إمامَ الآبقين بها ... فالحرُّ مُسْتَعْبَدٌ والعبدُ معبودُ
نامت نواطيرُ (١) مصرٍ عن ثعالبها (٢) ... فقد بَشَمْنَ (٣) وما تَفْنَى العناقيد

يقول المتنبى فى البيت الأول إن المصريين يعبدون الحاكم ويألّهُونَهُ حتى لو كان عبداً تافها ... أما البيت الثانى فَسَأترك التعليق عليه للدكتور طه حسين "ما أرى أن المتنبى قد ألهم البلاغة والحكمةَ حقًا، حين وُفق إلى هذا البيت الذى يختصر لونا من حياة مصر منذ أبعد عهودها بالتاريخ إلي هذا العهد الذي نحيا فيه. ولو أن التاريخ أراد أن يُحْصى الثعالب التي عدت على مصر وأحوالها، فأخذت منها ما أطاقت وما لم تُطق حتى أدركها البَشَمْ، ونَوَاطِيرُها نائمة، وقادتها غافلون، وأموالها مع ذلك لا تفنى ولا

(*) ديوان المتنبى ٥٠٧ .
(١) نواطير مصر: قادتها
(٢) الثعالب يقصد اللصوص.
(٣) البشم: التُخْمَة

تنفدْ، ودول الثعالب يتلو بعضها إثر بعض - أقول لو أراد التاريخ إحصاء هذه الثعالب، لما استطاع - ولست أدرى: أيأتى يوم يُكَذّبُ فيه هذا البيت من شعر المتنبى، فلا تنام نواطير مصر ولا تَبْشَم الثعالب فيها، ولا يعدو الماكرون الغادرون على أهلها الآمنين الغافلين"

هذا هو ما قاله المتنبى عن مصر فلم يكن عفيف اللسان عندما وصف المصريين بالكذب والبخل، ولم يكن صادقا عندما وصفهم بالجهل فقد كانوا أعلم من أهل حلب الذى جاء المتنبى من عندهم، كما لم يكن صادقا عندما وصف كافور بالجهل والتفاهة والخيانة، ولكنه كان صادقا وعبقريا عندما قال إن المصريين يعبدون الحاكم مهما كانت صِفَتُه، وأن اللصوص ينهبون ثرواتها، وبالرغم من ذلك فإن خيراتها لا تَنْضُب!.

الهجاء في شعر المتنبي

كان المتنبي قاسيا في هجائه، وكان يُحَقِّر الذي يهجوه ويحّط من كرامته ولا يرحمه. وكان هجاؤه هجاءا شخصيا، فهو يَهْجو الشخص لشخصه وليس لرأيه. ولكن بالرغم من ذلك فإن في بعض قصائد الهجاء، نجد أبياتا من أجمل وأبلغ ما قاله في الغزل والحكمة! ،وأعتقد أن المتنبي لم يكن يخرج عن الهجاء بأبيات في غرض آخر لأنه يَضِّنْ على المهجي بكل أبيات القصيدة كما كان يفعل في المدح، بل لكي يَسْتَعرض قُدْرَتُه اللغوية وبلاغته وحكمته، وهو في ذلك مثل الموسيقي الموهوب في سيمفونياته، يرتفع بطبقة اللحن فيُحلّق معه السامع في السماء ثم لا يلبث أن ينزل باللحن إلى الأرض في لحن مختلف تمام الاختلاف، والمتنبي يرتفع بالقارئ بحِكَمه إلى سماء البيان، ثم ينخفض إلى أسفل ويُمْطِر المذموم بأقْذَع أبيات الهجاء.

ربما كان المتنبي يرمي إلي تخليد هذه القصائد، ويَجْعل القارئ يعيد قراءتها، ليس من أجل أبيات الهجاء، ولكن لما تحتويه من كنوز الحكمة والغزل - من منا لم يُعيد قراءة القصيدة التي بها هذه الأبيات الخالدة:(١)

ولقد رأيتُ الحادثاتِ فلا أري ... يَقَقًا (٢) يُميتُ ولا سوادا يَعْصِمُ
ذو العَقلِ يَشقَي في النعيم بعقله ... وأخو الجهالةِ في الشقاوَةِ يَنْعَمُ
لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذي .... حتي يُراقَ علي جوانِبِهِ الدَمُ
والظُلم من شِيَمِ النفوسِ فإن تَجِدْ .... ذا عِفَّةٍ فلعلةٍ لا يَظْلمُ

وهذه الأبياتُ من قصيدة هجاء لإسحق بن الأعور وكان محافظا على

---

(١) ديوان المتنبي ٥٧٠ .

(٢) يقق: الأبيض يقصد بياض الشعر.

طريق طرابلس، فطلب من المتنبى أن يمدحه فاعتذر المتنبى، فما كان من اسحق إلا إعتاقه عن طريقه، فلما فارقه المتنبى هجاه بهذه القصيدة، وعدد أبيات هذه القصدة ثمانية وعشرون بيتا، بها ستة عشر بيتاً غزل وحكمة، وخمْسَّة أبيات مدح لأبى العشائر وهو صديق للمتنبى، ثم ستِّة أبيات هجاء لابن الأعور:

وجُفُونُه ما تستَقرّ كأنها ... مَطْروفَةٌ أوفُتّ فيها حصِرمُ
وإذا أشار مُحدّثا فكأنّهُ .... قردٌ يُقَهقِهُ أو عجوزٌ تلطم
أرْسلتَ تَسْألني المديحَ سفاهةً .... صفراءُ أضيقُ منك ماذا أزْعَمُ

- لم يُشكّل الهجاء كمًا كبيرا فى شعر المتنبى، فعدد أبيات الهجاء فى ديوانه كانت مائة وعشرين بيتا فقط من عدد أبيات الديوان (٥٤٩٠) أى ٢,٢٪ وهو عدد قليل لا يبرر ما قاله النقاد على أن المتنبى كان هجّاءً، وربما جاءته هذه الصفة من هجائه لكافور الإخشيدى بقصائد هزلية أضحكت الناس فرددوها ولا زالوا يرددونها وقد مرّ عليها أكثر من ألف عام، كما أنه قُتلَ من أجل قَصيدة هجاء خرج فيها عن اللياقة، قالها فى أخت فاتك الأسدى فقتله، قال فى هذه القصيدة: (*)

ما أنْصَفَ القَوْمُ ضبّه ... وأُمّهُ الطُّرُطُبّه

وجاء فيها:

يا قاتِلاً كلَّ ضَيْفٍ ... غنَاهُ ضَيْحٌ وعُلْبَهْ
ما كنت إلا ذُبابا ... نفتْك عنّا مَذَبّهْ

وكانت والدة ضبّه شقيقة "فاتك ابن أبى جهل الأسدى" فلما بلغت فاتك هذه القصيدة غضب غضبا شديدا وأضمر السوء للمتنبى. وتَتَبّع فاتك أثر

(*) ديوان المتنبى ٥٧٤ .

المتنبى وقتله هو وابنه وغلامه بالقرب من بغداد فى ٢٨ رمضان سنة ٣٥٤ هـ الموافق ٢٧ أيلول سنة ٩٦٥م، وكان عمر المتنبى خمسين عاما.

أما هجاء المتنبى لكافور الإخشيدى، فكان هِجاءً قاسيا مُهينا ولابد وأن المتنبى كان فى أقصى درجات القهر النَفْسى، فقد ترك سيف الدولة صديق عمره ومثله الأعلى و رفيقه فى السلاح لجفوة بينهما ورحل إلى مصر بعد إلحاح كافور عليه بالحضور، ولكن كافور لم يعطه ولايَةً يحكمها كما وعده، ومنعه من مغادرة مصر فاضطر للهروب. يقول بعد هروبه من مصر:[1]

عيد بأيّة حالٍ عُدْتَ يا عيدُ ... بما مضي أم لأمر فيك تجديدُ
لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي ... شيئاً تُتَيمُهُ عينٌ ولا جِيدُ
يا ساقِيي أخمرٌ في كؤوسكما ... أم في كؤوسكما همّ وتسهيدُ

وقد كان كافور يخشاه وكان يردد: كيف أعطى ولاية لمن ادّعى النبوة؟!

هرب المتنبى من مصر ليلة عيد النحر سنة ٣٥٠ هـ، وانطلق يهجو كافور بأقذع أبيات الهجاء بدون أى تَحَفُّظ ولا رَوِيّة، فجاءت قصائده مهينة تبعث على الضحك بصوتٍ مسموع، وأصبح اللسان العربى يُرَدِدْهَا لأكثر من ألف عام.

ربما نكون قَدْ قدمنا عذرا للمتنبى لما قاله فى حق كافور ولكن مهما قيل من تبرير، فلا ينفى أن هذا الهجاء لم يكن فى صالح المتنبى. ولم يكتف المتنبى بهجاء كافور ولكنه تطاول وهجا المصريين!.... ويستطرد!

إني نزلتُ بكذّابين، ضيفهُم ... عن القِري وعن الترحال محدود
ما يقبضُ الموتُ نفسا من نفوسهم ... إلا وفى يده من نتنِهَا عودُ

---

(١) ديوان المتنبى ٥٠٦ .

ثم يمطر كافور سيلا من الهجاء، يبدأها باتهامه بالقتل وهى تهمة لا يوجد دليل على صحتها:

أكلما اغتال عبد السوء سَيِّدَه ... أو خانه فلهُ في مصر تَمهيدُ
صار الخَصِيّ أمام الآبقين بها ... فالحرّ مستعبدٌ والعبدُ معبودُ
من علّم الأسود المخصِيّ مكرمةً .... أقومه البيضَ أم أباؤه السود

ويستهزئ بكافور للونه الأسود ويسخر منه، وهذا يتنافى مع تعاليم الإسلام، وقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا بلال العبد الحبشى فى مكانة عالية فى الدعوة الإسلامية. وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن السخرية، وكان مشددا فى ذلك حيث قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم) (الحجرات)، ولا عجب أن يأتى ذلك من المتنبى الذي لم يكن متدينا وكما لم يكن قوى الإيمان، وثم يُزيد التهكم على كافور للونه الأسود:

ولا توهمت أن الناس قد فقدوا ... وأن مثل أبي البيضاءِ موجود

ثم يَخْتِم القصيدة مُعَرِّضاً بسيف الدولة، ومُحَقِّرا سواد البشرة:

وذاك أن الفحول البيضَ عاجزةٌ ...عن الجميل، فكيف الخصيةُ السودُ

وإذا كنا ننكر هذا الأسلوب الشخصى للهجاء، فلا بد وأن نُقَرِّر أن المتنبى في صباه وهو دون العشرين، هاجم وهجا الموالى الفرس الذين سيطروا على مقاليد الحكم - وهذا الهجاء يُعْتبر هجاءً سياسيا وليس شخصيا - وقد أطلق المتنبى كلمة الخدم والعبيد على هؤلاء الموالي:

بكّل منصلت مازال منتظري ... حتي أدلت له من دولةِ الخدم
شيخ يَرَي الصلوات الخمس نافلةً ... ويستحلّ دمِ الحجاج فى الحرم

الهجاء في شعر شوقي

وكما رأينا فإن هجاء المتنبي يعتبر في زماننا هذا سبًا عَلنّياً يَقَع تحت طائلة القانون، ولكن هجاء شوقي كما يقول الدكتور مرزوق[١] "كان هجاءً حضاريا يليق بمعايير العصر وليس بخُلُقْ البداوة في الشتم والتنابذ، وذلك ارتقاء بالشعر العربي ومزّية كبرى من مزايا التجديد سَبَق إليها شوقي غير مدافع" فهجاء شوقي هو هجاء سياسي أو خلاف مذهبي، يعتبر تعبيرا عن حرية الرأي ولا يُآخذ عليه صاحبه. فلم يكن شوقي يهجو شخصا لسلوكه الشخصي أو للونه كما كان يفعل المتنبي، ولكنه كان يهجو الفكر، الخاطئ والرأي المنحرف:

هجا شوقي رياض باشا رئيس وزراء مصر لخروجه عن الخط الوطني ومَدْحه للإنجليز، وابتعاده عن الأماني الوطنية، فهو في هذا الهجاء يتكلم بلسان الشعب المصري كله وبلسان الوطنية المصرية، ويبدأ القصيدة بالاعتذار لرياض باشا عن هذا الهجاء الذي يوجهه إليه! فيقول له، إنك رجل عظيم رفيع المقام ولكنني مضطر لهجائك ولومك، لأنى أرى أن الحق فوقك وفوق مقامك، ولم أر أدَباً فيْ الهجاء بمثل هذا القول من قبل ومن بَعد.

كبيرُ السابقين من الكرام .... برغمي أن أنالك بالملام [٢]
مقامُك فوق ما زعموا ولكن ... رأيتُ الحقّ فوقك والمقام
رأَوْا بالأمس أنفَكَ في الثريا ... فكيف اليوم أصبح في الرّغام

---

(١) شوقي قضايا العصر والحضارة ٢٥ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٤٩ .

أمـا والـلـه مـا عـلـموك إلا ... صـغـيـرا فـي ولائـك والخِصـام
لهجتَ بالاحتلال وما أتاه ... وجُرحُكَ منه لو أحسستَ دَامِي
جنيت علي قلوبِ الجمع يأساً ... كأنكَ بينهم داعي الحِمام

وينْهي شوقي أبيات الهجاء، ويتجه إلى أبيات من الحكمة:

وكـيـف يـنـالُ عـونَ الـلـه قـومٌ ... سَراتُهـمُ عـوامـلُ الانـقـسـام
إذا الأحـلامُ فـي قـوم تَولّـتْ ... أتـي الـكـبـراءُ أفـعـالَ الـطَغـام

ثم يتغنى بحبّه وهيامه بمصر:

أُحبُكِ مصرَ من أعماقِ قلبي .... وحُبُك فى صميم القلبِ نامي
سيجمعُني بكِ التاريخُ يوماً ... إذا ظهر الكرامُ علي اللئام
وهبتُكِ غير هيّابٍ يراعاً .... أشدّ علي العدُوّ من الحسام...

وأعتقد أن شوقى كان يرى ألا يصّح أن تكون كل القصيدة هجاءاً فأثراها بأغراض أخرى....

ولكن شوقى الإنسان لا يلبث أن يتراجع أمام رهبة الموت، فيرثى رياض باشا بقصيدة تقع فى خمسة وتسعين بيتا من أبلغ ما قاله شوقى في الرثاء، فتاريخ رياض باشا يقترن بتاريخ كبار الحوادث فى مصر منذ الخديوى إسماعيل حتى أواخر حكم عباس الثانى ولكن شوقى فى رثائه لا ينفى التهمة عن رياض باشا بل يقول له، ومن منا لم يخطئ، "وأى الناس ليس له هناتُ" فَنَفْى التُهمة أو إسقاطها ليس من حقّه ولكنها من حق الشعب المصرى ومن حق التاريخ يَقُول:

مماتٌ في المواكب أم حياةُ ... ونعشٌ في المناكب أم عظاتُ[١]
أخذتك في الحياة علي هناتٍ ... وأيّ الناس ليس له هناتُ
فصفحاً في التراب إذا التقينا ... ولوُ شيتِ العداوة والتِّراتُ
خُلقتُ كأنني (عيسي) حرامٌ ... علي قلبي الضغينةُ والشَمَاتُ

ثم يثرى القصيدة بأبيات من الحكمة:

أليس الحق أن العيش فانٍ ... وأن الحيَّ غايتهُ المماتُ
بنو الدنيا علي سفرٍ عقيمٍ ... وأسفار النوابغ مرجعاتُ
أري الأموات يجمعهم نُشُورٌ .... وكم بُعث النوابغ يوم ماتوا
صلاحُ الأرض أحياءٌ وموتي ... وأنجمها وزينتها الهداةُ

وفى هجاء شوقى للّورد كارنارفون الذى مَوّل مستر كارتر مُكْتشف مقبرة توت عنخ أمون - يهجو شوقى اللورد لأنه أخذ خِفْية أغلى ما فى الكنز من تُحَفْ بينها تاج الملكة وعقدها (وقد ثبت ذلك فيما بعد عندما نشرت الصحف البريطانية سنة ١٩٨٣ أن حفيد اللورد باع كثيرا من تُحَفْ المقبرة)

فهجاء شوقى للّورد هجاءاً سياسياً، وهو فى ذلك يتكلم بلسان الشعب المصرى الذى يحافظ علي تاريخه وتراثه:....

أُبُوَّتنا وأعظمهم تراثٌ ... نُحَاذر أن يؤول لآخرينا[٢]
سكَتَّ فَحَام حولك كل ظَنٍ .... ولو صرَّحت لم تُثِر الظنونا

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج٣، ٤٦
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٣١٧

يقول الناسَ في سرٍ وجَهرٍ ... ومالك حيلةَ فى المرجفيناَ
أمن سرقَ الخليفةَ وهو حَيٌّ   يَعِفُّ عن الملوك مُكفنيناَ

اتهام صريح بالسرقة....

ولكن شوقي الإنسان يخضع هنا أيضا لرهبة الموت فيرثى اللورد، ولكنه لا يُسقِط عنه التُهمة، فإسقاطها لَيْسَ مِنْ حقه ولكنها من حق الشعب المصرى. ولكنه يرثيه لأنه كان له الفَضْل في إكتشافْ المقبرة التى أظهرت تراثا عريقاً من حضارة مصر وريادة مصر.

أنت البشيرُ به وقَيِّمُ قَصْره ... ومقدَّمُ النبلاءَ من حُجَّامه(١)
لولا بَنانُكَ في طلاسِمِ تُرْبِهِ .... ما زاد من شرفٍ علي أترابهِ
أخرجت من قبرٍ كتاب حضارة .... الفنّ والإعجاز من أبوابه
وادي الملوك بكت عليكَ عيونُه ... بمرَقْرقٍ كالمزنِ في تسكابهِ

ثم يثرى القصيدة كعادته بأبيات من الحكمة:

في الموت ما أعيا ومن أسبابه .... كل امرئ رهنٌ بِطَيِّ كتابهِ
ما مات من حازَ الثري آثارَه .... واستولتِ الدنيا علي آدابه

وقلّما هجا شوقى هجاءا شخصيا، وإذا هجا أحدا فلا يصرّح باسمه فعندما يصف صاحبا أهوج:

لنا صاحبٌ قد مُسَّ إلا بقيَّةً ... فليس بمجنونٍ وليسَ بعاقلٍ(٢)
له قدمٌ لا تَستقرُّ بِموْضعِ ... كما يَتنزَّى في الحصي غَيْرُ نَاعلِ

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٨٩
(٢) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٨٢

ولكنه لم يذكر من هو هذا الصاحب.

ويقول بعد عودته من المنفى لمن أنكره من أصحابه وهو فى محنته:

شكرتُ الفُلك يوم حويْتِ رَحْلي ... فيا لمفارقٍ شكر الغرابا (١)
فأنت أرحتنى من كلّ أنفٍ ... كأنف الميْت في النزع انتصابا
ومنظرِ كلّ خوّانٍ يراني ... كوجه كالبَغِيّ رَمَي النقابا

ولكن شوقى لم يصرح باسم هؤلاء الخونة.

أما الهجاء الذى قيل أن شوقى قاله فى عرابى بَعْد عودته من المنفى فهو هجاءاً سياسياً، ولكن لم يكن هناك دليل مؤكد على أنّ شوقى قال هذه القصائد الثلاث، وقد نشرت الصحف قصيدتان وعليها توقيع "نديم" والقصيدة الثالثة "بدون توقيع" فكيف تُنْسَب هذه القصائد إلى شوقى، كما أن هذه القصائد الثلاث لم تُدَّون في الشوقيات - وكما قُلنا إن هذه القصائد كانت قصائد سياسية رأى كاتبها أن عرابى هو المسئول عن هزيمة الجيش المصرى العسكرية، وعن دُخول الإنجليز مصر، وعن الجنود الذين قتلوا فى معركة التَّل الكبير. أى أن عرابى لم يقم بواجبه فى الدفاع عن مصر - وإذا فرض جدَلا أن شوقي هو الذى نظم هذه القصائد فقد تراجع عنها ولم يسجلها فى ديوانه.

ولا يوجد في الشوقيات إلا بضعة أبيات بها تعريض بعرابي:

حتي تلفت عن محاجر رومةٍ ... فرأي (عرابى) فى المواكِب قيْصرا (٢)

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٦٧
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ١٨١

ودعا لمخلوقٍ وأله زائلاً ... وارتدَّ في ظُلمِ العُصورِ القَهْقَرَي

ومن الواضح أن هذا الهجاء هو هجاء سياسى.

وقد هاجم شوقى وهجا سلاطين الأتراك عندما خرجوا عن الأمانى الوطنية واعتدوا على الدستور واستبدُّوا بالحكم يقول عن السلطان وحيد الدين:

وليًّا للطواغيت بها .... كان يُدْعَي بأميرِ المؤمنين(١)
ألْبَسَ الإسلامَ ذلاً وكساَ ... خُلفاءَ اللّهِ أثوابَ القطينْ

وهجا مصطفي كمال عندما أسقط الخلافة الإسلامية:

أفتي غُزَعْبلةً وقال ضلالةً ... وأتي بِكفرٍ في البلاد بِرَاحِ(٢)
إن الغرورَ سقي الرئيس براحهِ .... كيفَ احتيالُك في صريع الراحِ
أدوًا إلي الغازي النصيحة يَنْتَصِحْ .... إن الجوادَ يثوبُ بعد جِماحِ

ويهاجم الشعب التركى

تركته كالشَبَحِ المؤلَّة أمةٌ ... لم تَسْلُ بعدُ عبادةِ الأشباح

ويستمر فى تأنيب الشعب التركى:

ودعوا التفاخر بالتراث وإن غلا ... فالمجدُ كسبٌ والزمانَ عِصامُ(٣)
فإذا جري رَشْدا ويُمْنًا أمركم ... فامشوا بنورِ العلم فهو زِمام
إن الغرور إذا تَمَلَكَ أمةً ... كالزهر يُخْفي المَوتَ وهو زؤام

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٣٠٤
(٢) الشوقيات الصحيحة ١١٥
(٣) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٧٨

ولا شكَّ أن كل هذا هجاء سياسى - فلم يكن شوقي يرمى إلى تحقير حكام وأفراد الشعب التركى، ولكنه كان يرمى إلى تصحيح مسارهم وإرجاعهم إلي الصواب. أدّوا إلى الغازى النصيحة، فامشوا بنورِ العلم...

(*) الشوقيات الصحيحة ج٤، ٧٥ .

(*) الشوقيات الصحيحة ج٤ ، ٧٦



الرثاء في شعر المتنبي

الرثـاء فـى شعـر المتنبـى

يُعَدُّ الرثاء من أهم الأغراض فى الشعر العربى، والرثاء الصادق تعبير عن أسمى آيات الوفاء والإنسانية. ورثاء الخنساء لأخيها صَخْر من أروع ما نُظِم فى الرثاء، فهى تُذْرِف دموع قارئها حتى بعد مرور أكثر من ألف عام. ومن أشجن ما قيل فى الرثاء، ما قاله الشاعر العربى القديم فى رثاء عزيز له يُدْعى مالك:

لقد لامني عند الوقوف علي البكا ... صديقي لتذراف الدموع السوافكِ
يقول أتبكي كل قبرٍ رأيته ... لقبرٍ ثوي بين اللوي والدكادكَ
فقلت له إنّ الشجي يبْعَث الشَجَي ... فَدْعني فهذا كله قبرُ مالك !

وفى عصرنا الحديث تميّز حافظ إبراهيم فى الرثاء، ويقول عن نفسه:

إذا تَصَّفَحْت ديواني لتقرأه ... وجدت شعر المراثي نصف ديواني

وشوقى يقول فى رثائه لحافظ إبراهيم:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي ... يا مُنْصف الموتي من الأحياء

والرثاء الصادق لإنسان فاضل يخلّد ذكراه أبد الدهر.

والمتنبى كان مُقِلًا فى قصائد الرثاء، فلم ينظم فى الرثاء إلا قصائد محدودة، ستًا منها مجاملة لسيف الدولة فى رثاء أفراد من أسرته وخادمه التركى، وقصيدة فى رثاء عمة عضد الدولة. كما نظم المتنبى قصيدة فى رثاء جدّته التى كانت بمثابة أمه، وثلاث قصائد فى رثاء صديقه الحميم أبى شجاع فاتك الرومى وقصيدة فى رثاء صديق له.

ويقول الدكتور طه حسين[١] عن قصائد الرثاء التى ينظمها المتنبى مجاملة لسيف الدولة "هذه القصائد إن كانت لا تخلو من جيّد الشعر وروائعه فليست هى خير ما قاله المتنبى فى الرثاء، ومصدر ذلك فيما يظهر أن المتنبى قال أكثرها أداء للواجب ونهوضاً بالحق، لا استجابة للعاطفة، ولا إعرابا للضمير، فهو قد لجأ فيها إلى فنّه وعَقْله أكثر مما صدر فيها عن قلبه وشعوره، ومن هنا نُحّس فيها كثيراً من البرد، فإن لم يكن بردٌ فنحن نحّس فيها الفُتُور، ولكن رثاءه على كل حال عادى دون المتوسط. وخير ما فيه هذه الإلمامات القَصيرة ببعض الآراء الفلسفية، التى كانت بذوراً صالحة لفلسفة أبى العلاء".

ونحن نرى أن رثاء المتنبى لم يكن دون المتوسط، وربما كانت عدد قصائد الرثاء محدودة، ولكن الرثاء كان رفيع المستوى يرقى إلى درجة مُمَيَّزة. فإذا كان المصاب أليما، فإن أكثر ما يُسّرى عن النفس الحزينة ويهدئها هو التذكير بالموت، وبأن الموت هو نهاية كل حىّ، فقد فرضه الله سبحانه وتعالى على الإنسان "نحن نميتكم ثم نحييكم"، وهذا يُريح النفس المعذبة من ألم الفراق. ويقول المتنبى فى رثاء عمة عضد الدولة:[٢]

لابد للإنسان من ضجعةٍ ... لا تقلبُ المُضْجَع عن جنبه
نحن بنو الموتي فيما بالنا ... نَعاف ما لا بدّ من شُرْبه
يَمُوتُ راعي الضأنِ في جهله ... مِيتَةَ جالينُوسَ في طِبِّه
وغاية المُفْرطِ في سِلْمِه ... كغَايةِ المفْرِطِ في حَرْبِه

(١) مع المتنبى ٢٠٤
(٢) ديوان المتنبى ٥٥٧

ولا أبالغ القول إذا قلت إن أبيات الحكمة فى هذه القصيدة بلغت مرتبة عالية من البلاغة والإقناع حتى تجعل الإنسان يقبل الموت، وقد بقيت هذه الحكَمُ خالدةً لأكثر من ألف عام يرددها الناس لإراحة النفوس الحزينة التى ثَكَلها الموت - أليست هذه الحكم أرقى وأبلغ من البكاء والنحيب على الفقيد، وشوقى يقول فى ذلك:

أليس الحقّ أن العيش فان ... وأن الحيّ غايته المماتُ

ويقول :

كل حيّ علي المنية غادي ... تتوالي الركاب والموت حادي

وفى مناسبة تقديم واجب العزاء لصديق حميم فقد شقيقه الذى كان فى ريعان شبابه، كان صديقنا يبكى بكاءً مراً فقال له أحد الزملاء، هوّن على نفسك فكلنّا إلى الموت سائرين. نحن نركب قطار الحياة ويترك بعضنا القطار فى إحدى المحطات، ويترك الآخرون القطار فى المحطات التالية ويبقى البعض ولكن لابد وأن يتركوا القطار فى آخر محطة فلم يلبث أن كفّ صديقنا عن البكاء وقال لى "إن ما قاله الصديق نزل برداً وسلاماً على نفسى".

فنحن صحبة نركب قطار الحياة، ويقول فى ذلك أبو العلاء المعرى:

أمّا الصحاب فقد مَرّوا وما عادوا

وبيننا بلقاء الموت ميعاد

ويقول المعرى عن نفسه وقد طال به العمر، وبعدت محطة نهاية الحياة:

لعمرِي لقد طال هذا السفَر

عـــلـــيّ وأصـــبـــحـــت أحـــدو الـــنفَرْ

وفى رثاء والدة سيف الدولة يَجْنَحْ المتنبى إلى الحكمة [١]

نُعَدّ المشـرفيـةَ والعـوالي ... وتـقـتـلـنـا المـنـون بـلا قـتـال

ثم يكرم الفقيدة ويكرم المرأة ببيتين من الشعر أصبحا يرددا على ألسنة الناس فى كثير من المناسبات:

ولو كان النساءُ كمن فَقَدْنا ... لفُضِّلَت النساءُ علي الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ... ولا التذكير فخرٌ للهلال

ويستمر المتنبى فى حكمه الخالدة...

يُدَّفِنْ بعضُنا بعضاً ونَمشي ... أواخرنا علي هامِ الأواليّ

وقد أخذ هذا المعنى أبو العلاء المعرى ونظمه فى بيتين:

خَفِّفْ الوطأ ما أظن أديم ... الأرض إلا من هذه الأجساد

سِرْ في الهواء ما استطعت رُوَيْدا ... لا اختيالا علي رُفات العبادِ

ثم يدعو سيف الدولة إلى الصبر:

أسيف الدولة استنّجِد بصبرٍ ... وكيف بِمثل صبرك للجبال

والمتنبى متعدد الأغراض فى القصيدة الواحدة، فليست كل القصيدة رثاءً أو مدحاً، وهذا التعدد يثرى القصيدة ويدفع عنها طابع المَلَلْ.

ويضع المتنبى نفسه داخل هذه القصيدة، ويذكر ما أصابه من آلام وأرزاء فى حياتِه. ويطبع القصيدة بطابعه الفكرى والفلسفى بهذين البيتين الذين

(١) ديوان المتنبى ٢٦٥

بلغا القمة فى البلاغة وأصبح الناس يرددونها إذا ألمّتْ بهمُ مُلمة:(١)

رَمانـي الـدهـر بـالأرزاءِ حتّي ... فـؤادي فـى غشـاءٍ مـن نبـالِ
فصِرْتُ إذا أصابتني سِهامٌ ... تكسرتِ النِصالُ علي النِّصالِ

ويفقد سيف الدولة خادمه وقائده التركى "يماك" فيرثيه المتنبى بقصيدة طويلة بلغت واحداً وثلاثين بيتا!، ولاشّك أن هذا الرثاء هو مجاملة لسيف الدولة فهو عزاء رسمى لا حرارة فيه:(٢)

لا يُحزن اللـه الأميـر فإنني ... لآخذ من حالاته بنصيب
وإني وإن كانَ الدفين حَبِيبَهُ ... حبيبٌ إلي قلبي حبيبُ حبيبي

ولكن لا يلبث المتنبى أن يترك هذا العبث، فقد ضاق به، ويخرج إلى رحاب الحكمة ويثرى القصيدة بأبلغ الأبيات:

وقد فارق الناس الأحبّةُ قبلنا ... وأعيا دواء الموت كلَّ طبيبِ
سُبِقْنَا إلي الدنيا فلو عَاش أهلها ... مُنِعْنا بها من جَيْئةٍ وذُهُوبِ
تملّكها الآتي تملُّكَ سالبٍ .... وفارقها الماضي فِراقَ سَليبِ

فالمتنبى فى البيت الثانى يرى أن الموت ضرورة حتى لا يكثر عدد الناس فتضيق بهم الأرض، فلو لم يمت من سبقنا، لما أمكننا أن نجئ إلى الدنيا ثم نذهب عنها.

والمتنبى فى هذا الرأى كان إلى جانب الصواب، ولكنه فى قصيدة أخرى يرفض الموت ويقول "إنه ضربٌ من القتل"!(٣)

إذا ما تأملت الزمان وصَرفَه ... تيَقّنْتُ أن الموتَ ضربٌ من القتْلِ

ولا أرى فى هذا التناقض إلا إضطرابا فى الفكر وبعدا عن المنطق،

---

(١) ديوان المتنبى ٢٦٥ .
(٢) ديوان المتنبى ٣٢٢ .
(٣) ديوان المتنبى ٢٨١ .

وضعفا فى الإيمان، فكيف يكون الموت الذى فرضه الله على عباده قتلا!.

ويلتقط المعرى آراء أستاذه المتنبى فيتمادى فى الخروج عن الإيمان ويشكك فى البعث:

رَيْبُ الزمان مفرّق الإلفين ... فاحكم إلهي بين ذاك وبيني
أنهيت عن قتل النفوس تَعمُّدا .... وبعثت أنت لقتلها مَلَكَيْن!
وزعمت أنّ لها معادا ثانيا ... ما كانا أغناها عن الحالين!

أمّا شوقى فمن واقع إيمانه العميق يقبل الموت ويؤمن بالبعث يقول:

خُلقْنا للحياةِ وللمماتِ ... ومن هذين كلّ الحادثات
أليس الحق أن العيش فانٍ ... وأن الحيّ غايته المماتُ

ويرى فى الموت صلاح فى الأرض، وتجديد للحياة:

أري الأموات يجمعهم نشوّر ... وكم بُعث النوابغُ يوم ماتوا
صلاحُ الأرض أحياءٌ وموتي ... وزينتها وأنجمها الهداةُ

ويستثنى الدكتور طه حسين قصيدة المتنبى التى رثى فيها خوله "ست الناس" أخت سيف الدولة الكبرى، فيقول إن المتنبى أشاع فى هذه القَصيدة حزنا أيسر ما يوصف به أنّه كان عميقا حقّا. وعَلّل ذلك بأن المتنبى كان قد اشتدّ حنينه إلى سيف الدولة بعد طول الفراق وبعد أن ألمّت به وبالأمير خطوب جعلت كل واحد منهما فى حاجةٍ إلى صاحبه. ويعلل بعض النقّاد هذه اللوعة إلى حُبٍ عنيف مكبوت كان يربط المتنبى بالفقيدة، وبقراءة هذه القصيدة ومابها من حُزْنٍ وشجن نرى تفضيل الرأى الثانى. فعندما بلغ المتنبى نَعْيَها فزع إلى عدم تصديقه، عسى أن يكون نبأً كاذبا، ولما تبين

صدق النبأ، بكى بالدمع الغزير:

طوي الجزيرة حتي جاءني خَبَرٌ ... فَزِعْتُ فيه بآمالي إلي الكذبِ [١]
حتي إذا لم يدع لي صِدقه أملاً ... شَرِقْتُ بالدمع حتي كاد يشرق بي
أري العراق طويل الليل إذْ نعيت ... فكيف ليلُ فتي الفتيان في حَلَبِ

وعندما رثى المتنبى صديقه محمد بن اسحق التنوخى، وكان فارساً شجاعاً، نجد فى القصيدة حرارة الرثاء ولوعة الحُزن:[٢]

ماكنت أحسب قبل دفنك في الثّري .... أن الكواكب في التراب تغور
ماكنت آملُ قبل نعشك أن أري ... رضوي علي أيدي الرجال تسيرُ[٣]
خرجوا به ولكل باك خلفَهُ ... صعقاتُ موسي يومَ دكّ الطورُ
حتي أتَوْا جدثا كأن ضريحهُ ... في قلب مُوحِّدٍ محفورُ

ولما سمع الشاعر الكبير سيبويه هذا الرثاء، صاح وقام وهو يقول:

لبيك اللهم لبيك، وأنا أسير هذه الأبيات، وما أقدر على مثلها إلا بسرقة معانيها!

واستزاد بنوعم الميت، فقال المتنبى ارتجالا:

صبّرا بني اسحق عنه تكرّما ... إن العظيم علي العظيم صبور

واستمر فى إلقاء أبيات من الرثاء والحكمة حتى بلغت ثلاثة عشر بيتاً من الشعر من أبلغ ما قاله المتنبى، ولاشك أن هذه القصيدة تبين عبقرية

---

(١) ديوان المتنبى ٤٣٣
(٢) ديوان المتنبى ٧١ .
(٣) رضوى جبل بالمدينة.

المتنبى وقدرته البلاغية.

وعندما يرثى المتنبى صديقه الحميم أبا شجاع فاتك بمصر، والذى كان يجّله ويحترمه نجد بين السطور حزناً ولوعةً لا نراها فى القصائد الرسمية:(*)

الحزن يُقْلِق والتجمع يَرْدَعُ ... والدمع بينهما عَصِيٌّ طَيِّعُ
يتنازعان دموعَ عينِ مُسَهَّدٍ ... هذا يجيءُ بها وهذا يَرْجِعُ

ويثرى القصيدة بأبيات من الحكمة كدأبه:

أين الذي الهرمانِ من بُنْيانِه ... ما قَوْمُهُ ما يَوْمُهُ ما المصرَعُ
يا من يُبَدِّلُ كُل يوم حُلَةً ... أنّي رَضيتَ بحُلةٍ لا تُنْزَعُ
ما زِلْتَ تَخْلَعُها علي من شاءَها ... حتي لَبِستَ اليومَ ما لا تَخلعُ

وفجأة وبدون توقُع، يخرج المتنبى على الرثاء، ويَتَوجه إلى كافور الإخشيدى!، ويُمْطره بأبيات من أقذع ما قاله فى الهجاء:

قُبْحًا لوجهِكَ يا زَمَانُ فإنّهُ ... وجهٌ له من كلِّ قُبْحٍ برْقُعُ
أيموتُ مثلُ أبي شجاع فاتكٍ ... ويعيشَ حاسِدُهُ الخَصِيُّ الأوْكَعُ
أيدٍ مُقَطَّعَةٌ حوالَيْ رأسِهِ ... وقَفًا يَصيحُ بها: ألا مَنْ يَصفَعُ
أبْقَيْتَ أكْذَبَ كاذبٍ أبقَيْتَهُ .... وأخذتَ أصْدَقَ من يَقُولُ ويَسمَعُ

فإذا كان الهدف من الرثاء هو تمجيد فاتك وتخليد ذكراه، فما هو الداعى فى هذه المناسبة إلى هجاء كافور وتحقيره، أما كان الأولى بالمتنبى أن يهجو كافور بقصيدة منفصلة تضاف إلى باقى قصائد الهجاء التى قالها فيه، بدلاً من تشويه هذه القصيدة بهذه الأبيات الهزلية، فموقف الحزن والشجن الذي يحيط بقصيدة الرثاء، لا يصحّ خلطه بالهزل والضحك. كما أن

(*) ديوان المتنبى ٤٩١ .

بالقصيدة بُعداً عن الإيمان، فكأن المتنبى يريد أن يتدخل فى آجال البشر، ألا يَعْلَم المتنبى أن لكل أجلٍ كتاب.

وفى رثاء المتنبى لجدَّته لأمِّه، وكانت له بمثابة الأم، نرى الحزن الحقيقى الصادر عن القلب، فقد طالت غيبته عنها، وماتت قبل أن تُسَافر إليه.

وشتان بين الحزن الحقيقى وبين الحزن الذى يُنْظم للمجاملات التقليدية للملوك والأمراء، فربما تجد فيها أبياتا من الحكمة قد تصل إلى أعلى درجات الكمال، ولكن لن تجد فيها حرارة الحزن ورنّة الأسى التى تجدها فى مثل هذا الرثاء:(*)

ألا لا أري الأحداثَ مدحاً ولا ذمّا
فما بطشُها جَهلاً ولا كفُّها حِلما
لك الله من مفجوعةٍ من حبيبها
قتيلة شوقٍ غيرِ ملحقِها وَصْماَ
أحِنّ إلي الكأس التي شربت بها
وأهوي لمثواها الترابَ وما ضَمّا
بكيتُ عليها خِفيةً في حياتها
وذاق كلانا شكْل صاحبه قدْما
أتاها كتابي بعد يأسٍ وقرحةٍ ... فماتت سرورا بي فَمُتُّ بها غَمّا
حرامُ علي قلبي السرُورُ فإنني ... أعدّ الذي ماتت به بعدها سُمّا

ثم ينطلق المتنبى بأبيات الحكمة والفخر بنفسه، التى يثرى بها قصائده:

إلي مثل ما كان الفتي مرجعُ الفتي ... يعود كما أبدي ويكري كما أرْمي

(*) ديوان المتنبى ١٧٤ .

ولو لم تكوني بنت أكرَمِ والدٍ ... لكان أباك الضخم كونك لي اما
وإني لمن قومٍ كأن نفوسَهُمْ .... بها أنَفٌ أن تسكن اللحم والعظما

أما أغرب ما قاله المتنبى كان فى مناسبة وفاة رجل اسمه اسحق بن كيغلغ قتله غُلْمَانُه، وهذه القصيدة التى نظمها المتنبى فى هذه المناسبة لايمكن أن تُسَّمى رثاءً، ولكنها من أقْذع ما قيل من إهانات فى حق هذا القتيل.

ويظهر أن المتنبى كان يكرهه ويحتقره، ولكن هذا لا يُبَّرِرُ ما قاله المتنبى فى حقّه بعد وفاته، ولا أعتقد أن أحدا من كان يوافق على هذا الشَمَاتْ، فضلا عن أن مثل هذا القول يتعارض مع التعاليم الإسلامية "اذكروا محاسن موتاكم" وشوقى يقول فى مثل هذا الموقف:

خلقت كأنني عيسي حرامٌ ... علي قلبي الضغينة والشَماتُ

يقول المتنبى فى ابن كيغلغ:[1]

قالوا لنا: مات اسحق فقلت لهم ... هذا الدواء الذي يُشفي من الحُمْقِ
إن مات مات بلا فَقْدٍ ولا أسفٍ .... أو عاشَ عاشَ بلا خَلْقٍ ولا خُلُقِ
منه تَعَلَّم عَبدٌ شقّ هامَتَهُ ... خَوْنَ الصديق ودَسَّ الغدر في الملق[2]
وحلف ألف يمينٍ غيرُ صادِقةٍ ... مطرودةٍ ككعوبِ الرمح في نَسَقِ
ما زلت أعْرِفَه قردا بلا ذنبٍ ... خِلْواً من البأس مملوءاً من النَّزَقِ

وتَسْتَمِر القصيدة حتى تبلغ أحد عشر بيتا، ولا يتوقف قارئها عن

---

(١) ديوان المتنبى ٢٣٤

(٢) الملق: اظهار الحب

الضحك بصوت مسموع، "وشر البَليَّةِ ما يُضْحِكُ"

وكنت أتمنى ألا يقول المتنبى هذه القصيدة.

وكما رأينا فإن قصائد الرثاء فى شعر المتنبى كانت قليلة العدد وربما يرجع ذلك إلى شخصية المتنبى، فقد كان متعالياً على الناس ولم يكن مجاملا ولا مشاركا لهم فى أحزانهم، ولم يَرْثِ إلا أقْرب المُقربين إليه من الأمراء أو الأصدقاء، فلم يكن من المتوقع أن المتنبى الذى سحر الناس ببيانه لم ينظم فى الرثاء إلا اثنتى عشرة قصيدة.

ولكن قصائد المتنبى فى الرثاء كانت رفيعة المستوى، ثرية بالحِكَمْ البليغة التى تجعل الإنسان يقبل الموت بنفس راضية.

وكما قدمت فإن تذكير الإنسان بحتمية الموت، وانتهاء الحياة، هى السبيل الأمثل لتهدئة النفوس الحزينة التى فقدت أعزائها، وهى الأكثر أثراً من إثارة الحزن والشجن.

وقد ردد الناس حكم المتنبى فى المناسبات الحزينة لأكثر من ألف عام وسوف يرددونها أبد الدهر.

الرثـــاء فى شعــر شوقــى

كان الرثاء من أهم الأغراض فى شعر شوقى - فشوقى كان إنسانا رؤوفا رحيما يحمل بين جوانحه أسمى المشاعر الإنسانية. وقد بلغت قصائد الرثاء فى شعر شوقى أكثر من ستين قصيدة، دُوِنَ فى الجزء الثالث من الشوقيات (المراثى) تسعة وخمسون قصيدة، غير قصائد أخرى جاءت فى باقى أجزاء الشوقيات.

فكما رثى الملوك والأمراء، رثى الزعماء الوطنين فى مصر والعالم العربى والإسلامى ونزل إلى الشعوب، فرثى أبناء مصر وأبناء الشعْب العربى.

رثى ضحايا حريق ميت غمر[1] وهو الحريق الذى أتى على البلدة كلّها، ورثى شهداء العلم والغربة [2]، ورثى شهداء ثورة مصر والشهداء الذين قتلوا من أجل الدستور وشهداء الوطن العربى كله.

رثى الشعراء ورجال الأدب ورجال الفن من مصر ومن العالم العربى. ويخرج شوقى بشعره إلى الإنسانية فيرثى النابغين من كل أنحاء الدنيا فيكتور هوجو، تولوستوى، شكسبير، كما يرثى الضحايا من شعوب العالم، فقد كان يرى أن البشر إخوان فى الإنسانية - يرثى ضحايا زلزال طوكيو ويوكوهاما[3] الذى قُتَل فيه الآلالف من البشر، ويرثى شهداء بيروت

(١) الشوقيات الصحيحة ج٤، ٤٥

(٢) هم طائفة من شباب مصر سافروا لتلقى العلم فى جامعات أوروبا فاصطدم بهم القطار فقتل منهم أحد عشر طالبا سنة ١٩٢٠

(٣) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٨٤

عندما قصفها الإسطول الإيطالى عام ١٩٠٤، ويرثى شهداء دمشق عندما قصفها الفرنسيون بالمدافع.

وتتوالى قصائد الرثاء فى كل مناسبة حتى تصل إلى أكثر من ثلاثة آلاف بيت من الشعر. ويثرى شوقى قصائد الرثاء بحِكم غالية فاقت فى عددها وبلاغتها أبيات الحكمة التى قالها فى باقى قصائده.

وكان شوقى شديد الانتماء إلى أسرته، فرثى والدته ووالده وجدّته بأبلغ ما قاله فى الرثاء - وفى رثاء شوقى لأسرته ولأصدقائه نجد الحزن العميق والألم الصادق النابع من القلبْ مما يجعل القارئ يُذْرف الدموع.

ومن منا لم ينفعل عندما يقرأ رثاء الزعيم مصطفى كامل:[1]

ولقد نظرتُك والرَّدي بك مُحدقٌ ... والداء ملِء معالم الجثمان
يَبغي ويَطْغَي والطبيب مَضلَّلٌ ... قَنطٌ وساعاتُ الرحيل دَواني
ونواظرُ العوّادِ عنك أمَالها .... دمعٌ تُعالج كتْمه وتُعاني
ورأيت كيف تموت آسادُ الشري ... وعرفتُ كيف مصارعُ الشُجْعان
وجعلتَ تسألُني الرثَاء فهاكه ... من أدْمُعي وسرائري وجَناني
يا صَبَّ مِصرَ ويا شَهيدَ غَرامِها ... هذا ثري مصرٍ فَنَمْ بأمانِ

ويثرى القصيدة بأبيات الحكمة:

والخلد في الدنيا وليس بهيِّنٍ ... عُلْيَا المراتبِ لم تُتَحْ لجبَانِ
فلو أن رُسْل الله قد جبّنوا لما ... ماتوا علي دينٍ من الأديان
دقَّاتَ قلب المرءِ قائلةٌ له ... إن الحياة دقائقٌ وثواني

(١) الشوقيات الصحيحة ج٣، ١٦٧

فارفع لنفسكَ بعد موتك ذِكرَها ... فالذكْرُ للإنسان عُمرٌ ثاني

والبيتين الأخيرين أصبحا مثلا يردده الناس، ويذكرونهما كلما فقدوا عزيز لهم، والبيت الأخير يُوَجِّه الناس إلى العمل الصالح.

وفى رثائه لوالده نجد مشاعر البُنُوَّةْ الصادقة والحزن العميق:(١)

أنـا مـن مـاتَ ومـنْ مـاتَ أنـا ... لَقِيَ المـوتَ كِلانـا مرَّتـين

مـا أبـي إلا أخٌ فـارقـتُه ... وُدُّه الـصـدقُ وودُّ الـنـاسِ مَيْن(٢)

لـيت شعـري هـل لـنا أن نـلْتـقي ... مـرةً أم ذا افـتراقُ المَلَوَيـن

وإذا مـتُ وأودعـت الـثَّرَي ... أنُلَقَي حُفـرةً أم حـفـرتـيـن

وينطلق بأبيات الحكمة:

غـايـةُ المـرءِ وإنْ طـال المَدَي ... أخذٌ يـأخـذُهُ بـالأصْغَرَيْن

إن للـموت يداً إن ضَربتْ ... أوشكت تصدَّعُ شَمل الفَرقَدَيْن

تَنفُذ الجوَّ علي عِقبانه ... وتُلاقي اللَّيثَ بين الجبلين

وشوقى من واقع إنسانيته يرثى خصومه فى الحياة، ولا يحمل لهم فى قلبه ضغينة، فيرثى رياض باشا بقصيدة وتقع فى خمسة وتسعين بيتا وكأنه يعوضه على الهجوم الذى شَنَّه عليه فى حياته...، وقد ذكرناها من قبل.

خلقت كأنني (عيسي) حرامٌ ... علي قلبي الضغينةُ والشَّماتُ

وشتان ما يرثى به شوقى خصومه وما يرثى به المتنبى خصومه! ويثرى شوقى القصيدة بأبلغ أبيات الحكمة كما بينًا من قبل.

(١) الشوقيات الصحيحة ج٣، ١٦٤ .

(٢) مين: كذب.

وربما يهاجم شوقى فى بعض قصائد الرثاء بعض المعتدين والحاسدين الذين تطاولوا على الفقيد فى حياته، ففى رثاء مصطفى كامل يقول:(١)

مَن للحسود بميتةٍ بُلِّغتها ... عزّت علي (كسري) أنو شرْوان

عُوفيتَ من حَربِ الحياةِ وحرْبها ... فهل استرحتَ أم استراح الشاني(٢)

ولكنه لم يُفسِرْ عن اسم ذلك الحسود وذلك الشانى.

ويرثى حافظ إبراهيم بقصيدة عصماء ينبي مطلعها على مبلغ تقديره لصاحبه ووفائه له(٣)

قد كنت أُوثِر أن تقول رثائي ... يا مُنْصف الموتي منْ الأحياءِ

يا حافظ الفُصحي وحارسَ مجدها ... وإمام من نَجلَتْ من البُلغاءِ

خلّفْتَ في الدنيا بياناً خالداً ... وتركت أجيالاً من الأبناء

ويثريها بأبيات من الحكمة:

ماذا وراء الموتِ منه سلوي ومن ... دَعَةٍ ومن كرمٍ ومن إغْضاءِ

رُتَبُ الشجاعة في الرجال جلائلٌ ... وأجَلّهُن شَجَاعةُ الأراء

ويهاجم شوقى الذين تطاولوا على حافظ إبراهيم، وكان هجومهم شرسا ظالما، وحاولوا هدمه والإنقاص من قَدْره فيقول شوقى:

الناطقونَ عن الضغينة والهَوي ... الموغرو الموتي علي الأحياء

من كلّ هدّام ويَبْني مَجْدَه ... بكرائم الأنقاض والأشلاءِ

(١) الشوقيات الصحيحة ج٣، ١٧٠

(٢) الشانى: المبغض.

(٣) الشوقيات الصحيحة ج٣، ٢٤

وما حَطَّموك ولكن بك حُطِّموا .... من ذا يُحطمُ رفرف الجوزاء[١]

ولكن شوقى لم يذكر اسم هؤلاء الهَدامين،

ويرثى شوقى الزعيم محمد فريد ويعدد مناقبه ويفخر به وبوطنيته وبجهاده وتضحيته من أجل مصر - ولم يتأثر شوقى بما قاله محمد فريد فى حقّه، وباتهامه لشوقى بضعف وطنيته - وشتّان بين سلوك شوقى مع مخالفيه فى الرأى وبين سلوك المتنبى!

مصر تبكي عليك في كلّ خِدْرٍ .... وتصوغ الرثاء في كلّ نادِ[٢]

(كفريدٍ) أين ثاني فريدٍ ... أيُّ ثانٍ لواحدِ الآحادِ

وفى رثاء شوقى لأبطال التحرير من الزعماء ومن أبناء الشعوب، لا يكتفى شوقى بتمجيدهم وتخليد ذكراهم، ولكنه يُحَرِّضُ على استمرار الثورة، حتى يتم التحرير الكامل، فليس رثاءه حزناً وشجناً فقط، ولكنه قوة وبسالة وكفاح. لقد وضع شوقى قواعد الرثاء القومى الذى لم يسبقه إليه أحد من قبل.

ويرثى شوقى سعد زغلول زعيم ثورة عام ١٩١٩ فى أربعة وتسعين بيتا[٣]

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها ... وانحني الشرق عليها فبكاها

ويذكر شوقى مناقبْ سعد زغلول، الثورة والدستور

وَلَد الثورة سعدٌ حُرَّةً ... بحياتَيْ ماجدٍ حُرٍ نَماها

(١) الجوزاء: نجم فى السماء
(٢) الشوقيات الصحيحة ج٣، ٦٠ .
(٣) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١٨٥

أو لـم يـكـتـب لـهـا دسـتـورَهـا ... بـالـدَمِ الحُرِّ ويْرفَع مُنْتَداهـا

ثم يبين تَحَدّى سعد زغلول للملك فؤاد:

أعلمتم بعد (موسي) من يَدٍ .. قذَفَتْ في وَجه (فِرْعون) عَصَاها!

وهذا الرثاء رثاء قومى من الطراز الأول، فلا يخلدْ شوقى زغلول إلا بالثورة والدستور. والبيت الثانى به هجوم سافر على الملك فؤاد فقد شبهه بفرعون.

ويؤكد شوقى استمرار الثورة حتى التحرير الكامل:

رقـد الـثـائـر إلا ثـورةً ... فـي سـبـيـل الحـقّ لـم تَخْمَد جُذَاهـا

ويرثى بطرس باشا غالى الذى اغتاله إبراهيم الوردانى سنة ١٩١٠ لأسباب سياسية وقد حاول بعض المفسدين إثارة الفتنة بين عُنْصرى الأمة فتصدّى لهم شوقى:(*)

قـبـرَ الـوزيـر تحيّةً وسـلامـا ... الحـلـمُ والمـعـروفُ فـيـك أقـامـا

أعـهـدتَنـا والـقـبـطَ إلا أمـةً ... لـلأرض واحـدةً تَرُوم مـرامـا

نُعْلي تـعـالـيـمَ المـسـيـحَ لأجلهـم ... ويُوقِّرون لأجلـنـا الإسـلامـا

هـذي ربـوعـكـم وتـلـك ربـوعـنـا ... مـتـقـابـلـيـن تُعـالـجُ الأيّامـا

هـذي قـبـوركـم وتلك قـبـورنـا ... مـتـجـاورينَ جَماجـمـاً وعظامـا

ولا يكتفى شوقى بالرثاء، ولكنه يدعو إلى الوحدة الوطنية بأسلوب رقيق وبيان عذب، وقد رددها الشعب المصرى ولا زال يرددها لتأكيد الحب والوئام الذى يجمع الشعب المصرى. فلم يكن شوقى مجاملا فى رثاء أو مدح فحسب، ولكنه كان مصلحا اجتماعيا وسياسيا.

(*) الشوقيات الصحيحة ج٣، ١٥٤ .

ويرثى عمر المختار بطل ليبيا[١] . وشهيد العرب والمسلمين الذى قاتل الإيطاليين فى سبيل تحرير وطنه، وأعدمه الإيطاليون وكان عمره تِسْعين عاما!

ركزوا رُفَاتك في الرمالِ لِواءَ ... يَستنهض الوادي صباح مَساء

يا وَيحَهم نَصبُوا مناراً من دمٍ ... تُوحِي إلي جيلِ الغدِ البغضاءَ

يا أيها السيف المجرَّدُ بالفَلا ... يكسو السيوف علي الزمان مضاءَ

تلك الصحاري غِمْدُ كُلِّ مُهندٍ ... أبلي فأحسن في العدّو بلاءَ

فالقصيدة ملحمة حربية وألفاظها من أدوات القتال "سيف، مهنّد، غمد، دم" ويحرض شوقى الشعب الليبى على استمرار الثورة:

ذهب الزعيمُ وأنت باقٍ خالدٌ ... فانقد رجالك واختر الزعماءَ

وأرحْ شيوخك من تكاليف الوغَي ... واحمل علي فتيانك الأعباءَ

وينهى شوقى القصيدة بأبيات من الحكمة:

الأسْدُ تزأرُ في الحديد ولن تري ... في السجنِ ضِرغَاماً بكي استجْداءَ

أنـي رأيـتُ يـد الحضـارة أُولـعت ... بـالحق هَدْمـاً تـارةً وبنـاءَ

والبيت الأول يبين رفض عمر المختار لما طلبه منه الإيطاليون من أن يعتذر عن الحرب التى شنّها ضدهم ويؤيد وجودهم، وكان ثمن ذلك هو العفو عنه ولكنه آثر الموت.

ويرثى شوقى بطل سوريا يوسف العظمة الذى استشهد وهو يدافع عن

(١) الشوقيات الصحيحة ج٣، ١٧

وطنه فى معركة "ميسلون" ضد الفرنسيين[١]

مقيمٌ ما أقامت ميسلون ... يُذكّر مصرع الأسد الشبالا
لقد أوحي إليّ بما شجاني ... كماتوحي القبورُ إلي الثكالي
أقام نهاره يَلقي ويُلقي ... فلما زال قُرص الشمس زالا
فكُفّن بالصوارم والعَوالي ... وغيّبَ حيث جال وحيث صالا
وجدت دمَ الأسود عليه مِسْكا ... وكان الأصلُ في المسك الغزالا

ويوجه حديثه إلى الشعب السورى:

عرفتم مهرها فمهرتموها ... دمًا صَبغ السباسب والدغالا
دعُوا في الناس مفتونا جباناً .... يقول الحرب قد كانت وبالا
وكونوا حائطا لا صدعَ فِيه ... وصفًا لا يُرقَع بالكسالي

وفى قصيدة نكبة دمشق، يرثى شهداء ثورة سوريا:[٢]

بلادٌ مات فتيتُها لتحيي ... وزالُوا دون قومِهم ليَبْقوا

ويحرض على استمرار الثورة:

وحُرّرت الشعوب علي قناها ... فكيف علي قَناها تُسْتَرَق
وللأوطان في دم كل حُرٍ ... يَدَ سلفت ودينٌ مستحق
وللحريّة الحمراءِ بابٌ ... بكّل يدٍ مُضَرجةٍ يُدَقُ

والقصيدتين كما نرى من أدبَ الحرب والتحرير

ويرثى الزعيم السورى فوزى الغُزّى أحد ألوية الثورة العربية، وواضع الدستور:[٣]

(١) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١٨٠
(٢) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٧٣ .
(٣) الشوقيات الصحيحة ج٣، ١١٩

جرحُ علي جرحِ حنانَك (جلّق) ... حُمّلت ما يوهي الجبالَ ويُزْهقُ
يا واضع الدستور أمسِ كخُلقه ... ما فيه من عوجٍ ولا هو ضَيّقِ
نظم من الشوري وحكم راشدٌ ... أدب الحضارةِ فيها والمنطقِ

وينزل شوقى إلى الشعب المصرى، فيرثى شهداء الدستور:(١)

خطونا في الجهاد خُطاً فساحا ... وهادنّا ولم نُلق السلاحَا
رضينا في هوي الوطن المُفَدّي ... دمَ الشهداء والمالَ المُطاحا
وقد هانت حياتُهم عليهم ... وكانوا بالحياة هُم الشّحَاحَا
فكانوا الحقَّ منقبضا حَيِيّاً ... تَحدّي السيف مَنصلتا وقاحا

ولا يكتفى شوقى برثاء الشهداء ولكنه بين السطور يهدد باستمرار الثورة "لم نلق السلاحا"

ويقول فى قصيدة البرلمان(٢)

حيّوا من الشهداء كلّ مغيّب ... وضعوا علي أحجاره إكليلا
لا يلمس الدستور فيكم روحه ... حتي يري جنديّه المجهولا
ناشدتكم تلك الدماءُ زكيةً ... لا تبعثوا للبرلمان جهولا

ويرثى شهداء الثورة فى قصيدة الحرية الحمراء:(٣)

في مهرجان الحق أو يوم الدمِ ... مُهجٌ من الشهداء لم تتكلم
يبدو علي هاتورِ نورُ دمائها ... كدم الحسين علي هلال محرمِ
يوم الجهاد بها كصدر نهاره .... متمايل الأعطاف مبتسم الفمِ

ثم يؤكد مبدأه فى التحرير:

لابُد للحرية الحمراء من ... سَلوي تُرّقد جرحها كالبلسمِ

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج٤، ٢٩.
(٢) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١٦٣ .
(٣) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١٨٦ .

ويرثى ضحايا ميت غمر الذى أتى على المدينة سنة ١٩٠٥ (١)

قد جئت أبكيها وآخذُ عبرة ... فوقفت مُعتبراً بها مُستعبِرا
فإذا لقيت لقيت حيًا بائساً ... وإذا رأيت رأيت ميّتاً مُنكرا
والأمهاتُ بغير صبرٍ: هذه .... تبكي الصغير وتلك تبكي الأصغرا
من كل مُودعة الطُلول دموعها ... من أجل طفلٍ في الطلولِ استأخرا
كانت تُؤَمل أن تطول حياتُه ... واليوم تسأل أن يعود فَيُقبَرا

والرثاء حزين ينبع من قلب رقيق وشعور إنسانى عميق.

ويخرج شوقى بإنسانيته إلى العالمية، فيرثى النابغين من البشر من كل أنحناء الأرض. يرثى شكسبير فَيُنوه بعبقريته وفَهْمُه لأدّق أحوال الحياة، ولأعماق النفس البشرية (٢)

بِمْن أماتك قل لي كيف جمجمةٌ ... غبّراءُ في ظلماتِ الأرض جَوْفاء
كانت سماءَ بيانٍ غَير مُقلعةٍ ... شُؤْبُوبها عسلٌ صافٍ وصهباءُ
وكيف بات لسانٌ لم يدع غرضا ... ولم تَفتْه من الباغين عوراءُ
قم أيِّد الحقَّ في الدنيا أليس له .. كتيبة منك تحت الأرض خرساء؟

ثم يثريها بحكمةٍ بليغة:

والناس صنفان موتي في حياتهم ... وآخرون ببطن الأرض أحياءُ

ويرثى الفيلسوف الروسى تولستوى الذى تَخَلّى عن مَاله الجّم ليساوى نفسه بالفقراء وتوفى سنة ١٩١٠، يرثيه بقصيدة فى خمسة وخمسين بيتاً من الشعر.(٣)

(١) الشوقيات الصحيحة ج٤، ٤٥ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٦
(٣) الشوقيات الصحيحة ج٣، ٨٧

(تولستوي) تجري آيةُ العلم دمعها ... عليك ويبكي بائسٌ وفقيرُ
وشعبٌ ضعيفُ الرُّكن زالَ نَصيرهُ ... وما كلُّ يومٍ للضعيف نَصيرُ
تَطُوفُ كعيسى بالحنانِ وبالرِضى ... عليهم وتَغشى دورهَم وتَزُور

وتولستوى مُفَكِّر عظيم وكان يفعل ما ينادى به، فلم يكن من مطلقى الشعارات المضلِلَة التى نرى منهم الكثير اليوم، وقد أحسن شوقى برثائه، فهو يستحق كل إجلال واحترام. ثم يثرى شوقى القصيدة بستة عشر بيتا من الحكمة!

منها:

أري راحةً بين الجنادل والحصي ... وكلّ فِراشٍ، قد أراح وثيرُ
نظرنا بنور الموت كلّ حقيقةٍ ... وكنّا كلانا في الحياةِ ضَريرُ

وكما أُعْجب شوقى بشخصية تولستوى، أُعْجب أيضاً بها الشيخ محمد عبده عندما تَصَدَّى تولستوى للمتعصبين من كُتاب الغرب الذين هاجموا الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فَرفَع من قَدْر الرسول ومن شأن الدعوى الإسلامية وقال عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "يكفيه فخرا أنه هدى أمةً بِرُمَتِها إلى نور الحق، وجعلها تجنح إلى السلام وتكّف عن سفك الدماء" فأرسل الشيخ محمد عبده رسالة إلى تولستوى جاء فيها:

أيها الحكيم الجليل ليوتولستوى:

هداك الله إلى معرفة سرْ الفطرة التى فطر الناس عليها، ووفقّك على الغاية التى هدى البشر إليها فأدركت أن الإنسان جاء إلى هذا الوجود لينبت بالعلم، ويثمر بالعمل، ولأن تكون ثمرته تعبا تَرتاح به نفسه وسعيا

يبقى به ويرقى جِنْسه".

ويرثى شوقى الموسيقى فردى أحد أعلام إيطاليا مؤلف أوبرا عايدة:[١]

فتى العَقلِ والنغمةِ العالية ... مضي ومحاسنهُ باقية

فقد أبدع فردى فى أوبرا عايدة الموسيقية والتى أظهرت حضارة وعظمة مصر القديمة - فهو يستحق التكريم.. وينظم شوقى فى هذه القصيدة بيتا من الشعر من أبلغ ما نظمه:

يَتِيهُ على الماس بعض النُّحاس إذ اضَمَّ ألحانه الغالية

فهو يقول إنّ النحاس أصبح أعلى قيمة من الماس لأنه يخرج ألحان فردى!

وينزل شوقى إلى الشعوب فيرثى ضحايا الزلزال الذى دمّر طوكيو ويوكوهامه[٢]

قف (بطوكيو) وطُف على (يوكوهامه)

وسل القريتين كيف القيامة

خُسفت بالمساكن الأرضُ خَسْفاً ... وطوي أهلُها بِساطَ الإقامة

أصبحوا في ذرا الحياة وأمْسَوْا ... ذهبت ريحهم وشالوا نعامه

دولة الشرق وهي في ذروة العزّ ... تحار العيون فيها فَخَامه

لو تأملتها عشيّه جَاشَتْ ... خِلْتها في يدِ القَضَاء حمامَهْ

استعَذْنا بالله ذلك السيل الذي يكسحُ البلادَ أمامهْ

ثِقْ بما شِئْت من زَمانك إلا صُحبةَ العَيْشِ أو جِوارَ السلامَةْ

(١) الشوقيات الصحيحة ج٣، ١٩٢ .

(٢) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٨٤



المرأه فى شعر المتنبي

المـرأة فـى شعـر المتنبـى

كان المتنبى يتعالى على كل إنسان بل يتعالى على الوجود نفسه:

وكلّ ما خلق الله وما لم يخلق! ... مُحتقر في هِمتي كشعرةٍ في مِفْرَقي

فكيف يخضع للمرأة.؟

لقد كان هيام المتنبى وخضوعه لأشياء أخرى غير المرأة:(١)

تركنا لأطراف القنا كل شهوةٍ ... فليس لنا إلا بهنّ لعَابُ
أعزُّ مكان في الدنا سرجُ سابحٍ ... وخير جليسٌ في الزمان كتابُ

فالمتنبى يصرح هنا وبصراحة بأن متعته فى الحياة هى الفروسية والأدب ثم يؤكد ذلك برفض ما ينساق إليه الشعراء من حب وعشق وهيام للمرأة ومعاقره كؤوس الخمر، فالمتنبى لم يكن يَهْتم بالخمر:

وغير فؤادي للغواني رَميَّةٌ ... وغير بناني للزجّاج رِكابُ
وللخَوْدِ منّي ساعةَ ثم بيننا ... فلاةٌ إلي غير اللقاء تُجابُ
وما العشق إلاّ غُرةٌ وطماعةٌ ... يُعرّض قلبٌ نفسَهُ فيصاب

وعندما هرب المتنبى من مصر ومن كافور الإخشيدى ليلة العيد، كان فى حالة نَفْسية سيئة، فقد أصابه الإحباط والألم فلم يشعر ببهجة العيد... يقول:(٢)

عيد بأية حالٍ عُدْت يا عيدُ ... بما مضي أم لأمرٍ فيكَ تَجْديدُ
لم يترك الدهر من قلبي ومن كبدي ... شيئا تُيَتّمهُ عَيْنٌ ولا جيدُ
يا ساقِيّي أخمرٌ في كؤوسكما .... أم في كؤوسكما همٌّ وتَسهيدُ
أصخرةٌ أنا مالي لا تُحرّكني ... هَذِي المُدامُ ولا هذي الأغاريد

---

(١) ديوان المتنبى ٤٧٩ .

(٢) دديوان المتنبى ٥٠٦ .

فيا روعة الألم والحزن الذى يتدفق من هذه الأبيات الذى تعرض له الشاعر العظيم، لقد خذل سيف الدولة المتنبى ولم يُعْطه ولاية يحكمها، فرحل عنه المتنبى وترك موطنه حلب، وذهب إلى كافور الإخشيدى، على غير اقتناع منه، بناء على إلحاح كافور. ولكن كافور غدر به ولم يُعْطِه ولاية، ثم منعه من مغادرة مصر - فهرب إلى رحلة الضياع. فالمتنبى يشرب الخمر ليس بهدف النشوة ولكن لكى ينسى الألم والقهر الذى كان يعيش فيه، وربما يكون ما ذكره من معاقرة المُدَام فى هذا الموقف هى مسألة رَمْزِيَّة يبيّن فيها المتنبى حالة الإحباط التى كان يعيش فيها والتى يحاول أن ينساها بكؤوس الخمر.

والقصيدة على أية الحالين لا تبيّن اهتماماً أو هياماً للمتنبى بالخمر.

ولم نجد في شعر المتنبى خضوعا للمرأة، وربما وجدنا غزلا وعشقا وهياما بها ولكنها لم تُخضِعه فلم يَقُل فيها ما قاله شوقى:

جُمِع الزمان فكان يوم رضاك

كل ما ترضاه يا مولاي يرضاه ولائي

مولاي وروحي في يَدِه ... قد ضيَّعها سَلِمت يده

كما هاجم المتنبى أسلوب شعراء الجاهلية فى بدئهم قصائد المدح بالغزل:

إذا كان مدحاً فالنسيبُ المقّدم ... أكلُّ بليغ قال شعرا مُتيمُ!

وبالرغم من قوله هذا، فقد نظم المتنبى باقة من أرق أبيات الغزل فى مقدمة بعض قَصائده فى المدح يقول:(*)

أَرَقٌ علي أرقٍ ومثلي يأرق ... وجوي يزيد ودَمْعةُ تترقرقُ

ما لاح برقٌ أو ترنّم طائرٌ ... إلا انثنيت ولي فؤادٌ شيّق

(*) ديوان المتنبى ٢٨ .

وعزلت أهل العشق حتي ذقته ... فعجبت كيف يَموت من لا يعشق

ويصل بالمتنبى روعة الحب إلى درجة تعجبُه كيف يموت البشر بغير العشق والهيام - وربما لو كان قد قال "فعجبت كيف يعيش من لا يعشق" لكان المعنى أروع.

والمتنبى لم ينظم قصائد غزل كاملة ولكن أبيات الغزل كانت تأتى فى مقدمة بعض قصائده، وهى على قلّتها، من أرق أبيات الغزل وأعذبها:

رأتْ وجهَ من أهوي بليل عوازلي ... فَقلْن نري شمساً وما طلع الفجر(١)

رأين التي للسحر من لحظاتها ... سُيُوفٌ ظُباها من دَمِي أبداً حُمرُ

ويقول:

جرَي حبّها مجْري دَمي في مَفاصلي ... فأصبح لي عن كلّ شُغْلٍ بها شُغلُ(٢)

سَبَتْني بدَلٍ ذاتُ حُسْنٍ يزينُها ... تكحُّلُ عَيْنيها وليس لها كُحلُ

أحِبّ التي في البدر منها مَشَابهٌ ... وأشكوا إلي من لا يُصابُ له شكلُ

وما هي إلا لحظةٌ بعد لحظةٍ ... إذا نزلت في قلبِه رحَلَ العقلُ

والمتنبى كان يهيم بفتيات البادية، وربّما يرجع ذلك إلى أنه عاش صباه وشبابه فى البادية:(٣)

هام الفؤاد بأعرابية سكنت ... بيتا من القلب لم تمدُدْ له طُنُبا

مظلومة القدّ في تشبيهه غُصنْا ... مظلومةُ الريق في تشبيههِ ضَرَباَ

ثم يخرج المتنبى إلى الغزل المكشوف:

بيضاءُ تُطمعُ في ما تحت حُلّتِها ... وعزَّ ذلكَ مَطلوباً إذا طُلباَ

كأنها الشمسُ يعيي كف قابضةٍ ... شعاعُها ويَراه الطَرفُ مُقْتربا

(١) ديوان المتنبى ٦٢ . (٢) ديوان المتنبى ٤٤ . (٣) ديوان المتنبى ٦٧ .

ويقول: [(١)]

حُسنُ الحضارة مجلوب بتطرية ... وفي البداوة حسنٌ غيرُ مجلوب
أفدي ظِباءَ فلاةٍ ما عَرفْنَ بهَا ... مَضْغَ الكلامِ ولا صَبْغَ الحواجيبَ

وفى قصيدة قالها فى مدح سيف الدولة بدأها بالغزل الرقيق وقالها إنشاداً، ويقال إنّ هذه القصيدة كان يقصد بها "خَوْلة: أخت سيف الدولة الكبرى.[(٢)]

لعَيْنيكِ ما يَلقَي الفؤادُ ومَا لقي ... وللحُبّ مالم يَبقَ مني وما بَقِي
وما كنتُ ممنْ يَدْخُلُ العِشقُ قلبَه ... ولكن من يُبْصر جفونَك يَعَشَق
وبين الرضي والسُّخط والقربِ والنّوي ... مجالٌ لدمعِ المُقْلة المُترقرق
وأحلي الهوي ما شكَّ في الوَصلِ ربُّهُ ... وفي الهجرِ وهو الدّهرَ يَرجو ويتّقي
وما كلّ من يهوي يَعُّفَ إذا خلا ... عَفافي ويُرضي الحبّ والخيلُ تلتقي
سقي الله أيّام الصبِي ما يَسُرّها ... ويَفعلُ فعل البابليّ المُعتّق

وفى قَصيدته فى وصف معركة "ضرب القُلّة" التى انتصر فيها سيف الدولة على جيوش الروم والتى اشترك فيها المتنبى فى القتال، بدأها بأرّق أبيات الغزل:

ليالّي بعد الظاعنين شُكولُ ... طِوالٌ وليلُ العاشقين طويل
يُبَن لي البدر الذي لا أريده ... ويُخفين بدرا ما إليه سبيل
وما شَرَقي بالماء إلا تذكّراً ... لماءٍ به أهلُ الحبيب نُزول

فالمتنبى يشرق بالماء عَمْداً حتى يتذكر النبع الذى تنزل به قبيلة محبوبته!، وهذا معنى جميل لا أعتقد أن أحداً سَبقه إليه.

ويبكى المتنبى على الشباب، والبكاء على الشباب يأتى من كبار السن

(١) ديوان المتنبى ٤٤٩ .
(٢) ديوان المتنبى ٣٤٥ .

الذين غادرهم الشباب، ولكن المتنبى يبكى على الشباب وهو فى ريعان شبابه![١]

ولقد بكيت علي الشباب ولُمَّتى ... مُسْوَدةٌ ولماءِ وجهي رونقُ

حذرا عليه قبل يوم فراقه ... حتي لكِدْتُ بماء جفني أشرقُ

فهو يبكى للفراق الذى سوف يحدث بينه وبين الشباب، ويتمادى فى البكاء - ولاشك أن المتنبى كان فى قِمَّةِ القهر النفسى حتى يكون هذا هو تفكيره!...

ولكن المتنبى لم ينظم قصائد كاملة فى الغزل كما نظم شوقى.. والمتنبى لم يُعْطِ للمرأة حقّها فى الحياة كما أعطاها شوقى، ويرجع ذلك إلى أن المرأة العربية فى عصر المتنبى كانت مقهورة ذليلة، فقدت عِزَّة نفسها، وكان الرجال يعاملونها بتعالى واحتقار - ففى هذا العصر شاعت عادة "التسرى"، وهو امتلاك الجوارى والسرارى من روميات وتركيات وفارسيات[٢]، فأهمل الأغنياء زوجاتهم واتجهوا إلى الجوارى.

والمتنبى، كمعاصريه من الرجال كان يرى المرأة أقل قدراً وعقلا من الرجل ويقول الأستاذ المازنى فى ذلك[٣] "لما رثى المتنبى "خولة" أخت سيف الدولة نعتها بصفة الرجال وأخرجها من جِنْسها، ولم يرض إلا أن يجعلها "غير أنثى العقل"! وإن كانت قد خُلقت أنثى، وإلا أن يُفَضّلها عن عشيرتها التى نمتها، حيث يقول:[٤]

وإن تكن خُلقت أنثي لقد خُلِقت ... كريمةً غير أنثي العقلِ والحسبِ

---

(١) ديوان المتنبى ٢٩ .
(٢) أبو الطيب المتنبى حياته وشعره ١٠٨
(٣) حصاد الهشيم للاستاذ عبد القادر المازنى - الهيئة المصرية للكتاب ص ١٦٣ .
(٤) ديوان المتنبى ٤٣٤ .

وإن تكن تَغْلب الغلباءُ عُنْصرها ... فإنّ في الخمر معنيً ليس في العنبِ

وأقول فيما قاله المتنبى، إن المتنبى لم يكتف "بأنها غير أنثى العقل"، ولكنه أضاف لها صفة الكرم التى يَرى أن المرأة لا تحمله!

ويتمادى المتنبى فى الإقلال من شأن المرأة، ففى رثائه لعمه عضد الدولة، يشير إليها بضمير المذكر، ويقول إن حُسن ذكرها يَنّم على تذكيرها!:(١)

يحْسَبه دافنُه وحدَه ... ومجدُهُ في القبر من صَحْبِهِ

ويظهرُ التذكيرُ في ذِكرِهِ ... وَيُسْتَر التأنيثُ في حُجْبِهِ!

وقد كان للمرأة نَصيب من شعر المتنبى فى "الرثاء" - فقد رثى عَمَّةْ عضد الدولة، ووالدة سيف الدولة وأختيه، ولكن هذا الرثاء، عدا رثاء خوله، كان رثاءً رسميا لا نرى فيه الحزن والشجن، ولكن المتنبى أثراه بأبيات من أبلغ ما قاله المتنبى فى الحكمة - فيقول فى رثاء والدة سيف الدولة:(٢)

وما التأنيثُ لاسمِ الشّمسِ عيبٌ ... ولا التذكيرُ فخْر للهلالِ

ومن الواضح أن المتنبى لم يكن يقصد رفع شأن المرأة، ولكنه كان يجامل سيف الدولة فى والدته - وربما كان رثاء المتنبى لأخت سيف الدولة الكبرى يخرج عن هذه القاعدة، ففى رثائها يظهر الحزن والألم الحقيقي، بما جعل النقاد يُرْجعون هذه اللوعة إلى حُبٍ مكبوت كان يربط المتنبى بها - كَما أن رثاءَه لجدّته، وهى التى قامت بتربيته بعد وفاة والدته، يظهر فيه الحزن العميق والألم الحقيقى كما بَيَّنَّا من قبل.

---

(١) ديوان المتنبى ٥٥٨ .

(٢) ديوان المتنبى ٢٦٧ .

المرأة في شعر شوقي

أما شوقي فلم يكن متعاليا على الناس كالمتنبي، فقد كان متواضعا يحب الناس ويُحَبّ الحياة - فبينما يرفض المعرى الحياة نفسها:

هـذا جنـاه أبـي عـلـيّ ... ومـا جـنـيـت عـلـي أحـد

يقول شوقي عن المعرى:(١)

هو قد رأي نُعمي أبيه جنايةً ... وأري الجناية من أبي نُعماءَ

أحب شوقي الناس كبارهم وصغارهم، وأحب المرأة وهام بها، وخضع لها:

كـل مـا تـرضـاه يـامـولاي ... يـرضـاه ولائـي.(٢)

ولم يكن شوقي مسرفا ومتكالبا على معاقره الخمر، ربما كان يشرب الخمر أحيانا. وإذا كان قد وصف الخمر ونشوتها، فقد وصفها في مناسبات محدودة كمناسبة الحفل الذى أقيم في قصر عابدين:(٣)

حـفّ كـأسـهـا الحـبَبُ ... فـهْي فـضـةٌ ذَهَـبُ
أو دوائـــرٌ دُرَرٌ ... مـــائـــج بـــهـــا لَبَبُ
أو فـم الحـبـيـبِ جـلا ... عـن جُمـانِه الـشَّنَبُ

ويقول:

سـاقِيَ الـطِّلا ... شـربُهـا وجَبْ
إسْقِهـا فـتـيَ ... خَيْرَ مَنْ شَرِبْ

وعندما زارته السيدة أم كلثوم في منزله قدم لها كأساً من الشراب، فرفعت الكأس ولكنها لم تذقه، فأمّ كلثوم لم تكن تشرب الخمر، فقال:

(١) الشوقيات الصحيحة ج٤، ٢١٠ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١١٣ .
(٣) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٩ .

سلوا كؤوس الطلاهل لا مست فاها

واستخبروا الراح هل مَسّت ثَنَايَاها

أما قصيدته التى قال فيها

رمضان وليّ هاتها يا ساقي ... مشتاقةً تَسْعي إلي مُشْتَاقِ[١]

لا تَسقِني إلا دِهاقاً[٢] إنني ... أُسقي بكأسٍ في الهموم دِهاقِ

فلعلّ سلطان المدامةِ مُخْرجِي ... من عالمٍ لم يحوِ غَيْرَ نِفاقِ

ربما تكون هذه القصيدة هى قصيدة رمزية، يرفض فيها شوقى القيود التى يعيش فيها وطنه.

يقول الدكتور طه وادى[٣] "إن القصيدة تكشف أن لهفة شوقى على الخمر ليست بهدف اللّذة وإنما هى محاولة رومانسية هروبية لنسيان هموم الوطن الممزق غير المتّحد - لذلك يَجِب دراسة هذه القصيدة وأمثالها من وجهه نظر فنيّة محضه، وليس من زاوية أخلاقية، كما تورّط فى ذلك بعض الدارسين"...

وبعد دراستى لهذه القَصيدة، أرى ترجيح رأى الدكتور طه وادى فى رمزية هذه القصيدة، فشوقى كان يُلفت النظر إلى القَهر الذى يعيش فيه وطنه... ويستطرد شوقى:

وطني أسفتُ عليكَ في عيد المَلاَ ... وبكيتُ من وجدٍ ومن إشفاق

لا عيد لي حتي أراك بأمّةٍ ... شمّاء راويةٍ من الأخلاق

فنسمع من هذين البيتين صيحات شوقى من الألم الذى يعيش فيه،

(١) الشوقيات الصحيحه ج٢ ٧٦ (٢) الدهاق "من الكؤوس": الممتلئة

(٣) أحمد شوقي والأدب العربي الحديث ص ٧٣

ورفضه أن يحتفل بالعيد حتى يستَرِدّْ الوطن كرامته.

وربما يكون شوقى فى صيحاته مُتَشَبِّهًا بصحيات المتنبى من الألم الذى اعتراه عند مغادرته مصر ورفضه الاحتفال بالعيد، وفشل الخمر فى أن تُنسيه الألم الذى يعيش فيه! كما قدمنا.

يا ساقِيَّي أخمر فى كُؤُوسِكُماَ ... أم في كُؤُوسِكُماَ هُّم وتسهيدُ

ولقد رأينا أن صيحات المتنبى كانت للغبن والظلم الذى أصابه،ولكن صيحات شوقى كانت للظلم والقهر الذى أصاب وطنه - وليس هذا بمستَبعد على من قال:

وطني لو شُغُلْتُ بالخُلدْ عنه ... نازعتني إليه في الخُلْدِ نفسي

ومن قال:

إنـي أحـب وإن شـقـيـتُ بـه ... وطـنـي وأوثـره عـلـي الخُلْدِ.

ويستمر شوقى فى صَيحاته، فيطلب من الشعب المصرى أن يعتنق الأخلاق الفاضلة كأسلافه. وأن يتَّحِدْ، ويطلب من قادته أن يسيروا فى الطريق القويم:

ذَهب الكرام الجامعون لأمرهم ... وبَقيتُ في خَلَفٍ بغير خَلاَقِ

أيطل بُعضهم لبعضٍ خاذلا ... ويُقال شعْبٌ في الحضارة راقيِ

وإذا أراد الله إشقاءَ القُرَي ... جعل الهُدَاةَ بها دُعاة شِقَاقِ

فالقصيدة كما نرى قَصيدة سياسية من الطراز الأول، يسير شوقى فيها على نهجه، و"إنما الأمم الأخلاق ما بقيت...،

ولـيـس بـصـالـح بـنـيـان قـومٍ ... إذا أخـلاقـهـم كـانـت خـرابـا.

ولا يمكن أن نُصَنِّفْ هذه القصيدة فى الخمريات كما توّرط فى ذلك بعض

الدارسين، كما لا يمكن أن تُصنّف قَصيدة المتنبى فى الخمريات. ولكن هذه القصيدة لا تنفى أن شوقى كان يشرب الخمر. وفى شعر شوقى نجد قصائد رمزية أخرى، ففى قصيدته "بين الحجاب والسفور" يناجى شوقى البلبل الأسير فى القفص فى أربعة وخمسين بيتا!(١)

صداحُ يا ملك الكنا .... ر ويا أميرَ البلبلِ

صبرا لما تشقي به ... أو ما بدا لك فافعل

وهذه القصيدة كان يقصد "بالبلبل السجين" الوردانى الذى حكم عليه بالإعدام لقتله رئيس وزراء مصر بطرس باشا غالى سنة ١٩١٠ .

كما أن قصيدة الأسد والحمار هى قصيدة رمزية، فالأسد هو الملك فؤاد، والحمار رئيس وزرائه .. يقول فيها مخاطبا الأسد:(٢)

رأي الرعية فيكم ... من رأيكم في الحمار

وفى مسرحية "قمبيز" التى تحرّض فيها الأميرة المصرية نيتيناس الشعب المصرى على الثورة ضد الفُرس الذين كانوا يحتلّون مصر، كان شوقى يرمُزْ بذلك إلى تحريض المصريين على الثورة ضد الاستعمار البريطانى.

وشوقى كان يرى أن المرأة تتساوى مع الرجل، وربما يكون اعتناق شوقى لهذا الفكر هو من تراث مصر القديمة حينما ت المرأة تَحْظى بكل الحقوق، حتى أنها وصلت إلى الحكم وجلستْ على عرش مصر لقد حكمت مصر القديمة خمس ملكات، نيتوكريس من الدولة القديمة ونفروسبك من الدولة الوسطى، ونفرتيتى وحتشبسوت وتاوسرت من الدولة الحديثة، كما حكمت كليوباترة فى عصر البطالمة وشجرة الدر فى الدولة الأيوبية.

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢١٤ .

(٢) الشوقيات الصحيحة ج٤، ١٤٧ .

ولقد كان شوقي سابقا لعصرة، فقد رأى أن المجتمع لا يرقى إلا إذا أعطيت المرأة حقوقها كاملة فوقف الي جانبها، بل وتحيّز لها.. ولعل تَحيّزْ شوقي للمرأة جاء نتيجة للظلم والقهر الذى تعرضت له، فرأى أن يعوضها على ما قاسته مئات السنين عندما كبّلت بلاقيود والأغلال فى الحريم، وُحرمتْ من التعليم والتنوير، بل ومن الخروج إلى الحياة، فقد وضعها الرجل خلف حجاب كثيف على وجهها، وخلف حجاب من التَخلّف على عقلها. وربما كان تحيُّزْ شوقي للمرأة جاء تلقائيا من عقله الباطن، ففى قصيدته التى يوجهها إلى أبنائه الثلاثة يقول:(*)

إذا ما بدا لي أن أفاضل بينهم ... أبي لي قلبٌ عادلٌ ورحيمُ

ولكن بالرغم من قوله هذا، فقد نظم لابنته أمينة مائة بيتٍ واثنين من الشعر ولم ينظم لإبنيه على وحسبن سوى اثنين وعشرين بيتا!

كما جاء رثاؤه لوالدته فى اثنين وخمسين بيتا، والقصيدة تحمل الحزن والشجن العميق:

إلي الله أشكو من عوادي النوي سهما

أصاب سويداء الفؤاد وما أصمي

أما رثاؤه لوالده فقد جاء فى واحد وثلاثين بيتا.

وقد رثى جدته بقصيدة من أبلغ ما قاله فى الرثاء:

خلقنا للحياة وللممات ... ومن هذين كل الحادثات

بَرَرْتِ المؤمنات فقال كلّ ... لعلّك أنت أمّ المؤمنات

ثم يفخرَ بنفسه وبالانتماء إليها، وجدّته لم تكن أصلا مصرية ولكنها

(*) الشوقيات المجهولة ج٢، ص ١١١ .

تمصّرت وأسلمت وحسن إسلامها فيقول فى ذلك:

ولو لم تظهري في العُرْب إلا ... بأحمد كنت خير الوالدت

ولكن لم تَجد لشوقى رثاءً لجَدّه.

وفى قصيدة "مملكة النحل"، نرى بين سطورها تحيّز شوقى للمرأة، فمن المعروف علميا أن التى تحكم المملكة ملكه:[1]

المُلْكُ للإناث في الدستور لا للذَكَرهْ

فهل تُري تخشي ... الطماعَ في الرجال والشَّرَه

وفي الرجال كرمُ الضَعْفِ ولُؤمُ المقدره

فشوقى يريد أن يقول إن المرأة تصلح للحكم وربما تكون أقدر على الحكم من الرجل الذى وصفه بالطمع واللؤم.

وقد وعى شوقى أن عَزْل المرأة عن المجتمع ليس من الإسلام فى شىء فقد شاركت النساء فى الدعوة الإسلامية، وتَفقَهْنَ فى الشريعة، وعَملْنَ بالسياسة والتجارة، بل واشتركن فى القتال للدفاع عن العقيدة.[2]

خذ بالكتاب وبالحديثِ وسيرةِ السلَف الثِقَاتِ

هذا رسولُ الله لم يُنْقص حُقوقَ المؤمنات

العلم كان شَريعةً لنسائه المُتُفقِّهات

رُضْنَ التجارة والسياسةَ والشئونَ الأخريات

كانت سكينةُ تملأ الدنيا وتهزأً بالرواة[3]

ورياض اندلسٍ نميْنَ الهاتفاتِ الشاعراتِ

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ١٧١ .

(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ١١٠ .

(٣) السيدة سكينة ابن الأمام الحسين.

دعا شوقى لتعليم المرأة، فالمرأة الجاهلة أنبتت أجيالا من النشء فى جهل وتَخَلّفْ، ففى قصيدة العلم والتعليم التى تحفظها الأجيال:

قم للمعلم وَفِّه التبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا

يقول:

وجد المساعد غيركم وحُرِمْتُمُ ... في مصرَ عَوْنَ الأمهّات جليلا

وإذا النساء نَشأنَ في أميةٍ ... وضع الرجال جهالةً وخمولا

ويكرم شوقى الأم ويؤكد أنها هى التى تُكَوِّن شخصية الطفل:[١]

لولا التُقَي لقُلْتُ لم ... يَخْلِق سِواكِ الوالدا

إن شئت كان العيّر ... أو إن شئت كان الأسدا

ويؤيد شوقى قاسم أمين الذى نادى بتعليم المرأة ورفع الحجاب عن وجهها وعن عقلها، ولكن قاسم أمين لم ينادى برفع الحجاب كليّة بل الترفُّق فى استعماله، فلم يكن قاسم أمين داعياً إلى التَبَرُّج، بل دعا إلي تحرير المرأة فى حدود شريعتنا وأخلاقنا، وقد بين شوقى آراء قاسم أمين فى القصيدة التى رثاه فيها:[٢]

ماذا رأيت من الحجاب وَعُسْرِهِ ... فدعوتنا لتَرَفُّقٍ ويسار

رَأيٌ بَدَالك لم تَجِده مخالفا ... ما في الكتاب وسُنَّةِ المختارِ

وفى رثاء مصطفى باشا فهمى رئيس وزراء مصر والذى لم يعقب ذكورا، وكان من بناته السيدة صفية زغلول زوجة الزعيم سعد زغلول، يرفع شوقى من شأن المرأة:[٣]

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج٤، ١٩٢ . (٢) الشوقيات الصحيحة ج٣، ٨٣ .

(٣) الشوقيات الصحيحة ج٣، ٣ .

إن البنات ذخائرٌ من رحمةٍ ... وكنوز حُبٍّ صادق ووفاء
والساهرات لعلةٍ أو كبرةٍ ... والصابراتُ لشدةٍ وبلاءِ

وكان شوقى يثور لكرامة المرأة، فعندما لاحظ أن بعض الموسرين من الشيوخ المصريين الذين بلغوا من العمر أرزله يتزوجون من فتيات صغيرات، تصدّى لهذه الظاهرة الخطيرة - فقد دأب هؤلاء الشيوخ إلى الذهاب إلى الأستانة "دار السعادة" والزواج من فتيات تركيات بعد إغراء أسرهن بالمال - وقد رأى شوقى أن هذا التصرُّفْ الطائش يُقوّض استقرار الأسرة المصرية ويهدم كيانها، فضلا عن الوضع غير الإنسانى من زواج عجوز بفتاة صغيرة، فنظم قصيدة "عبث المشيب" مدافعا عن المرأة المقهورة:

يتزوجون علي نساء تحتهم ... لا صاحبات بغيٍ ولا بشرارٍ[1]
من كل ذي سبعين يكتُمُ شيبه ... والشيب في فوديهِ ضوءُ نهار
ما زوّجت تلك الفتاة وإنما ... بيع الصبا والحُسن بالدينار
فتشتُ لم أر في الزواج كفاءةً ... ككفاءةَ الأزواج في الأعمارِ

ويكرم شوقى: الأميرة فاطمة إسماعيل، وكانت الأميرة قد تبرعت بالأرض ومبالغ مالية كبيرة ثم بمجوهراتها لإنشاء جامعة القاهرة.[2]

وبارك الله في آساس جامعةٍ ... لولا الأميرة لم تُصبح بأساس
فما لَصنعك صنع في محاسنه ... ولا لفضلك في الأجيال من ناسِ

وعندما رحلت الأميره الي رحاب الله ذكر شوقي فضلها:[3]

لو عشت شدْت مثلها .. للمرأة المحرَّرهْ
قرنت كلّ حجرٍ ... في أسّها بجوهره

ويكرم شوقى المرأة المصرية لاشتراكها فى ثورة سنة ١٩١٩ ضد الإنجليز، ولكنه يحذرها من أن تُقلِدْ نسَاء الغرب فى سُلوكهّن:

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ١٥٥ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ١٨٢ .
(٣) الشوقيات الصحيحة ج٣، ٩٦ .

قـم حـيـيّ هـذي الـنيِّراتِ ... حـيـيّ الحـسَـانَ الخـيِّراتِ[١]
زيْـن المـقـاصـرِ والحـجـالِ ... وزيْـنُ مـحـرَابِ الـصـلاة
اذكـرْ لـهـا الـيـابـانَ لا ... أُمَ الـهـوي المـتـهـتِّـكـات
مـصـر تُجـدد مـجـدهـا ... بـنـسـائـهـا المـتـجـددات
لمـا حَضَنّ لـنـا الـقـضـيّـةَ .. كُـنّ خَـيـرَ الحـاضِـنَـاتِ

وفى الحرب التركية اليونانية، يُكَرّم شوقى الفتاة التركية "زينب" التى اشتركت فى القتال:[٢]

ومـا رَاعَـنـي إلا لـواءٌ مُخـضَّـبٌ ... هـنـالـك يَـحْـمـيـه بَـنـانٌ مُـخَـضَّـبُ
يـؤلـف إيـلام الحـوادثِ بـيـنـنـا ... ويَجْـمـعُـنـا فـي الـلـه ديـنٌ ومـذهـبُ
رفعت بنات التُرك قالت وهل بنا ... بنات الضواري أن نـصول تَعَجُّبُ

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ١١٠ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٥٠ .

الشعر القصصى والمسرح

لم يكن هناك مسرح فى عصر المتنبى حتى نقارنه بما أنجزه شوقى فى مسرحياته الخالدة - ولكن الشعر القصصى كان موجوداً فى العصور القديمة فقد نظم أبو سهيل كتاب كليلة ودمنة فى خمسة آلاف بيت من الشعر، كما نظمه ابن الهبارية فى كتابة "نتائج الفِطْنه فى نظم كليلة ودمنة سنة ١١٠٠م، ولكن لم يكن للمتنبى أى إنجاز فى الشعر القصصى - أما شوقى فقد كتب سبعة مسرحيات شعرية وربما كان ذلك أول إنجاز ملموس للشعر العربى المسرحى.

وفى مسرحيات شوقى الخالدة، نجده يضع المرأة فى المرتبة العليا، فالمرأة هى البطلة فى كل مسرحياته!

ففى مسرحية قمبيز جَسَّد شوقى فى شخصية الأميرة "نيتيناس" روح مصر وخلودها وجعلها رمزاً للشجاعة والتضحية من أجل مصر، فتقول:

جئت أفدي وطني من ... سيف قمبيز وناره
جئت أفدي وطني من ... دنَسِ الفتح وعاره

أتيت لأفدي بنفسي البلاد ... وأدفع عن مصر شرَّ العَجمْ
ومالي لا أعطي الحياة إذا دعت ... بلادي، حياتي للبلادِ ومالي

وتُحَرِّض نيتيناس المصريين على القتال وطرد الفُرس:

والآن إلي طيبة والصعيد ... لحشر الدُّعاة وحشدالجنود
وقهر العدوّ وإرغامه ... وقذفِ المغير وراءَ الحدود

لقد أعطت نيتيناس لمصر ما يَضِنّ به الرجال، ووضع شوقى فى

شخصيتها الكمال الإنسانى، والمعروف أن شوقى كان يرمى فى هذه المسرحية إلى تحريض المصريين للثورة على الاحتلال البريطانى.

وفى مسرحية مصرع كليوباتره، نجدها الملكة القوية التى لا تَحمل ولاءً إلا لمصر وتضحى بكلّ غال وعزيز من أجلها، فلما شعرت أنّ سلامة مصر أضْحت فى خطر ضَحَّت بحبّها وانسحبت بأسطولها تاركة أسطول انطونيوس يواجه المعركة وحده:

علم الله قد خذلت حبيبي ... وأبا صِبْيَتى وعوني وذُخري
موقفٌ يعجب العُلا كنت فيه ... بنتَ مصرَ وكنتُ ملكة مصر

كما أن اتخاذها قرار الانتحار بعد هزيمتها كان قِمَّة فى الشجاعة وعِزَّة النفس، فلم تقبل المهانة والإذلال، وهو موقف يعجز الرِجال على اتخاذه:

أأدخل في ثياب الذّل روما ... وأُعْرض كالسبي علي الرجال
أموت كما حييت لعرش مصر ... وأبذل دونه عرش الجمال
حياة الذّل تُدفع بالمنايا ... تعالي حيَّةَ الوادي تعالي

وفى مسرحية "عنترة" جسّد شوقى فى شخصية "عبلة" الفتاة العربية الشجاعة، المعتزة بكرامتها والرافضة للتفرقة العنصرية، والتى تتحلى بالمبادئ والأخلاق السامية.

ولما رفض والدها أنْ يُزَوجها من "عنترة" الفارس الشجاع لأنّ لونه أسود، بالرغم من أنه كان قد حمى القبيلة من اللصوص، أصّرت على الزواج منه رافضة التفرقة بسبب اللون.

تقول لعنترة:

هـذا الـسـواد يـابـن عـمـي مـثـل صـبـغـة الـسَحـرْ
كـالمـسـك والـكـحـل هـمـا فـي مَفْرِقِي وفـي الـبَصـرْ
الـكـعـبـه الـغـرّاء عـن أحـسـن مـا فـيـهـا الحـجـر

وتقصد بالحجر، الحجر الأسود.

وتقول:

لم يُحط السواد من أسد القفر ... ولم يرفع البياضُ الحِمارا!

إن عبلة التى عاشت قبيل الإسلام، كان لها أخلاق الإسلام فرفضت التفرقة العنصرية ... كما دعت إلى وحدة القبائل لمواجهة الفرس والروم الذين استعبدوا العرب:

الـفـرس والـروم اسـتَرقُّوا قـومـنـا واسـتـعـبـدوا
الأبـطـل نـلـتـقـي حـولـه ... كـإسـرال حـول لـواء الـرسُلْ!
يـفُك مـن الـرَّق أعـنـاقـنـا ... كـمـا فَكَّ مُوسـي رقـاب الأُولْ

لقد كانت عَبْلة حادة البصيرة فَتنبَأت بوحدة العرب ومستقبلهم المشرق.

وفى مسرحية "مجنون ليلى" بَيّن شوقى أن المرأة يمكن أن تُضحّى بكل عزيز حتى بحياتها فى سبيل مبادئها، فبالرغم من حُب ليلى لقيس الذى خلّدها فى قصائده:

لولا قصائدهُ التي نوهّن بي ... في البيد ما عَلم الزمان مكاني
نجدٌ غدا يُطْوي ويَفْني أهله ... وقصيدُ قيس فيّ ليس بفانِ

إلا أنها رفضت أن تتزوجه لأنه خرج عن تقاليد البادية وشبّب بها ، فحط من شأن والدها ، فتقول لأمير الصدقات الذى جاء يتوسط لقيس عند والد ليلى:

ولكن أترضي حجابي يُزال ... وتمشي الظنونُ على سدِ له
ويمشي أبي فَيَغْضُ الجبين ... وينظر في الأرض من ذُلّهِ

وتقول عن قيس:

ولا يفتكر ساعة بالزواج ... ولو كان مروانُ من رُسْله

لقد بين شوقى فى شخصية ليلى القيم الأخلاقية السامية وحب الانْتِماء للوطن وللأسرة.

وفى مسرحية على بك الكبير، كرّم شوقى المرأة ورفع من قدرها فى شخصية الفتاة (آمال) الشركسية - فبالرغم من أن أباها "اليسرجى" تاجر الرقيق، كان منافقا وضيعا ، إلا أنّ آمال كانت تتحلى بالخلق النبيل والنفس الأبية بالرغم من فقرها - وعندما عرض اليسرجى آمال للبيع فى سوق الرقيق رفضت المهانة:

كيف تَسمو إلي العلا ... ابنةٌ باعها الأَبْ
أبي شرفُ على فقرٍ ... ولا فقر إلي الشرفْ

وعندما يعرضها أبوها للبيع لعلى بك الكبير حاكم مصر تقول:

قف أنت عبد المال يا أبتي ... تُلقي البرئ لأجل المال في النار
لا سيدي، لا أبي لا تذ كرا ثمنا ... فلست مخلوقة للبائع الشاري

فَيُعْجب بها على بك الكبير ويعرض عليها الزواج فتتردد فى القبول

فيزداد إعجابه بها:

لـم تـقـبـلـي الـرّق مـنـذ حـيـن ... يـالـك مـن حُرَّةٍ نـبـيـلـه
والآن تـخْشِيـن مـن زواج ... تَمـشـيـن فـي ظـلـه ذلـيـلـه

وفى مسرحية الست هدى - وهى مسرحية فكاهية - أعطى شوقى الست هدى شخصية قوية جعلها تتصدى لأزواجها العشرة، وتنتصر عليهم - وكان أزواجها شخصيات رديئة ما بين أفاق، وسكير، ولص، وكانوا يعيشون عالة عليها....

وفى مسرحية البخيلة وهى مسرحية هزلية، ولكن فيها حكم وعبر، بطلتها أيضاً امرأة.

فالبطلة امرأة ثَرية بخيلة "الست نظيفة" والبطلة الثانية خادمتها "حُسْنَى" وهى مثالٌ للشرف والأمانة. تصف الست نظيفة منزلها:

مـنـزلـي حـولـي نـظـيـف ... وأنـا الـسـت نـظـيـفـة
وبـلاطـي أنـقـي ... بـكـثـيـر مـن صـحـيـفـة
لا بـسـاطٌ لا كـلـيـمٌ ... لا حـريـرٌ لا قـطـيـفـة

وعندما ماتت "الست نظيفة" تركت كل ثروتها لخادمتها حُسْنى،ولكن حُسْنى رفضت الثروة وأعطتها "لجمال" حفيد الست نظيفة، فقد رأت أنه أحقُّ بالثروة منها. يقول جمال:

أنـا الـذي قـد سـلَبـوه مَالـهُ ... لـم يـبـق مـن مـالِيَ مَا لَمْ أُسْلَبُ

فترد عليه حُسْنَى:

جمـال سيـدي تعال نـحتكم ... إلـي الحقوقِ والصواب والنُّهَي

هـات الـكـتـابَ فـامـحُ مـا ... تـشـاءُ، واثـبـتْ مـا تَشَا
بَدِّل وغيِّر فـي كـتـا ... بِ وَقْفِهـا كـمـا تـري

فشوقى فى هذه المسرحية الهزلية يقول إن الفقر والحاجة لا تمنع الإنسان من أن يتحلّى بعزّةْ النفس والشرف والأمانة.

وفى مسرحيته النثرية الوحيدة "أميرة الأندلس" نجد أيضا البطلة فيها امرأة وهى بثينة بنت المعتمد بن عباد ، والمسرحية تصور الاضطراب السياسى فى الأندلس فى نهاية عصر ملوك الطوائف وكفاح بثينة لنصرة أبيها ضد ملوك الأسبان، ويشاركها فى جهادها أديب شاب شجاع هو حسون بن أبى الحسن التاجر بأشبيلية وتتزوجه فى النهاية.

لقد كرّم شوقى المرأة ورفع من قدرها فى نيتيناس المصرية، وكليوباترة المصرية، وعبلة العربية، وليلى النجدية، وآمال الشركسية، وزينب التركية، وبثينة الأندلسية.

ونحن لا نُحمّل المتنبى تقصيراً لعدم تكريمه للمرأة كما كرّمها شوقى فالعصر مختلف والنظرة مختلفة، فالمرأة فى عصر المتنبى لم تكن لها مكان ولا مكانة فى المجتمع، وما الشاعر إلا ابن زمنه وصورة عصره.

ولكن دفاع شوقى عن المرأة وتحيزه لها ، يزيد من قدر شوقى كرائد من رواد رد حقوق المرأة العربية.

أما المرأة كمحبوبة فقد نظم شوقى فيها أرّق قصائد الغزل فقد أحب المرأة، وهام بها ، ورأى أن الدنيا لا يتم جمالها وبهاؤها إلا بالمرأة. سعد شوقى بأيّام الشباب، فجاءت قصائده فى الغزل كسيمفونية موسيقية يشعر

قارؤها بأنه يعيش فى قصّة حُبّ حقيقية بكل أبعادها، ويكاد يرى أبطالها يتحركون ويتناقشون ثم لا يلبث أن يشعر بأن تلك القصيدة هى قصتَه الشخصية - ونحن نختلف مع الدكتور طه وادى فى قوله "إن شعر الغزل عند شوقى لا يعكس تجربة حقيقية" فلشوقى قصائد فى الغزل تعكس تجارب حقيقية، وعلى سبيل المثال لا الحصر "يا حلوة الوعد ما نسّاك ميعادى"، "السحر من سود العيون لقيته"، "يا جارة الوادى": وقصيدة خدعوها "بقولهم حسناء "تؤكد رأينا، فلا يمكن أن ينظمها إلا صاحب تجربة حقيقية:(١)

أتراها تناست اسميّ لما ... كثرت في غرامها الأسماءُ
إن رأتني تميل عنّي كأن لم ... يك بيني وبينها أشياءُ
نظرةٌ فابتسامة فسلام ... فكلام فموعد فلقاءُ

ويشكو شوقى مما تحمله قلبه من عناء الحُبْ:(٢)

لقيت الذي لم يلق قلبٌ من الهوي ... لك الله يا قلبي أأنت حديدُ
ولم أخل من وجْدٍ عليك ورِقّةٍ ... إذا حلّ غِيدٌ أو تَرَحّل غيدُ

ويبالغ فى جمال محبوبته:(٣)

يستهوي الوُرْق تأوهه ... ويُذيبُ الصَخْرَ تَنَهدهُ
ويناجي النجم ويُتْعِبَهُ ... ويقيم الليل ويُقْعده
الحسن حَلَفْتُ بيوسفه ... والسورة أنّك مُفْرِدهُ

وفى شعر شوقى المسرحى وأيضا فى بعض قصائده نجد القصائد الغنائية التى تصلح للغناء، ففيها الجرس الموسيقى والموسيقى الخفية التى لا يمكن

(١) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١١١ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١١٨ .
(٣) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١٢١ .

التعبير عنها ولا وصفها، فالقارئ يشعر بوجودها ولكنه لا يراها، ولقد غنى محمد عبدالوهاب الكثير منها، مثل: "أنا أنطونيو وأنطونيو أنا" من مسرحية كليوباترا، تلفتت ظبية الوادي، وجبل التوباد من مجنون ليلى، كما غنى من قصائده، علموه كيف يجفو فجفا، مضناك جفاه مرقده، كما غنت أم كلثوم لشوقى "سلو كؤوس الطلا "وسلو قلبى علام سلا وتابا".

ولما بلغ شوقى المشيب، صارَ يَحّنْ إلى أيام الشباب، وكل الكبار يحنون إلى أيام الشباب ويسعدون بذكراها، ولكن ذكرى الشباب بالنسبة لشوقى شيء آخر، لم يستطع أن ينساها أبدا، ولا أبالغ القول، أنه كان يعيش فيها بعقله ووجدانه، فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده الرقيقة إلا ويبكى فيها على الشباب الذى ولّى، وقلبه الذى شاخ، وحبه الذى انطفأت شعلتَه، وعلى المرأة التى لم تَعُد تَنظُر إليه، وعلى شباكه التى لم تَعُد تعْمل![1]

شيعت أحلامي بقلب باك ... ولَمَمْتُ من طرق الملاح شباكي
ورجعت أدراج الشباب ووَرْده ... أمشي مكانهما علي الأشواك

ثم يخاطب قلبه الذى لم تعد له قُدرةٌ على الحب:

ويح ابن جنبي كل غاية لذة ... بعد الشباب عَزيزةُ الإدراكِ
لم تُبق منّا يا فؤاد بقيةٌ ... لفتُوةٍ أو فضلة لعراكِ
كنا إذا صَفَّقْت تَسْتبقي الهوىَ ... ونَشُد شدَّ العُصْبَة الفُتَّاك
واليوم تَبْعَثُ في حِين تَهُزّني ... ما يبعثُ الناقوس فيَ النُسَاكِ

فقلبه الآن لا يستجيب إلا للعبادة..ويأسف لأن المرأة لم تعد تنجذب إليه:

خَدعت حبائلك الملاح هنيةً .... واليوم كل حُباله لا تَعْلَقُ

(١) ... يات الصحيحة ج٢، ١٧٧ .

ولما زار شوقى "غاب بولونيا" فى باريس وكان الشباب قد ولىّ، تذكر أيام الهوى والشباب، ثم استيقظ من أحلامه فوَعىْ الحقيقة وهى أن الشباب قد ولىّ ولن يعود...[1]

حلمٌ أريدُ رجوعه ... ورجوع أحلامي بعيد
وهب الزمان أعادها ... هل للشبيبة ما يُعيد!

ويستمر شوقى فى مخاطبة قلبه الذى شاخ ويبكى أيام الشباب:[2]

حنانيك قلبي هل أُعيد لك الصبا ... وهل للفتي بالمستحيل يدان
أتذكر إذْ نعطي الصبابة َحقها ... ونشربُ من صرفِ الهوي بدنانِ
لقد كنت أشكو من خفوقِك دائباً ... فوليّ فيا لهفي علي الخفقان

وعندما عاد شوقى من المنفى، وكان قد تجاوز مرحلة الشباب، سعد بعودته بعد سنوات النفى القاسية، فقد كانت عودته إلى مصر هى عودة الروح له، لم يجد شوقى نظيراً لها سوى عودة الشباب:

فيا وطني لقيتك بعد يأس ... كأني قد لقيت بك الشبابا

وإذا كان المتنبى لم ينظم سوى بيتين للبكاء على الشباب، فقد نظم شوقى عشرات الأبيات.

وقد وعينا أن الشعر العربى يزخر بأجمل وأرّق قصائد الغزل والحب وتدليل المرأة، مما جعل المرأة العربية تتيه فخرا وَدلالا، وقد كان لشوقى مكانا متميزا فى هذا المجال. ولكن شوقى هو صاحب المقام الأعلى فى الوصف البليغ والتعبير الرقيق لأجمل سنوات العمر، مرحلة الشباب، كما عبّر بمقدرة فائقة على الألم والحسرة عند زوالها.

(١) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٢٧ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١٤١ .

الطفـــــل

لم يكن للطفل مكانا عند شعراء العرب القدماء، فلم يشعروا بوجوده ولم ينظموا للطفولة شعرا، كيف غفلوا عن الطفل الذى يُشَكِّل أكثر من نصف المجتمع، وهو رجل المستقبل الذى سيكون بيده الأمر والنَهْى. وربما لا نستثنى من القدماء إلا أبا العلاء المعرّى الذى نظم بضعة أبيات من الشعر للطفل، على أية حال فقد شعر بوجوده.

فيقول فى تكريم الطفل:

لا تَذْدَرُنَّ صغاراً في ملاعبهْم ... فجائزٌ أن يُرَوْا سادات أقوامِ
وأكرموا الطفل عن نُكرٍ يُقال له ... فإن يعش يُدْعَ كهلا بعدأعوامِ
ولا تناموا عن الدنيا وغِرَّتها ... فإن أبَيْتُم فكونوا خير نُوّامِ
لا تظلموا من بينها واحداً أبدا ... حتي تَعُدّوا ذوي فِطرٍ كصِوَّامِ

وحتى فى عصرنا الحديث نجد كثيرا من شعرائنا الكبار لم ينظموا للطفل، منهم على سبيل المثال حافظ إبراهيم والبارودى واسماعيل صبرى...

والمتنبى كغيره من شعراء عصره، وكأغلب من جاءوا بعده لم ينظم للطفل، ولم يشعر بوجوده - أما شوقى فقد تنبه منذ البداية إلى أن الطفل يُشكل أكثر من نصف مجتمع وأنه المستقبل، فنزل إلى مستواه الذهنى، وخاطبه ونظم له باقة من أجمل قصائده، ووجَهَه فيها إلى القِيم والمبادئ السامية.

أحبّْ شوقى الأطفال كما أحبَّ أبناءه وأحب كل أطفال الدنيا:

أُحبُ صغار العالمين لأجلهم ... ويَعْطِفُ قلبي ذو أبٍ ويتيمُ

أحبّ شوقى كل الأطفال لا فرق بين مصرى وغَير مصرى، وبين أبيض وأسود وبين مُسلم وغير مُسلم فالجميع يعيشون على الفطره، ويَتَحلوُن بأنبل الصفات. وعندما رأى فى السفينة،التى كان يستُقِلها، بنت صغيرة تشبه ابنته أمينة قال:

هـذه نـور السـفـيـنـة ... هـذه شـبـه أمـيـنـة
هـذه لـؤلـؤة عـنـدي ... لـهـا مـثـلٌ ثـمـيـنـةْ
مـن بـنـات الـرومِ لـكـن ... لـم تـكـن عـنـدي مَهـيـنَةْ

ويصف شوقى احتفال الأطفال برأس السنة الميلادية:

تـهز اللواءَ بعيد المسيح ... وتُحْيـيه من حيثُ لا تَشْعُرُ
ومن عجب منهمو المسلمون ... أو المسلمون هم الأكثرُ
ولا يزدري بالفقير الغنُي .. ولا يُنكر الأبيض الأسمر
سؤال أقدمُه للكبار ... لعّل الكبارَ به أخبرُ

رأى شوقى الأطفال يتعاملون فيما بينهم بانسانية راقية، لا فرق بين عنى وفقير ولا بين أبيض وأسود، ولا بين مسلم وغير مسلم، فالكل إخوان فى الإنسانية، وكان شوقى يتمنّى أن يتعلّم الكبار من الصغار، ولكن هيهات أن يتعلم الكبار!

فَيُفَهِّم شوقى ابنته أن الدنيا كالغابة، وأن حياة الكبار ليست كحياة الصغار، ولابّد للإنسان أن يأخذ طريق القوة حتى يعيش فى أمان وحتى لا تفترسه ذئاب البشر...

(١) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١٠٢ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج٤، ١٠٢ .

ومن يَعدم الظُّفرين الذئاب ... فإن الذئاب به تَظْفَرُ
فخذ هذه بندقة نارها ... سلام عليك إذا تُسْعَرُ
ففيها الحياة لمن حَازها ... وفيها السعادةُ والمفخر

إن الطفل عندما يشب ويكبر يتغيّر تغيرا تاما ويصبح مخلوقاً مختلفاً كل الاختلاف وكأنه لم يكن يوما طِفْلا، ويفقد القيم الإنسانية التى فُطِرَ عليها، إلاّ قِلّةٌ مُصْطَفَاةٌ من البشر - حتى الحيوانات الكاسرة تكون وهى صغيرة فى منتهى الوداعة والألفة، فالثعلب والذئب الصغيران جميلا الصورة والطباع فإذا شَبَّا، انقلب الأول إلى خبيث غادر والثانى إلى وَحْشٍ كاسر.

أما القلة المصطفاه من البشر التى تحتفظ بالقيم الأخلاقية والمبادئ الإنسانية فقد أوجدهم الله سبحانه وتعالى لكى ينشروا العدل والعلم والفضلية بين البشر كالرسل والأنبياء، والعلماء العباقرة والشعراء والكتاب الموهوبين.

وقد وعى شوقى أن التربية السليمة هى أساس تكوين وتقويم شخصية الطفل، وأنّ الأم هى المسئولة الأولى عن ذلك:(١)

لولا التقي لقُلتُ لم يخلق سواكِ الوالدا
إنْ شئتِ كان العَيْرَ أو إن شِئْت كان الأسدا

ويضرب شوقى للأم والطفل مثلا فى البلابل التى أعطاها سيدنا سليمان للبوم لكى يربيها فأصابها العيّ وفسدتْ أخلاقها:(٢)

أصابها العِيُّ حتي لا اقتدار لها ... بأن تَبُث نبي الله شكواها
بلابل الله لم تخرس ولا وُلِدَتْ ... خُرْسا ولكنّ بُومَ الشؤم ربّاها

(١) الشوقيات الصحيحة ج٤، ١٩٢ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج٤، ١٢٧ .

ويرى شوقى أن العلم هوأساس رُقى الأمم ومصدر قوتها ، فَيرُغِبْ الطفل فى المدرسة ويُفْهمه مكانة العلم وقدرة العقل:(١)

أنــا المــدرســة اجــعــلــنــي ... كــأمَّ لا تَغبْ عنّي
أنــا المــفــتــاح لــلــفــكــر ... أنــا المــصــبــاح لــلــذهــن

ويُفَّهِم شوقى الطفل معنى الوطن والوطنية فيخاطبه على لسان الطير... وكان الريح قد مّر على عصفورتين فى الحجاز وأغراهما للهجرة إلى اليمن حيث الرياض والحَبْ والماء العذب فَتتصدّى له إحداهُما :(٢)

يـا رِيـح أنـت ابـن الـسـبـيـل   مـا عـرفـت مـا الـسـكـن
هبْ جـنّة الخـلـد الـيـمـن ... ` شـيء يَعْدُلُ الـوطـن

وفى قصيدته (نشيد مصر)، يغرس شوقى فى الطفل حُبَّ الوطن والانتماء لمصر والتمسك بالوحدة الوطنية والتضحية بكل ما هو عزيز، حتى بالحياة نفسها من أجل مصر، كما يؤكد شوقى أن الأخلاق الفاضلة هى أساس بناء الأمم:(٣)

علي الأخلاقِ خطوا الملك وابنوا ... فليس وراءها للعز رُكنُ

لنا وطنٌ بأنفسنا نَقيه ... وبالدنيا العريضة نفتديه

جعلنا مصر مِلّة ذي الجلال   وألفنا الصليبَ علي الهلال

ولم يكن شوقى مُعلّما للطفل وحسب ولكنه كان أيضا مربيًا ، فينهى الطفل عن الأعمال التى تتنافى مع الأخلاق - ففى قصيدة الهدهد يرفض شوقى الظلم، وينهي عن اغتصاب حقوق الغير، ويبيّن للطفل أن الله سوف

(١) الشوقيات الصحيحة ج٤، ١٩٦ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج٤، ١٩٠ .
(٣) الشوقيات الصحيحة ج٤، ١٩٧ .

يعاقب الظالم ويقلق راحته - وكان الهدهد قد استَنجد بسيدنا سليمان من آلام فى صدره سببتها له حبه قمح كان قد ابتلعها:

مــت مــن حــبــة بُرَ أحــدثــت فــي الــصــدر غلّــه...

فيقول سيدنا سليمان:

تــلــك نــار الإثــم فــي الــصــد ر وذي الــشــكــوى تــعــلّه
مــا أري الحــبّة إلا سُرقــت مــن بــيــت نَمــلَهْ.
إن لــلــظــالــم صــدرا ... يــشــتــكــي مــن غــيــر عِلّهْ.



المتنبي وشوقي
في
قضية السيف والقلم

المتنبى فى قضية السيف والقلم

والمقصود بالسيف هو القوة والبأس والجبروت. أما القلم فيعنى العلم والفكر والمعرفة، كلاهما قوة وكلاهما ضرورة من ضرورات الحياة.

والمتنبى بالرغم من نبوغه الفكرى وتفوقه الذهنى، يرى أن السيف هو سيد الكَوْن، وصاحب المرتبة الأولى فى الحياة، وأنه الوسيلة الوحيدة لقضاء الحاجات.

من اقتضي بِسوي الهنديّ حاجتَهُ ... أجاب كل سؤال عن هلِ بلمِ(١)

وربما تُهبُ رياح المعرفة على المتنبى أحياناً، فيسعى إلي تحكيم العقل وترجيح المنطق السليم والرأى السديد:(٢)

الرأى قبل شجاعة الشجعان ... هو أولٌ وهي المحلُ الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفس حُرةٍ ... بلغت من العلياءِ كل مكان
ولربما طعن الفتي أقرانه ... بالرأي قبل تطاعن الأقران
لولا العقول لكان أدني ضيْغَمٍ ... أدني إلي شرفٍ من الإنسان

ولكن المتنبى بشخصيته العُدوانية لا يهيم إلا بالسيف، ولا يكّل من تكرار هياسه وتمجيده له، وإعجابه بما يقوم به من عدوان وقطع الرقاب:

ولو بَرزَ الزمان إليّ شخصاً خضّب شعر مفرقة حُسامي
كأن رقاب الناس قالت لسيفه ... رفيقك قَيْسيٌ رأنت يمان
إلا أيها السيف الذي ليس مُغْمَدَاً ... ولا فيه مرتابٌ ولا منه عاصمُ

---

(١) ديوان المتنبى ٤٩٧ .

هـنـيـئـا لـضـرب الـهـام والمجـد والـسـي
أطـاعـن خـيـلا مـن فـوارسـهـا الـدهرُ
فـرؤوس الرمـاح أذهـب لـلغيظِ ... وأشـفـي لـغلَ صَدْرِ الحَقُـودِ

ويـتمـادى المتـنبى فى العُنْف، فهو طمـوح، يـريد أن يـتبوأ الـصدارة فـي الحيـاة ويرى أن مـا يطلبه حقًا مـشروعاً، وإذا لـم يحصل علـيه فيأخذه قـسرا بقوة السلاح، ومن مَنْ، من كبار القوم!:(١)

سأطلب حقي بالقنَا ومشايخٌ ... كأنهم من طول ما التثموا مُرْدًا!
ثقالٌ إذا لاقوا - خفَاف إذا دعوا ... كثير إذا اشتدّوا. قليل إذا عُدُّوا

ويـزداد المتـنبى فى عـنفه، فـهـو يرى نـفسه أعـلـى من الـبشر فلا يـكـتفـى بضـرب أعنـاق المشايـخ، ولكنه لا يتورّع عن ضرب أعناق الملوك، إذا وقـفوا فى طريقه للوصول إلى هدفه:(٢)

ولا تحسبّن المجد زقـاً وقَيْنَةً ... فـمـا المجـد إلا الـسـيـفُ والـفـتـكـةُ الـبـكـرُ
وتَضْرِيبُ أعناق الملوك وأن تُرى ... لك الهَبَواتُ السّودُ والعسكرُ الـمَجْرُ
وتـركُكَ فـي الـدنـيـا دَوِيًا كـأنمـا ... تـداوَلَ سَمْعَ المرءِ أنمُـلُـهُ الـعَشْرُ

ويرى المتنبى فى ضرب أعناق الملوك وكبار القوم الذين يرمزون إلى الحكم وصدارة المجتمع، يري فى ذلك مجدا له سَيُخَلّدُهُ أبد الدهر.

وربمايكون هذا الفكر العدوانى الذى يعتنقه المتنبى يرجع إلى كونه فارسا شجاعا، يشترك في القتال، ويري أن في السيف حياة له...

فعندمـا يتعرض للقلم نجد أنـه يضـع السـيف في المكان الأول، أما الـقَلم والكتاب فيأتيـان فى آخر المطاف، فالسيف هو المفضل في عـقله الباطن وهو لا يَمْلك من أمر ذلك تبديلا:

---

(١) ديوان المتنبى ١٩٨ .
(٢) ديوان المتنبى ١٨٩ .

الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ
تَركْنا لأطراف القنا كل شهوةٍ ... فليس لنا إلا بِهنَّ لعاب[١]
أعزُّ مكانٍ في الدنا سرجُ سابحٍ ... وخير جليسٍ في الزمانِ كتابُ

ولكن المتنبى لا يكتفى بتمجيد السيف وتفضيله على القَلم، بل يَزْدرى القلم ويَحُط من شأنه عندما يضعه في موضع المقارنة مع السيف:[٢]

حتي رَجَعتُ واقلامي قَوائِلُ لي ... المجدُ للسيفْ ليس المجد للقلم
أكتب بنا أبداً بعد الكتابِ به ... فإنما نحن للأسياف كالخَدَمَ

فالمتنبى يدعى أن الأقلام تُمَجدّ السيف، وتبايعه سيداً لها، وترضى هى بدُورْ الخدم، ولا يكتفى المتنبى بذلك بل يقول: إن القلم يأتمر بأمر السيف ويؤيده فى قطع الرقاب!، ولم أر تحقيراً للقلم بمثل ذلك القول.

رُبَّمَا يقول قائل، إن اعتناق المتنبى لهذا الفكر، يرجع إلي كونه كان يعيش في عصر يُمَجَّد فيه السيف، ولكنى أرى أن بناء الأمم وتشييد الحضارات لا تختلف باختلاف العصور ولا بتوالى الأزمان.

فابن الرومى، كان يعيش أيضا فى عصر تَمجيد السيف وتَسلطه، إلا أنه شعر ببصيرته الحادة تَفَوُّق القلم على السيف، فقد قضى الله برفع شأن القلم، واقسم به في كتابه العزيز، قال تعالى "ن والقلمِ وما يسطرون"، وقد اعتنق ابن الرومى هذا الفكر.

وكان ابن الرومى معارضا في رأيه لرأى المتنبى، فبينما يقول المتنبى إن القلم خادم للسيف حتى في عدوانه "وإنما نحن للأسيافِ كالخدم" نَجد أنّ

(١) ديوان المتنبى ٤٧٩ .
(٢) ديوان المتنبى ٤٩٧ .

ابن الرومى رأى قبل المتنبى، أنّ السيف هو الخادم للقلم.

يقول:[١]

إن يخدمُ القَلم السيفَ الذي خضعت ... له الرقابُ ودانت خوفه الأمَمُ
فالموت، والموت لا شيء يغالبُهُ ... ما زال يتبعُ ما يجري به القلمُ
كذا قضي الله في الأقلام مُذْ بريتْ ... أنّ السيوف لها مذ أُرهفت خَدَمُ

فابن الرومي يقول أنه لا يَصّح أن يُكلّف القلم لخدمة السيف، وإلا انهارت الأمم، وكان فى ذلك هلاكها، فقد حكم الله تعالى للقلم أن يكون سَيّدا للسيف، والسيف لا يزيد عن كونه خادما للقلم.

وربما يكون أبو تمام مفضلا السيف على القلم فقد جاء فى قصيدته "فتح عمورية" الذي انتصر فيه الخليفة المعتصم على الروم:[٢]

السيف أصدق أنْباءً من الكتب ... فى حدّه الحَدُّ بين الجدَ واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائفَ في ... مُتونهنَ جلاءُ الشك والرِيَبَ

ولو أن أبا تمام قصد "بالكتب" ما كتبه المنجمون من إستحالة فتح عمورية فى هذا الوقت من السنة، وقد كذبوا فى ذلك، إلا أننا نشعر أن أبا تمام تحيّز بين السطور للسيف فيصفه بأنه ناصع البياض، وأما الصحائف (الكتابة) فهى سوداء، قاصداً بالبياض التفوّق وبالسواد الضعف والفشل، ويكرر تحيزه للسيف:

والعلم في شهبِ الأرماح لامعةً

فهو يرى أن المعرفة الحقيقية في الرماح التى تلمع فى القتال! وفى ذلك إنقاص واعتداء على قدر العلم..

---

(١) ديوان ابن الرومى ج٣، ٢٨٤ .
(٢) ديوان أبو تمام ٣ .

وربما يكون تحيُّز أبو تمام للسيف جاء عرضا من تَحمُسْه الكبير للنصر الذى حققه الخليفة المعتصم على الروم.

وقد بيّنا أنه بالرغم من الإضطراب السياسى في الدولة العباسية فى القرن الرابع الهجري (عصرالمتنبى)، فإن هذا العصر كان من أزهى عصور الأدب وعلوم التاريخ والطب والفلك والفلسفة والرياضيات والطبيعة.

فقد ظهر فى هذا العصر الطبيب أبو بكر محمد بن زكريا الرازى رائد الطب السريرى وصاحب كتاب الحاوى، وأبو القاسم خلف الزهراوى من الأندلس، رائد الجراحة العملية ومؤلف كتاب التصريف.

وأصبحت مؤلفات هؤلاء الأطباء الرواد أساسًا لدراسة علوم الطب فى أوروبا مئات السنين - وظهر في الفلسفة والرياضيات الفارابى (٨٧٠ - ٩٥٠م) الذى يعتبر المعلم الثاني بعد أرسطو . وفى علوم الطبيعة والرياضيات ظهر ابن الهيثم (٩٦٥ - ١٠٣٩م) التى تُرجمت كُتبه إلى اللاتينية وظلت تدرّس مئات السنين فى مدارس أوروبا. وفي الفلك ظهر جابر بن أفلح الأندلسى، وموسى بن شاكر، وفى علوم الحساب والجبر ظهر الخوارزمى، وفى الفلسفة ظهر فيلسوف العرب الكندى ٨٧٣م - وفي سنة ٨٨٨م نجح عباس بن فرناس من الأندلس فى الطيران باستخدام أجنحة من الريش، وكان أول من حلّق فى الفضاء، وبالرغم من هذه النهضة العلمية الغير مسبوقة فلم يشعر المتنبى بها.! ولم ينظم أى تمجيد وتكريم للعلم والعلماء الذين كانوا يقودون العلم والمعرفة في العالم كله.

وربما يكون عدم إحساس المتنبى بهذه النهضة العلمية هو هيامه بالسيف وعدم إكتراثه بقيمة القَلم.

شوقى فى قضية السيف والقلم

كان شوقى لا يري شيئا يفوق العلم فى بناء الأمم "وكل بُنيانُ علمٍ غير مُنْهَدِمِ" ولكن شوقى يرى أن السيف ضرورة لحماية الشعوب والدفاع عنها ويرى أن الدفاع هو دفاع عن العقيدة، أو دفاعٌ عن النفس، أو عن الوطن. ولما تعرضّت الدعوة الإسلامية إلي العدوان، كان ولابد وأن تدافع عن نفسها، وكان لابد من السيف، والسيف شرٌ لابد منْه، يقول: (*)

والشّرِ إن تَلْقِه بالخير ضِقْتَ به ... ذرعا وإن تلقه بالشرَ ينحسمِ

ثم يوجه شوقي حديثه إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

"فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم" - فالقلم يرمز إلى الدعوة الإسلامية، والسيف للدفاع عن العقيدة والجهاد فى سبيلها:

دَعَوْتهم لجهادٍ فيه سؤددهم... والحرب أُسُ نظام الكونِ والأمم

وشوقى لا يرى بأساً فى اللجوء إلي السيف الذى يدافع عن الحق،

يقول للخليفة التركي الذى كان يحارب اليونانيين:

بسيفك يعلو الحق والحقُ أغلبُ

وحتى المسيحية وهى رسالة السلام على الأرض، لم تَسلم من العُدوان، فكم لاقى المسيحيون من العذاب والقهر على يد الرومان ولم ينقذهم إلا السيف، يقول شوقى:

سلْ المسيحيةَ الغراء كم شَرِبَتْ ... بالصاب من شهوات الظالم الغَلِمِ
لولا حماةٌ لها هبُّوا لنصرتها ... بالسيف ما انتفعتْ بالرفق والرحَمِ

وكما يؤيد شوقى السيف الذى يدافع عن العقيدة، يؤيد القوة التى تدافع

(*) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٤٢ .

عن الوطن، فيقول فى قصيدة نكبة دمشق، محرضاً السوريين على قتال الفرنسيين: [١]

وللأوطان في دمِ كلِّ حرٍّ ... يدٌ سَلَفَت ودينٌ مُستَحقٌ

ومن يسقي ويشرب بالمنايا ... إذا الأحرار لم يُسقَوا ويَسقوا

ففي القتلي لأجيال حياةٌ ... وفي الأسري فديً لهمُ وعتقُ

وللحريةِ الحمراءِ بابٌ ... بكلِ يدٍ مُضرجةٍ يُدَقُ

ولكن شوقى الإنسان يرفض السيف الذى يستخدم لاستعباد البشر:

ولم يك ظُلْم الطير بالرّق لي رضا ... فكيف رضائي أن يري البشر الظُلماَ

وقد أدان شوقى الغواصة الألمانية التى أغرقت الباخرة المدنية لويزيتانيا فى الحرب العالمية الأولى: [٢]

فلا كان بانيها ولا كان رَكْبُها ... ولا كان بَحرٌ ضمّها وحَواها

وأُفٍ علي العلم الذي تدّعونه ... إذا كان في علمِ النفوس رداها

ولما اعتدت قوات الاحتلال الفرنسية على دمشق، رفض شوقى ذلك العُداون الوحشى، واعتبره سقطةَ لفرنسا: [٣]

وللمستعمرين وإن ألانوا ... قلوبٌ كالحجارة لا ترُقُ

ويحرج الفرنسيين لخروجهم على مبادئهم:

إذا ما جاءه طلاب حقٍ ... يقولُ عصابةٌ خرجوا وشقُّوا

دم الثوار تعرفه فرنسا ... وتعرف أنه نورٌ وحقُ

بلادٌ مات فتيتها لتحيا ... وزالوا دُونَ قومهم ليبقوا

وحُرِّرتْ الشعوبُ علي قناها ... فكيف علي قَناها تُسْتَرَقُ؟

(١) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٧٣ .

(٢) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١٠٨ .

(٣) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٧٣ .

فشوقى يرفض السيف الذى يستَرِقُ الشعوب، ولكنه يعطى الشرعية لمن يحمل السيف لتحرير الوطن "وحُررت الشعوب على قناها" (طلابُ حقٍّ)، ويرفض وصفهم بأنهم عصابة خرجت على القانون "خرجوا وشَقُّوا"، ويرى أن فى نضالهم واستشهادهم حياةً لشعوبهم "مات فتيتها لتحيا". وكأن شوقى يعيش بيننا الآن ليصف جرائم الاستعمار الإسرائيلى فى فلسطين ولبنان، ويرفض وصف المجاهدين من أبطال الشعب الفلسطينى والشعب اللبنانى بأنهم إرهابيون - هذا هو تقييم شوقى للسيف.

وشوقى يرى أن يصاحب القلم السيف فى استقرار الأمم والشعوب:

ومن شرف الأوطان ألا يَفُوتَها ... حسامُ مُعِزٌ أو يراعٌ مهذَّبُ(١)

إلا أن القلم في تقدير شوقى هو سيد الكون، وهو سبيل الحضارة والرقى وهو الطريق القويم لرخاء الإنسان وبناء الشعوب.

هذه هى عقيدة شوقى منذ البداية ففى قصيدة "تهنئة" التى نظمها شوقى للخديوى عباس الثانى سنة ١٨٩٣، نراه يطالب الخديوى بنشر العلم والمعرفة فى البلاد:(٢)

فتوَلَّ الذي سَنَنْت ونجّح ... لرعاياك في المعارف قَصْدا
ومُرْ العلم أن يزور بلادا ... عَهدَتها له الخلائق مهدا
قل لراجٍ أن يسترق يراعي ... أنا لا أشتري بذا التاج قيدا
نومة السيف قد تكون حياةً ... ورأيت اليراع إن نام أردي

فشوقى يرى أن القلم الحرّ هو أقيّم شيء في الوجود، وأن صاحب هذا

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٤٦.

(٢) الشوقيات المجهولة ج١، ١٥٢.

القلم أعلى قدرا من صاحب السلطان، وأن فى رقدة القلم ورقدة العلم موتٌ للأمة، أما نوم السيف فربما يكون لصالح الحياة، ولم أر شجاعه في الرأى وتكريما للقلم بمثل هذا القول.

وإنى أوجه هذه القصيدة لمن يدّعى أن شوقى كان يسير على هوى صاحب العرش!

وربما يكون اعتناق شوقى لتفوق القلم قد جاءه من إيمانه، فشوقى يؤمن بالله وكتبه ورسله، وقد وعى أن الله سبحانه وتعالى بدأ تنزيله بتمجيد القلم والعلم قال تعالى:

"اقرأ باسم ربّك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذى علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم" والله تعالى أنزل سورة باسم القلم وأقسم به، قال تعالى "ن والقلمِ وما يسطرون"... وشوقى عندما يكرم المعلم نجده متأثرا بالذكر الحكيم:(*)

قم للمعلم وَفِّهِ التبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا
سبحانك اللهم خيرُ مُعلِّمٍ ... علمّت بالقلم القرون الأولي
أخرجت هذا العقل من ظلماته ... وهديته النور المبينَ سبيلا

ونرى شوقى متأثرا أيضا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علمٌ ينتفع به أو ولد صالح يَدعو له"

فعندما يحيى شوقى العلم والمعلم فى العيد الخمسينى لدار العلوم يخاطب الدار قائلا:

(*) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢١٨ .

سوف تَفْني في ساحتيكِ الليالي ... وهو باقٍ علي المدي ليس يَفْنَي[١]
فتيةٌ محسنون لم يخلفوا العـــ ... لم رجاءً ولا المعلمُ ظنّا
من قَضي منهمُ تَفرّق فِكْرًا ... في نهي النشءِ أو تقَسم ذِهنا

فشوقي يرى أنه إذا رحل المعلم إلى رحاب الله، ترك علمه وفكره فى عقول تلاميذه، فهو بالعلم الذى أعطاه خالدٌ لا يموت، ولم أر تكريما للعلم والمعلّم بمثل هذا القول.

ولما ضاق شوقى بالاحتلال البريطانى، ولم يكن في قدرته محاربته بالسيف حاربهم بالقلم:[٢]

أحبك مصر من أعماق قلبي ... وحبّك في صميم القلب نامِ
وهبتك غير هيّاب يراعاً ... أشدُ علي العدو من الحُسامِ
وعندما يُوجَه شوقي نصيحته للملك فؤاد لبناء الدولة يقول:
إن سرّك الملك تنبيه علي أُسُسٍ ... فاستنهض البانِيّن العلم والأدبا

وشوقى يري أنّ السيف قد ينتصر إلى حين، ولكنه لا يبني أمة ولا يقيم حضارة فالأمم لا تُشيَّد إلا بالعلم:[٣]

بالعلم يبني الملك حقّ بنائه ... وبه تُنال جلائل الأخطارِ
ولقد يشادُ عليه من شُمِّ العلا ... ما لا يُشادُ علي القنّا الخطّارِ

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهمُ

لا تناد الحصون والسفن وادعو الـــ ... ـــعلم يُنْشِئ لكم حصونا وسفنا[٤]
إن ركب الحضارة اخترق الأر ...ض وشق السماء ريحا ومُزْنا

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج٤، ٢٢ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٥٢ .
(٣) الشوقيات الصحيحة ج٣، ٨٥ .
(٤) الشوقيات الصحيحة ج٤، ٢٣ .

فَعَلِّم ما استطعتَ لعلّ جيلا ... سيأتي يُحدثُ العجب العجابا[١]

وفي هذا الزمان مسيح علمٍ ... يرد علي بني الأمم الشبابا

بالعلم تُمتلك الدنيا ونَضْرتها ... ولا نَصيبَ من الدنْيا لجهّال

وشوقى كان في ذلك فيلسوفا وكان متنبئاً بالمستقبل، فقد رأينا طغيان السيف واعتداءه على القلم والفكر، فكان في ذلك تقويض للدول وهدمٌ لكيانها، وما جنكيز خان وتيمور لنك وهولاكو وهتلر وموسولينى وستالين وشاوشيسكو ومن على شاكلتهم ببعيد - أما نابليون فالبرغم من رفضنا اعتداءه على مصر وقهره للشعوب، فإنه مختلف بعض الشيء عن هذه الزُمْرَة الطاغية فقد كان يقول "أتعلمون بماذا أنا أكثر إعجابا فى هذه الدنيا، إن إعجابى كله يتركز على عجز القوة عن أن تُنَظِم شيئا، وإن في العالم سلطتين لا سلطة واحدة، الذهن والسيف، لكن السيف لا يلبث مع الزمن أن يهزمه الذهن".

وعندما غزا مصر بالسيف والجيش غزاها أيضا بالقلم و العلم فأحدث بها نهضة فكرية رفيعة، وأخرج التاريخ من محرابه فأعاد الروح إلي مصر القديمة وقد شعر شوقى بعبقريته فَمَجَدَهُ ورفع شأنه، فقال عن قبره:

قف علي كنز بباريس دَفينْ ... من فريدٍ في المعاني وثمينْ

أما الاسكندر الأكبر فهو مختلف تماما عن هؤلاء الطغاة، فعندما دخل مصر وطرد الفُرس، أحدث في مصر ثروة علمية كبيرة نَمت وتطورت حتى أعطت مكتبة الإسكندرية ومدرسة الأسكندرية الطبية القديمة اللتين علّما العالم القديم. وقد قال عنه شوقى:[٢]

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٧٠ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٣ .

شادَ إسكندرُ لمصر بناء ... لم تَشدْه الملوك والأمراءُ
بلداً يرحل الأنام إليه ... ويحج الطلاب والحكماءُ

إن القلم يحكم الأمم الراقية التى تحافظ على حقوق الإنسان، وتبنى بإبداعه الحضارة والمدنية، فى هذه الأمم يحكم القلم السيف ويرشده ويكبح جماحه.

ولما رأى شوقى أن الأتراك تَخلّفوا وضعفت شوكتهم، أحسّ ببصيرته الحادة أن ضعفهم كان نتيجة لتراجع القلم وتخلفهم في مجال العلم ففقدوا القوة التى سوف تحكم وتتحكّم في مصير الشعوب، فقال لهم محذرا ومنذرا:(١)

هذا الزمان تناديكم حوادثه ... يا دولة السيف كونى دولة القلمِ
فالسيف يهدم فجرا ما بني سَحَرًا ... وكل بنيان علمٍ غيرُ منهدمِ
وأصبح العلم ركن الآخذين به ... من لا يُقِم ركنه العرفان لم يُقَمِ

ويؤكد شوقى أن نبوغ العقل هو عملة نادرة:

إن الشجاعة في القلوب كثيرة ... ووجدت شجعان العقول قليلا

ولما لم يستجب الأتراك لنصح شوقى قال لهم:(٢)

هذا جناه عليكم آباؤكم ... صبراً وصفحا فالجناةُ كِرامُ
رفعوا علي السيف البناء فلم يَدُمْ ... ما للبناء علي السيوفِ دوامُ
أبقي الممالك ما المعارف أُسّه ... والعدل فيه حائطٌ ودعامُ
فإذا جري رشْداً ويُمنًا أمركم ... فامشوا بنور العلم فهو زمام

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٦٧ .
(٢) الشوقيات المجهولة ج٢ ٢٠١

ثم ينتقد الجيل الجديد من الأتراك الذى لا يُؤْمن إلا بالقوَّة، وينتقد معلمهم الذى لا يُوَجِه النشء إلى طريق العلم:

إني هتفت بكل يوم بسالة ... للترك لم يؤثر من الآساد(*)
فهززت نشئًا لا يُحرِّك للعُلا ... إلي بذكر وقائع الأمجاد
عصف المعلم في الصبا بذكائهم ... وأثار نار شبابهم لرماد

ولكن الأتراك لم يستجيبوا، ولم يعتمدوا إلا على السيف، فانهارت إمبراطوريتهم.

ويستمر شوقى فى تفضيل القَلم ولا يكل من التكرار وتتوالى قصائده التى تؤكد وترجح رأيه.

وتفضيل القلم على السيف حقيقة يؤيدها ذوو البصيرة الحادة والرؤيا الصحيحة، فلقد وعينا أنه إذا اجتمع النقيضان، براعة حَمْل السلاح وموهبة الكتابة باليراع في فرد واحد، تغلب فيه نبوغ القلم على تَفَوق السيف، فعنترة العبسى، وأبو فراس الحمدانى والمتنبى والبارودى وحافظ إبراهيم كانوا أربابا للسيف والقلم ولكن لم يمجدهم ولم يُخلد ذكرهم ما طعنت قناتهم أو ما ضرب سيفهم ولكن خلدّهم ما سطر قلمهم وما أبدع يراعهم.

(*) الشوقيات المجهولة ج١، ١٥٢ دكتور محمد صبرى مطبعة دار الكتب ١٩٦١ -١٩٦٢م.



الفكاهة فى شعر المتنبى

الفكاهة فى شعر المتنبى

الفكاهة ضرورة من ضرورات الحياة، لابد أن نعيش فيها أحيانا، فهى تُسرِّى عن نفوسنا وتجعل الحياة أكثر بهجة وأكثر جمالا. وكثيرٌ من الكتاب كتبوا قصصا ومواقف فكاهية، كما أن كثيرا من الشعراء من جميع الأجناس نظموا قصائد وأبيات من الشعر الفكاهى كانت ولا تزال تجذب القراء في أنحاء العالم. ولعّل الجاحظ كان من السابقين في هذا المجال، ففى كتابه "البخلاء" أمتعنا وأضحكنا بشخصياته من المقترين من الرجال والنساء، كما أن مسرحيات شكسبير بها كثير من الفكاهات. كان شكسبير يغوص فى أعماق النفس البشرية، ويُجَسِّدُها، وكأنها لوحة حَيَّة، فَعندما جَسَّد شخصيَّة المرابى اليهودى شَيْلُوك في مسرحية تاجر البندقية، استخدم الفكاهة والهزل حتى أضحك القراء فى أنحاء العالم على جشع اليهود، كما أضحكنا في وصف شخصية الجِنِّى "باك" في مسرحية حلم ليلة صَيْف.

وليست هذه الأعمال هدفها الضحك والهزل فحسب، ولكن بين سطورها نجد الحكم والعِبَرْ. ولا يُقَدِّم هذه الأعمال إلا ذوو المواهب وهم قلة مميَّزَة ولا يمكن أن يَقُوم بها غيرهم، والعوام يشعرون بهم ويقيّمونهم تقييما صحيحا فيقولون "فلان خفيف الظل أو ثقيل الظل" ولا يمكن لأحد أن يضع مقاييس لخفّة الظّل أو ثِقَله.

ويقول فولتير "لو لم تبق لنا ضحكاتنا لشنق الناس أنفسهم، فَوَيلٌ للفلاسفة الذين لا يبسطون بالضحك تجاعيدهم لأنّ العبوس في نظرى مرضٌ عضالٌ.

والشاعر الكبير ابن الرومى ٢٢١هـ - ٢٨٣هـ كان يتمتع بروح الفكاهة فعندما يصف رجل اسمه عيسى بالبخل يبالغ في السخرية منه:[١]

يُقتّر عيسى على نفسه ....وليس بباقٍ ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره .... تنفس من منخرٍ واحد!

ولقد كان المتنبى سابقاً فى مجال الفكاهة، فقد أضحك الناس بصوت مسموع لأكثر من ألف عام بقصائده فى كافور الأخشيدى.

ونحن لا نوافق الأستاذ على أدهم [١] فيما ذهب إليه "من ضعف ملكَة الفكاهة في المتنبى"، "وأن المتنبى لم يضحك سوَى مرة واحدة فى حياته وذلك حين مرّ برجلين قد قتلا جرذاً وأبرزاه يعجبان الناس من كبره فأضحك هذا المنظر شاعرنا الكبير وأثار حاسة الفكاهة الراقدة فى نفسه فنظم هذه الأبيات":

لقد أصبح الجُرذ المُستغير ... أسير المنايا صريع العطبْ
رماه الكنانُي والعامريْ ... وتلاّه للوجه فعل العرب
كلا الرجلين أتّلي قتَله ... فأيكما غلّ حَرّ السلب
وأيكما كان من خلفه .... فإنّ به عضّة في الذنب

وليس بخاف ما فى هذه الأبيات من فكاهة مستملحة وسخرية، وهو يصور الرجلين كفارسين فى ميدان قتال قاما بعمل بطولى، ادّعَى كلاهما شرف القيام به، وتتمخض البطولة فتلد فأرا - منتهى السخرية بكليهما.

والحقيقة أن المتنبى ضَحك كثيراً ولا يزال يُضحك سامعيه إلى الآن، وهذه مرة أخرى ضَحك فيها المتنبى عندما أرسل أحد الشعراء أبياتاً من المدح لسيف الدولة، وادّعى أنه رآها في النوم... فيقول له المتنبى:[٣]

(١) ديوان ابن الرومى ج١، ٤١٢ .
(٢) على هامش الأدب والنقد ٩٠ .
(٣) ديوان المتنبى ٣٤٩ .

قد سَمِعْنا ما قُلتَ في الأحلامِ ... وأنلناكَ بدرةً في المَنَامِ
وانتبهنا كما انتبهت بلا شَيْ ....ءٍ فكانَ النوّالُ قَدرَ الكلامِ
كنت فيما كتبته نائم العَيْـ .... نِ فهل كنتَ نائمَ الأقلامِ

كما لا نرى ما يراه الأستاذ أدهم من أن "هجاء المتنبى لكافور تَنْدُر فيه الفكاهة المستملحه"، وإذا كان المتنبى قد قصد تحقير وإهانة كافور ، إلا أن هذه القصائد أظهرت روح الدعابة وملكة الفكاهة عند المتنبى، والتى أضحكت الناس لأكثر من ألف عام كما ذكرنا .... من منّا لم يضحك بصوت مسموع عندما قرأ:(١)

وتعجبني رجلاك في النَعل إنّني ... رأيتك ذا نَعْلٍ وإن كنت حافيا
ويذكرني تخييط كَعبكَ شَقَّهُ .... ومَشيكَ فى ثَوْبٍ من الزّيت عاريا
فإن كُنتَ لا خيراً أفدتَ فأنّني ... أفدتُ بلحظي مِشْفَرَيكَ الملاهيا
ومثلك يُأتي من بلادٍ بَعيدةٍ ... ليضحك ربّاتِ الحدادِ البوَاكيا.

ولم يكن المتنبى مقتنعا بمدحه لكافور فجاءت قصائده أحيانا غامضة يُشْتَّم منها السخرية والفكاهة وليس المدح، يقول:

وما طربي لما رأيتك بِدعةً .... لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

وقال ابن جنّى "لما قرأت هذا البيت على المتنبى قلت له: جعلت الرجل أبا زَنّه (أيْ قرد)، فضحك المتنبى ولم يُجْب".

ومن أبيات المدح التى سخر بها المتنبى من كافور:(٢)

ومالك تُعْنَى بالأسنة والقنَا .... وجدّك طعّان بغير سنان

(١) ديوان المتنبى ٥٠٠ .
(٢) ديوان المتنبى ٤٧٧ .

فكيف يتّم طَعْن بدون رُمح، لا يتّم ذلك إلا بقرن حَيوان مثلا، فالمتنبى يرى أن جَدْ كافور كان كالحيوان يطعن بقرنه، فطالما كان المتنبى يُسَمى كافور الكركدن (وحيد القرن) وطالما يوجد قرن فلا داعى لحمل السيف!

ولم تحمل السيف الطويل نجاده ... وأنت غَنِيٌّ عنه بالحدثان

وكأنه يقصد "القرنان" بدلا من "الحدثان".

ومن يقرأ هذين البيتين لا يتمالك بأن يضحك بصوت مسموع!

وقد صرح المتنبى بصراحة فى إحدى قصائد ذَمْ كافور، بأنه كان يقصد السخرية وليس المدح:

وأسودُ مِشْفَرُه نصفُه ... يقال لَهُ أنت بَدْرُ الدجي

وشِعْر مَدَحتُ به الكركدنَّ ... بين القريض وبينَ الرُّقَي

فما كان ذلك مدحاً لَهُ ... ولكنه كان هَجْوَ الوَرَي

ولنترك كافور الإخشيدى، لنرى أن المتنبى لم يسخر بكافور فقط ولكنه كان يسخر بغيره في مواقف متعددة، وبصرفْ النظر عما بهذه القصائد من اعتداء من المتنبى على هؤلاء الناس، إلا أنّ ذلك لا ينفى أن المتنبى كان يتمتع بقدر كبير فى من ملكة الفكاهة - يقول فى "إسحق بن الأعور" وكانت بعينيه حركة عصبية:(١)

وجفونهُ ما تستقرّ كأنّها ... مطروفةٌ أوفُتّ فيها حصرمُ

وإذا أشار مُحدثاً فكأنهُ ... قِردٌ يقهقهُ أو عجوزٌ تلطمُ

ويسخر من رجل اسمه "ابن كيغلغ":(٢)

(١) ديوان المتنبى ٥٧١ .

(٢) ديوان المتنبى ٢٣٤ .

مـا زلـتُ أعـرفُهُ قِردا بـلا ذنـبٍ .... خِلْواً مـن الـبأسِ مَمـلُوءاً مـن الـنَزَقِ
تَسْـتغـرِقُ الـكَفُّ فَوديـه ومـنـكِبَهُ ... فـتـكْتَسِي مـنـهُ ريـحَ الجـوْرَبِ الـعـرَقِ

والبـيت الـثانى يبين أن ابـن كيـغلغ كـان صـغير الرأس، قَصـير الـعنـق فإذا صُفِعَ أحاطت الكف بهذه المواضع من بدنه فاكتست نَتَناً من خُبث ريحه.

ولا يمكن لأىّ من كان أن يسمع هذين البيتين ولا يستغرق فى الضحك.

الفكاهة فى شعر شوقى

كان شوقى يتمتع بروح من الدعابة الراقية، وكان يرى أن الفكاهة قد تكون أقوى تأثيرا وأكثر قدرة فى نشر المبادئ والأفكار..

. ونجد في قصائد شوقى ومسرحياته كثيرا من الشعر الفكاهى الذى لا يُضْحك القراء ولا يُسَرِّى عن الناس فحسب، ولكننا نجد بين هذه الأبيات العظات والعبر..

وشوقى بروحه المرحة كان يُداعب أصدقاءه والمقربين إليه بقصائد فكاهية، ولكنه لم يكن يرمى إلى إهانة أو إحراج أىٍّ من كان، وقد رأينا المتنبى فى شعر الفكاهة يتعالى على مَن حوله ويكيل لهم الإهانات...

وربما كانت الدعابات التى نظمها شوقى فى صديقه الدكتور محجوب ثابت خير مثل علي ذلك. ولقد كان الدكتور محجوب وطنيا شجاعا وكان على درجة عالية من الثقافة ولكنه كان غريب الأطوار، له عالم خاص يعيش فيه - وكانت له صفات خَفّيه لا يمكن وصفها أو التعبير عنها، فكان إذا تَكَلَّم ضحك الناس، وإذا غَضبَ ازدادوا ضحكاً، وإذا نَهَرهُم أمْعنوا فى الضحك. وكان شوقى يُحبّه، ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يداعبه. وكان الدكتور محجوب يغضب ويثور أحيانا، ولكن لا يلبث أن يبتسم... وكان شوقى يطلق عليه "ابن سينا" تَيَمُّناً بالطبيب العربى الشهير، كما كان يطلق على حصان الدكتور "مكسوينى" ويدلله "بمكسى"، ومكسوينى اسم سياسى أيرلندى مشهور انْتَحر جُوعا، ويقصد بذلك هزال الحصان لأن

الدكتور لا يطعمه! وكان الدكتور يركب هذا الحصان فى ثورة سنة ١٩١٩ ويطوف خلف المظاهرات لكى يُسعف الجرحى... يوجه شوقى حَديثه إلي الحصان:(١)

تفديك يا مكس الجيادُ الصلادم ... وتُفْدي الأساةُ النُطْس ما أنت خادمُ
كأنك إن حاربت، فوقك عنترُ ... وتحت (ابن سينا) أنت حين تسالم

ولم يلبث أن غدر الدكتور بمكسوينى واستبدله بسيارة عتيقة من طراز أوفرلاند: فيصفها شوقى:(٢)

وقــد تَحْرن أحــيــانــا ... وتمــشــي وحــدهــا تــاره!
ولا تُشْبِعــهــا عــينٌ ... مــن الــبــنــزيــن فوّاره
تــري الــشــارع فــي ذُعْرٍ ... إذا لاحــت مــن الحــاره!

ثم يتعاطف مع مكسوينى:

كــأن لــم تحــمــل الــرا .... يــة يــوم الــروع والــشــاره
ولا والــلــه مــا كلِّفــت ... (مــحــجــوبًا) ولا بــاره
فــلا الــبــرســيــم تُدْريــه .... ولا تــعــرف نــوّارَه

ثم يموت "مكسوينى" فينظم شوقى قصيدة رثاء للحصان ويعزّى الدكتور محجوب فيه، ويقول إنّ الحصان مات منتحرا لحزنه من إبداله بالسيارة(٣)

لمــا جــفــاك ابــن ســيــنــا ... وهــام بــالــســيــاره

(١) الشوقيات الصحيحة ج٤، ٢١٧ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج٤، ٢١٤ .
(٣) الشوقيات المجهولة ج٢، ١٩٢ .

تَفِرّ مـــنـــه وتجـــري ... كـــالـــنـــحـــلـــة الـــدّواره
حـــمـــلـــت مـــن ذاك غـــمّا   أذاب مـــنـــك المـــراره
حـــتـــي انـــتـــحـــرت جـــريـــئـــا   والانـــتـــحـــارُ جـــســـاره

ويسقط الدكتور محجوب في انتخاب سنة ١٩٢٤، فلا يتركه شوقى فى حاله:

أُعـزّيـك أبـا مـكـسـي .... وإن لـم تـبـتـئـس نـفـسـي[1]

وعندما هاجم الأستاذ سليمان فوزى الدكتور محجوب في مجلة الكشكول، غَضَب الدكتور غضبا شديدا - وكان لكليهما ذقنُ، طويلة - فنظم شوقى قصيدة هزلية على لسان الدكتور يهاجم فيها الأستاذ فوزى:

أيشتمني سليمان بن فوزي ... وبِيبِي في يَدي ومعي تَباقِ[2]
تُقاقي ذقنه من غير بَيضٍ ... ولي ذَقْنٌ تَبيضُ ولا تُقَاقي
ألا (طُزّ) على العيهور (طُزّ) ... وإن أبدي مجاملةَ الرفاق
نُحست فلو دُعيتِ لأجل فَتْقٍ ... وجَدْت (قَلَيطَة) تحت الفتَاق

وعندما زار شوقى الدكتور محجوب في عيادته، كتب قصيدة يصف العيادة بعدم النظام والنظافة... كما أنها تَعّج بالبراغيث:

براغيث محجوب لم أنسها ... ولم أنْس ما طعمت من دَمِي[3]
تشق خراطيمها جوربي ... وتنفذ فى اللحم والأعظمِ

---

(١) الشوقيات المجهولة ج٢، ١٩١ .
(٢) الشوقيات المجهولة ج٢، ٢٧٨ .
(٣) الشوقيات الصحيحة ج٤، ٢١٩ .

وتبصرها حول (بيبا) الرئيس ... وفى شاربيه وحول الفمِ
وبين حفائرِ أسنانه .... مع السوس فى طلب المطعم

ويثور الدكتور محجوب، ويكتب مقالا ناريا في هجاء شوقى ويرسله إلى جريدة الأهرام، ولكنه يعود ويتصل بالأهرام في المساء ويطلب من المسئولين عدم نشر المقال - لقد كان الدكتور محجوب رجلا طيب القلب نقّى السريرة.

ويكتب شوقي للأطفال شعرا رقيقا يناسب عمرهم، ويثريه بالحكم والمواعظ والتحريض على حُبْ العلم وحب الوطن، كما يُرفّه عنهم بقصائد فكاهية تضحك الصغار والكبار. فعندما يُعزّى الثّعلب أم الذئب الذى مات لانسداد حلقه من عظمة كان قد ابتلعها - تقول الأم:

ما بّي الغالي ولكن ... قولهُمْ مات بِعظمَهْ (١)
ليته مثل أخيه ... مات محسودا بتُخْمه

ولم يكن كل شعر شوقى الفكاهى هزلاً وترفيهاً، ولكن شوقى نظمه أحيانا لنقد أوضاع اجتماعية وسياسية. وربما يكون تأثير النقد الفكاهى أقوى من النقد التقليدى، فعندما كتب شوقى قَصيدة فكاهية ينتقد فيها جسر "بوسفور (الذى يربط أسيا بأوروبا) لوجود إهمال كبير فى صيانته حتى أصبح آيلا للسقوط ، اهتّم السلطان عبد الحميد بالقَصيدة وقرأها باهتمام كبير: (٢)

أمير المؤمنين رأيتُ جسرا ... أمر علي الصراط ولا عليه
له خَشَبٌ يجوع السوس فيه .... وتمضي الفأر لا تأوي إليه

(١) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١٨٦ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١١٠ .

ولا يتكلف المنشار فيه ... سوي مرِّ الفطيم بساعديه

وحتى في القصائد الفكاهية التى كتبها شوقى للأطفال، نجد في بعضها نقدا سياسياً أو اجتماعيا، وقصيدة الأسد ووزيره الحمار مثلا حياً لذلك، فقد مات الوزير، فاختار الأسد الحمار وزيرا له، فاضطربت الحياة فى الغابة بين الكبير والصغير:

قال الحمار وزيري ... قضي بهذا اختياري[1]
لم يشعر الليث إلا ... وملكه في دَمارِ
فجاءه القِرْدُ سرّاً ... وقال بعد إعتذار:
يا عاليَ الجاه فينا ... كن عاليّ الأنظار
رأى الرعيةِ فيكم ... من رأيكم في الحمار!

والقصيدة تُنبه الحاكم في أن يختار الرجل الكفء الذى يعمل تحت إمرته أما إذا اختار الحاكم رجلا جاهلا أو غبيّا أساء إلى نظام الحكم، فهؤلاء الجهله يهدمون بنية الدولة، ويُدَمرون صرح الأمة وهم أشَدُّ ضررا من الناهبين للأموال والمرتشين - ويقال إن شوقى كان يقصد بالوزير في هذه القصيدة رئيس وزراء مصر في حكم الملك فؤاد.

وينظم شوقى مسرحية فكاهية "الست هدى"[2] وهى سيدة ثرية، متصابية ومزواجة اتخذت من الرجال أُلعُوبة تلهو بها، ومفتاحا لشهواتها ووسيلة لمتاعها، فالرجل عندها هو "لعبة الست" كما يقول العوام. فلقد تزوجت الست هدى عشرة رجال! انفصلت عن بعضهم، فقد كانت العصمة فى يدها، ومات أغلبهم ولما شعرت بقرب نهايتها، تركت مصاغها لبنات جاراتها،

(١) الشوقيات الصحيحة ج٤، ١٤٧ .
(٢) مسرحية الست هدى.

وأوقفت المنزل وما فيه لبنت أول زوج لها، وأوقفت الأرض الزراعية لبيت الله وقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحَرَمت آخر زوج لها (السيدالعجيزى) من أى ميراث منها.

والست هدى كانت سيئة الحظ فلم تَنْجب أولادا، أما أزواجها (عدا الأول) فقد كانوا مجموعة من الأفّاقين الباحثين عن المال - ولكن الست هدى لم تُمكِّن أحدا منهم في أخذ شيء من ثروتها - وبالرغم من أن هذه المسرحية فكاهية إلا أن بها كثيراً من العبر ودروس الحياه:

يقولون فى أمريَ الكثيرُ وشغلهم ... حديث زواجي أو حديث طلاقي
يقولون إني قد تزوجت تِسعةً ... وإنّي واريت التراب رفاقي
وما أنا (عزريلٌ) وليس بمالهم ... تزوجت، ولكن كان ذاك بمالي
وتلك فداديني الثلاثون كلّما ... تولّي رجالٌ جِئْنَني برجالِ

فتجيبها جارتها:

أجل تعيشين وتدفنينا ... حتي تصيبي مِنهمُ البنينا

وتصف الست هدى أحد أزواجها:

يرحمه الله كان ذا بخرْ ... وكان إن يقعد وإن يُقم نَخَرْ
وإن مشي تخرج ... أصوات أُخَرْ!!

وتصف زوجاً ثانياً:

رحمة الله عليه كان لا يَحْقر مالا
كان إن أفلس لا ... يسألني إلا ريالا

وتصف زوجاً ثالثاً:

ما كان فى وجنتي يُقَبْلها   بـ همه في يدي يقبلها
وعينه فى خواتمي أبداً ... يُحدث النفس كيف ينشلها

ولما علم آخر أزواجها أنها أوقفت الأرض الزراعية قبل موتها لبيت الله وقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تترك له شيئا أصابته لوثة فقال:

قلبتني هُدي علي النار حيًا .. قلب الله جسمها فى الجحيم
يارب بيتك عنّي . . وعن نصيبي غَنيٌّ
وقل لقبرك يُرجْع ... لي ثروتي يا نَبيٌّ

وبالرغم من أن هذه المسرحية مظهرها فكاهى ولكنها في الحقيقة تَنْقد وضعها اجتماعيا فاسدا، عندما كان الخدم يُغْمرون بأموال سادتهم.

وما الست هدى إلا من الخدم، فقد حصلت على ثروتها هبه من السادة التي كانت تخْدمهم، فاتخذت من الرجال ألْعوبه تلهو بها.

وفى مسرحية مجنون ليلى، وضع شوقى شخصية بشْر، وهو إنسان كاذب يعيش في الوهم ويدّعى البطولة ويسطو على أعمال غيره الأدبية وغير الأدبية - وهذه الشخصية نرى مثلها فى كل المجتمعات وكل العصور، فصَوَّر شوقى بشراً فى صورة هزلية لإهانته وإهانة أمثاله.

وكان بشر قد ادّعى أنه قتل الذئب الذى افترس الغزال، والحقيقة أن قَيْسًا هو الذي قتل الذئب، ولم يكتف بِشْر بذلك، بل وصف الموقف بالشعر الذى سرقه من قيس:(*)

رأيت غزالا يرتعي وسط رَوضةٍ . فقلت أري ليلي تراءَتْ لنا ظُهرا
فما راعني إلا وذئب فد انتحي .. فاعلق فى أحشائه الناب والظفرا

(*) مسرحية مجنون ليلى. أحمد شوقى دار مصر للطباعة.

فَفوقْت سهمي فى كتوم غمستها ... فخالط سهمي مُهجةَ الذِئب والنحرا

فتتصدى له ليلى:

والله لم تغضب لِظبْيٍ ولم تثب ... بذئبٍ، ولم تُعمِل خيالا ولا فكرا
أخذت فلم تترك لقيسٍ بضاعةً ... سرقت لعمري الظبي والذئب والشعرا

وأصبحت عبارة "سرقت الظبى والذئب والشعِْرا" مثلا شائعا يُقَال فى أمثال بِشر

وفي مسرحية مصرع كليوباتره يضع شوقى شخصية زينون "أمين مكتبة الإسكندرية" وهو عالم كبير ولكنه لا يَخْلو من النفاق فيتصدّى له القَزَمُ (إنْشُو)مضحك القصر ... فعندما يُحَيِي زينون كليوباتره... يقول:(*)

أطـأطُئُ رأسـا لمجد الـنبـو ... غ وأخـفـض رأسا لمجد الجـمـال

فيعلّق أنشر:

أمـا يُغـنـيـه عـن رأسـيـــــــ .... ن رأس فـيـه وجـهـان
فـحـيـنـا هـو مـصـري ... وحـيـنـا هـو يـونـانـي

فالذى قاله إنشو بالفكاهة لنقد زينون، لا يمكن التعبير عنه بالقول التقليدى..

ويزيد إنشو من تطاوله على زينون:

وزدت علي الأرض علَم السماء ... كبارَ كواكبها والصغار
إذا مـا نَفَقْتَ ومـاتَ الحـمـار ... أبيـنـك فـرقٌ وبين الحـمـار

(*) مسرحية مصرع كليوباترا.

ويصير البيت الأخير مثلا يقال لمن يتعالي على الناس.

وفى مسرحية عنترة وضع شوقى شخصية عَبْلة الفتاة البدوية ذات الشخصية القوية، فهى لا ترضى إلا بعنترة زوجا لها لأنه فارس شجاع ولا تضع فى الاعتبار سواد لونه، وترفض صَخْراً الفتى المُدَلّل، بالرغم من أنه من أشراف العرب وأبيض اللون وجَميل الصورة.

لقد رَفَضَته لأنه كان جبانا ولم يستطع الدفاع عنها فوصفته فى صورة هزلية مضحكة:(*)

جميل وليس بحامي البيُوت .... ولا مانع من يدَ مالهُ
إذا ما عَوي الكلبُ ضَلَّ السلاح ... وبلّ من الخوف سروالهُ
يجود بزوجته للمغير ... ويرمي إلي الذئب إطفالهُ

ولو أن هذه الصورة فكاهية إلا أنها تحمل إهانة لا يمكن توجيهها بالشعر التقليدى.

(*) مسرحية عنترة.



الحكمة فى شعر المتنبي وشعر شوقي

الحكمة فى شعر المتنبى وشعر شوقى

يقول أحمد شوقى: "لا يزال الشعر عاطلا حتى تُزَيِّنه الحكمة ولا تزال الحكمة شاردة حتى يؤويها بيتٌ من الشعر".[١]

فبيت الشعر في القصيدة العربية مُحَصَّن بسياج قوى من القافية والوزن والموسيقي الشعرية، فلا يمكن أن يُخْتَرق. وتظل الحكمة مُصونة بداخله بلا تغيير ولا تبديل.

ألم يأو هذا البيت للمتنبى حكمة يرددها الناس لأكثر من ألف عام بلا تبديل ولا تغيير:[٢]

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذي ... حتي يراق علي جوانبه الدمُ

وسيظل يرددها الناس لشحذ الهمم وإثارة الحمية لرد الشرف، وقد رددها المصريون والعرب فى معركة العبور سنة ١٩٧٣ .

لقد كانت الحكمة تنساب من شعر المتنبى، ففى قصائد المدح والوصف وحتى في الهجاء، نجد أبياتا من الحكمة يُثْرى بها المتنبى قصائده.

وربّما كان المتنبى يرى أنّه لا يصح أن يُقْصر قصيدته على مدح إنسان مهما بلغ شأنه، أو لهجاء إنسان مهما نقص مقداره. كان المتنبى يستعرض قدرته البلاغية ومقدرته الشعرية فى وضع الحِكَمْ في مكانها المناسب، وربّما كان يرى أنّ وجود أبيات الحكمة يُخَلّد هذه القصائد.

(١) أسواق الذهب،١٣٤ . أحمد شوقى مكتبة مصر القاهرة ١٩٩٣م.

١) ديوان المتنبى ٥٧١ .

حِكَم المتنبى وحِكَم شوقى فى الحياة الدنيا

كان المتنبى متشائما وكان ينظر إلي الدنيا. بمنظارٍ أسود ويرى أن لا أمان لها:

أظمتني الدنيا فلما جئتُها ... مستسقيا مَطَرَت عليّ مصائبا

ومن صحب الدنيا طويلا تقلّبَتْ ... علي عينيه حتي يري صِدقها كذبا

أبني أبينا نحن أهلُ منازل .... أبدا غرابُ البين فيها ينعق

نبكي علي الدنيا وما من معشرٍ .... جمعتهموا الدنيا ولمن يتفرقوا

والموت آتٍ والنفوس نفائسٌ ... والمستعز بما لديه الأحمق

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا .. وأعْيَا دواء الموتِ كلُّ طبيبِ

أبدا تسترد ما تهب الدنيا ... فياليت جُودها كان بُخْلا

ويستمر المتنبى في عدم ثقته بالدنيا:

نُعَد المشرفية والعَوالي ... وتقتلنا المنونُ بلا قتالِ

كأن الموت لم يفجع بنفسٍ ... ولم يَخطر لمخلوق ببالِ

يُدَفن بعضنا بعضا وتمشي ... أواخرنا علي هام الأوالي

وقد أخذ المعرى المعنى من البيت الأخير وصاغه في بيتيه الشهيرين:

رُبَّ لَحْدٍ قد صار لحداً مرارا ... ضاحكٍ من تزاحم الاضداد
سر في الهواء ما استعطت رُويدا ... لا اختيالا علي رفات العباد.

والسبق في هذه الحكمة للمتنبى، وقد نقلها المعرى ولكن لم يستطع نظمها إلا فى بيتين، مما يبين عبقرية المتنبى.

ولكن المتنبى لا يلبث أن يخرج عن الإيمان فى قوله:

تبخل أيدينا بأرواحنا ... علي زمان هي من كَسْبه
فهذه الأرواح من جوّه وهذه الأجسام من تربه

فهو يرى أن الحياة تُبْعث من الطبيعة، ويقول الأستاذ على أدهم "أن المتنبى قد صَرّح بالرأى المادى تصريحا لا يحتمل تأويلا."(١)

ويصف المتنبى تناقضات الحياة بأبلغ ما قاله فى الحكمة:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها ... مصائب قومٍ عند قوم فوائد

وشوقى كالمتنبى لا يطمئن إلى صروف الدنيا وتقلبات الزمن وربما كان هذا التشاؤم فى كليهما نتيجة لما تحملاه من قسوة السجن، أو ألم المنفى يقول شوقى:(٢)

ولا ينبيك عن خُلق الليالي ... كمن فقد الأحبة والصحابا
أخا الدنيا أري دنياك أفعي ... تُقَلّبُ كل آونة إهابا
من يَغْتَرُّ بالدنيا فإنّي ... لبِسْتُ بها فأبليت الثيابا

---

(١) المتنبي حياته وشعره ٩٢ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٧٠ .

يا نفس دنياك تخفي كل مبكيةٍ ... وإن بَداَ لك منها حسن مُبتسم[١]

فضّي بتقواك فاها كلّما ضحكت ... كما يُفضُّ أذي القرشاء بالثرمِ

فشوقى يتمادى فى مهاجمته لغدر الدنيا ، فشبهها بأفعى سامة تَدّعى أنها تضحك، وينصح بخلع أسنانها لتجنب أذاها ، وهذا التشبيه قمّة فى البلاغة.

ويخاطب الشمس ويتهمها بالغدر بأبنائها :[٢]

مشيت علي الشباب شُواظَ نارٍ ... ودُرْت علي المشيبِ رحي طُحونا

فيالك هِرّةً أكلت بَنِيها ... وما ولدوا وتنتظر الجنينا

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٣١ .

(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٣١٣ .

حكم المتنبى وحكم شوقى فى سلوك الناس

والمتنبى كان لا يرتاح إلي الناس ويرى فى أغلبهم الغدر وعدم الوفاء، وأنهم تافهون سواء أكانوا من عامة الناس أو من ملوكهم، وربما يكون رأيه هذا هو امتداد لرأيه فى نظرته القاتمة إلى الدنيا:

ودهرٌ نَاسهُ نـاسٌ صِغـارُ ... وإن كـانـت لـهـم جـثـث ضـخـام
أرانـبُ غـيـر أنـهـم مـلـوكٌ ... مُفـتَّحـة عـيـونـهـم نِيـام
وشبـه الـشـيء منجـذبٌ إليـه ... وأشبـهـنا بـدنيـانـا الطـغـامُ

وينطلق المتنبى في أبيات من الحكمة يفلسف فيها أفعال الناس وسلوكهم في الحياة:...

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تَمَرَّدَا

وإذا أتتك مذ متي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأنِّي كامل

وجرم جرّه سفهاءُ قوم ... فحل بغير جانبه العقاب!

لا يخدعنك من عدوٍ دَمْعه ... وارحم شبابك من عَدُوٍ ترحم

ويشك فى نوايا الناس فلا عهد لهم ولا وفاء:

ولما صـار وُدّ الـنـاس خَبـاً ... جُزيـت عـلـي ابـتـسـام بـابـتـسـام
وصـرت أشـك فيـمـن أصـطـفيـه .. لـعـلـمـي أنـه بعض الأنـام

ثم يقول إن الخسيس مطبوع على أذى الكريم:

يُؤذي القليلُ من اللئام بطبعه ... من لا يقلّ كما يقِلّ ويلْؤمُ

ثم يتمادى في عدم الثقة بكل البشر فهم ظالمون والظلم ينْبع من نفوسهم:

والظلم من شيم النفوس فإن تَجدْ ... ذا عفةٍ فلعلةٍ لا يظلم!

وإذا وجدت من لا يظلم فلعلةٍ طارئة ثم لا يلبث أن يعود فيظلم!

ويرى المتنبى أن الحسد والحقد من أسوأ صفات البشر:

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا ... لمن بات فى نعمائه يتقلب

ويقترب فكر شوقى من فكر المتنبى فى سلوك البشر، و يصفهم باللؤم والغدر ولكنه لا يحتقرهم ولا يتعالى عليهم كما يفعل المتنبى، يقول شوقى:

لؤم الحياة مشي في الناس قاطبةً ... كما مشي آدمٌ فيها وحوَّاءُ[١]

فشوقى فى هذا البيت يلوم سيدنا آدم وحواء الذين تسببا في خروج البشر من الجنّة، ألا يذكرنا هذا البيت ببيت المتنبى:[٢]

أبوكم آدم سنّ المعاصِي ... وعلّمكُمْ مفارقةَ الجِنَانَ

وينتقد شوقى سلوك البشر:

وليس للفاضل في نفسه ... من ينكر الفضل علي ربّه[٣]

ويرفض شوقى الحقد والحسد كما رفضه المتنبى:

وإن للمجد آفات إذا جُمعت ... وجدتهّن اثنتين الحقد والغضبا[٤]

(١) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٨ .

(٢) ديوان المتنبى ٥٤١ .

(٣) الشوقيات الصحيحة ج١، ٧٦ .

(٤) الشوقيات الصحيحة ج١، ٧٩ .

إذا رأيت الهوي فى أمةٍ حكما   فاحكم هنالك أن العقل قد ذهبا

وشوقى كالمتنبى لا يثق بالناس ويخشى أذاهم :

والفرد يؤمن شره فى قبره ... كالسيف نام لشر خلف قرابه[١]

ألا يـــارُبَّ خَدّاعٍ ... مـــن الـــنـــاس تـــلاقـــيـــه[٢]

يـعـيـب الـسـم فـي الأفـعـي ... وكـل الـسـم مِنْ فـيـه

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٨٩ .

(٢) مصرع كليوباتره ٥٩ .

المـــال

لاشك أن المال هو ضرورة من ضرورات الحياة، وهو قوة في يد الإنسان تحميه من غوائل الزمن ونوائب الدهر، ولكن إذا أستعمل المال في قَهر الإنسان أو فى ظلم البشر، أصبح سلاحا مدمّرا للحياة وللقيم الأخلاقية.

والمفكرون والشعراء وهم أكثر الناس حساسية وشفافية، يهاجمون المال ويقصدون فى ذلك المال الذى يستخدمه صاحبه في الشر والأذى، ويصوغون أفكارهم في أبلغ أبيات من الحكمة:

يقول المتنبى:[١]

ومن يُنفقِ السّاعاتِ فى جمع مالهِ ... مخافة فَقْرٍ فالذي فعل الفقرُ

ولكن المتنبى لا يلبث أن يرى أن المال هو عصب الحياة وقوتها وربما كان تقديره للمال وخضوعه لسطوته، جاء نتيجة لفقر أسرته واحتياجه للمال لكى يتمتع بالحياة. وينطلق المتنبى يَنْظم الحِكَم لترجيح رأيه.[٢]

فلا يَتحللْ فى المجد مالكَ كُله ... فينحَل مجد كان بالمال عقده

ودبره تدبير المجّد كفه .... إذا حارب الأعداء، والمال زنده

ويبين خضوعه لسطوة المال:

فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ... ولا مال فى الدنيا لمن قَلَّ مجده

ويرى المتنبى أن إنفاق المال ضرورة للمعيشة الكريمة:[٣]

---

(١) ديوان المتنبى ١٨٩ . (٢) ديوان المتنبى ٤٥٤ .

(٣) ديوان المتنبى ٤٩٠ .

كأن نفسك لا ترضاك صاحبها   إلا وأنت علي المفْضالِ مفضالُ
ولا تعدك صوّانا لمهجتها   إلا وأنت لها في الروْع بذّالُ

ولكنه يكرر حرصه على المال ويرى ألا يتمادى الإنسان في الإنفاق:

لولا المشقةُ ساد الناس كلُّهُمُ   الجود يُفْقر والإقدام قتّالُ

ولكن المتنبي الذى كان يري نفسه من نفوس الملوك لا يلبث أن يترَفَّع على المال، فحتى إذا طلبه يطلبه بترفع:

إذا نلت منك الودَّ فالمال هيّن ... وكل الذي فوق التراب تُرابُ

أما شوقى فهو يرفض المال الذى يستعبد البشر

فيقول[١] يامالُ: الدُنيا أنتْ، والناس حيثُ كنت، سحْرت القرون وسَخْرت من قارون، وسعْرتَ النار يا نيرون، تَعَوَّد الحقد أن يحالفك، وأبى الحسدُ أن يخُالفَك، وكُتب على الشر أن يخالطك ويؤالفك. الفتنه إن حركتها إتّقَدت، وإن تركتها رَقَدت، والحرب هى الحرب، تبعثها ذات لَهَب منك الريّاحَ ومنك الحطب، تُزرى بالكرام وتُغرى بالحَرام، وتضرى بالإجرام. فُقدانك العُرُّ والضُّر، ونكدُّ الدنيا على الحُرْ.

ويرفض شوقى أن يكون الإنسان عبداً للمال. فيكنزه ولا ينفقه فى سبيل الله.

ولم أر مثل جمع المال داءً .. ولا مثل البخيل به مصابا[٢]
وأن البّر خير في حياةٍ   وأبقي بعد صاحبه ثوابا

(١) أسواق الذهب ٧٢ . أحمد شوقى مكتبة القاهرة ١٩٩٣م

(٢) الشوقيات الصحيحة ج١. ٧ دكتور مصطفى الرفاعى منشأة المعارف بالإسكندرية ٢م.

وأن الـشـر يـصـدُع فـاعـلـيـه ... ولـم أر خـيّرا بـالـشـر آبـا
ومن يعدل بحب اللّه شيئا ... كحب المال ضلّ هوي وخابا

والمال مُذْ كان تمثالٌ يطاف به ... والناس مذ خلقوا عبّادُ تمثال

ولكن شوقى يرى أن المال قوة وهو ضرورة لبناء الحياة إذا أحسن استخدامه:(١)

ياطالبا لمعالي الملك مجتهداً ... خُذها من العلم أو خُذْها من المالِ
بالعلم والمال يبني الناس ملكهمو ... لم يبن ملكٌ علي جهل وإقلال

وينصح شوقى كما نصح المتنبى بأن يَدَّخر الإنسان المال ليوم يحتاج فيه إليه.(٢)

واجـمـعـواْ الـمـال لـيـوم ... فـيـه تـلـقـون اعـتـصـابـا

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٢٣ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٩٥ .

العـزة والشجاعـة والإقـدام

كان المتنبى، فضلا عن ريادته الشعرية، فارسا شجاعا ومقاتلا قوياً، ناضل بقلمه وحارب بسيفه للدفاع عن أمته العربية، فهو رب للسيف والقلم كما يقولون. والمتنبى عَلَمٌ شامخ من الرعيل العظيم من الشعراء الفرسان الذين أثروا الأدب العربى بقصائد البطولة وحب الاستشهاد في سبيل العزة والكرامة، كعنترة العبسى، وأعشى قيس من العصر الجاهلى، والبارودى وحافظ إبراهيم من العصر الحديث. كانت قصائد المتنبى في وصف المعارك صورة حية للأدب القومى الذى يذكرنا بمعارك هوميروس فى الإلياذة، وقد أثرى المتنبى هذه القصائد بأبلغ ما قاله فى الحكمة، يقول:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذي ... حتي يراق علي جوانبه الدم

ألا يعبّر هذا البيت عن عبور قواتنا المسلحة فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ وانتصارنا على إسرائيل ومَحْونا العار، فسلم شرفنا وكان الثمن غاليا وهو الدم المراق. هل كان سيسلم الشرف إذا خرج اليهود بلا قتال؟

ويقول:(١)

غير أن الفتي يلاقي المنايا ... كالحات ولا يلاقي الهوانا
ولو أن الحياة تبقي لحي ... لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بدٌ ... فمن العجز أن تكون جبانا
فطعم الموت فى أمرٍ حقير ... كطعم الموت فى أمرٍ عظيمِ(٢)

(١) ديوان المتنبى ٤٧٤ .

(٢) ديوان المتنبى ٢٣٢ .

من أطاق التماس شيء غلابا ... واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

ألا تُحَفِّز هذه الأبيات الشباب فى وقتنا الحاضر على القتال والاستشهاد فى سبيل الوطن...

وكما دعا المتنبى إلى الشجاعة والإقدام، دعا إلي رفض المذلة:(١)

ذلّ من يغبط الذليل بعيش ... رُبّ عيش أخفُّ منه الحِمَامُ

ويرفض الجبن ويسخر من الجبان والجبناء:(٢)

وإذا ما خلا الجبانُ بأرضٍ ... طلب الطّعْنَ وحدَه والنزالا

يري الجبناءُ أن العجزَ عقلٌ ... وتلك خديعةُ الطّبعِ اللّئيمِ(٣)

وإذا تمعّنا في هذه الأبيات رأينا أن المتنبى كان في حالة قهر نفسى، لتفكك الدولة العربية فيدعو الشباب إلي الجهاد والكفاح لاسترداد الحقوق العربية التى سلبها الموالى الفرس والأتراك وسيطروا على الحكم واستبعدوا العنصر العربي. كما كان يدعو إلي الجهاد ضد الروم الذين كانوا يهاجمون الأمة العربية.

ألا يذكرنا حال الدول العربية فى القرن الرابع الهجرى بحالها فى عصر شوقى وبحالها الآن.!

وكما ذكرنا من قبل فإن عصر شوقى يكاد يكون صورة مكررة لعصر المتنبى، فقد سقطت الدول العربية في مخالب الاستعمار وسقطت الخلافة

(١) ديوان المتنبى ١٦٤ .
(٢) ديوان المتنبى ٤١١ .
(٣) ديوان المتنبى ٢٣٢ .

الإسلامية في تركيا... فانطلق شوقي يدعو الشعوب العربية إلى الجهاد والكفاح لطرد الغاصبين وتحرير الأرض، واسترداد الكرامة العربية.

يقول الدكتور حسين هيكل "لم يُعَبر أحد عن هذه المعانى بمثل ما عبّر عنه المتنبى من قوة" ونحن نختلف مع الدكتور هيكل فى ذلك، فلقد عبّر شوقى عن هذه المعانى بمثل ما عبّر عنه المتنبى وبكل قوة.

ربما يكون تعبير شوقى أقل حِدّة من تعبير المتنبى، فالمتنبى كان مقاتلا، وكان يعتبْر أن السيف هو صاحب المرتبة الأولى فى الحياة، ولكن شوقى كان يؤمن بتفوق القلم على السيف، ولكنه لم يرفض السيف، ودعا إليه للدفاع عن الوطن وعن العقيدة ولتحرير الشعوب. ويقول في قصيدة نكبه دمشق محّرضا السوريين على استمرار الثورة ضد فرنسا:

وللأوطان فى دم كلّ حرّ ... يدٌ سَلَفَتْ ودينٌ مستحق[١]
دم الثوار تعرفه فرنسا ... وتعلم أنه نورٌ وحقّ
وحُرِّرَت الشعوب علي قناها ... فكيف علي قناها تُستَرَقّ!

وكان الجيش الفرنسى قد قصف دمشق بالمدافع فدمّر كثيرا من معالم دمشق وقتل كثيراً من أبنائها، فيتألم شَوْقى ويثور، ويحّرض على القتال وبذل الدماء ولا ينسى وهو في هذه الثورة أن يُذكر فرنسا بدم ثوارها الذى سال من أجل أرضها (فى الثورة الفرنسية وفى الحرب العالمية سنة ١٩١٤)، فيحرج الفرنسيين لخروجهم عن مبادئهم، وكأنه يقول لهم هل هذه هى فرنسا بلد الحرية! وتنطلق أبيات الحكمة في ملحمة من أعظم ملاحم أدب القتال:

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٧٥ .

بلاد مات فتيتها لتحيا ... وزالوا دون قومهم ليبقوا

ومن يَسْقِي ويشرب بالمنايا ... إذا الأحرار لم يُسْقوا ويسْقوا

ففي القتلي لأجيال حياةٌ   وفي الأسري فِدًي لهمُو وعِتْقُ

ثم يطلق بيته الخالد:

وللحرية الحمراء بابٌ ... بكل يدً مضرجة يُدَقُّ

وفي مصر يُحَرِّضُ شوقى على الثورة ضد الإنجليز، لم ترهبه قوى الاحتلال ولا سلطان العرش ولا قسوة المنفى الذى كان قريب العودة منه والموسيقى الشعرية في هذه القصيدة كأنها دقات طبول القتال:

فى مهرجان الحق أو يوم الدمِ ... مهجٌ من الشهداء لم تتكلم[1]

لابدَّ للحرية الحمراء من ... سَلوي تُرَقِّد جرحَها كالبلسم

يومَ النضال كستك لونَ جمالها ... حريةٌ صبغت أديمك بالدم

وتتدفق أبيات الحكمة فى قصيدة أخرى وكأنها سيل منهمر:[2]

وكم قد أتاك بمجموعةٍ ... من الباطل الحقُّ عنوانها

ودعوي القوّي كدعوي السباع ... من الناب والظفر عنوانها

وتنطلق شجاعة شوقى فيحرض بلا مواربة على الثورة المسلحة (خذوا المُدَى) ويدعو إلي هدم النظام كله (الهدم أجمل): [3]

يا فتية النيل السعيد خذوا المُدَي ... واستأنفوا نفس الجهاد مَدِيداَ

الهدم أجمل من بِنايةِ مُصلح ... يَبني علي الأسس العتاق جديدا

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١٨٦ .

(٢) الشوقيات الصحيحة ج١ ٣١٢ .

(٣) الشوقيات الصحيحة ج١، ١٣٣ .

ولم تقتصر ثورة شوقى على طرد الاستعمار من الوطن العربى فحسب، ولكنها امتدت إلي المطالبة بحق الشعوب فى ممارسة الحياة الدستورية، وشوقى الذى تعلّم وتثقف في أوروبا كان يرى أن الأمم لا ترقى إلا إذا كانت الشعوب هى مصدر السلطات. فالدستور الحرّ هو طريق العزة والكرامة للأمم وهو عنوان رُقيّها وكرامتها - فهو يحفظ حقوق الشعب لدى الحاكم ويحمى الحاكم من نفسه ومن شهوات الحكم، فالشعب يحاسبه إذا أخطأ أو تقاعس أو فرّط في حقوق الناس أو فى حقوق الوطن - فعندما عَطّل الملك فؤاد الدستور هاجمه شوقى:

هو هيكلُ الحرية القاني له .. ما للهياكلِ من فِدّيً وأضاحِ[1]
ينهار الاستبداد حولَ عِراصِه ... مِثْل انهيار الشرك حول (صلاح)

وفي البيت الثانى رفع شوقى الدستور إلى مرتبة التقديس فيقول: إن الاستبداد سوف ينهار حوله كما انهار الشرك حول مكة المكرمة (صلاح) وتستمر أبيات الحكمة:

وجواهر التيجان ما لم تتخذ ... من معدن الدستور غير صحاح

ثم يحرض شوقى الشعب على الثورة ويحقرّه إذا لم يثر!:

صوت الشعوب من الزئير مُجَمّعاً ... فإذا تفرق كان بعض نباح

وكما حَقّر المتنبى الجبان، حقّره شوقى فى قصيدته "ذكرى استقلال سوريا":[2]

دعوا فى الناس مفتونا جبانا ... يقول الحرب قد كانت وبالا
وكونوا حائطا لا صدع فيه ... وصفًا لا يُرقّع بالكسالي

وهى حكمه بليغة كنا ولا زلنا نحتاج إليها.

(١) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١٥٢ . (٢) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٢٨ .

المتنبى يتفوق على نفسه

من المعلوم فى الشعر العربى أنّ الشاعر الذى يضع الحكمة التى يقصدها فى بيت واحد من الشعر اعتبر ذلك براعة في النظم وبلاغة فى الصياغة، والأمثلة على ذلك نجدها فى نظم كبار الشعراء القدامى.

يقول زهير بن أبى سلمى:

ومهما تكن عند امرئ من خَليقةٍ ... وإن خالها تخفي علي الناسِ تُعْلَمِ

ويقول أبو تمام:

ولو كانت الأقسام تجري علي الحجي... هَلَكْن إذا من جَهْلِهّن البهائمُ

ويقول الإمام الشافعى:

ضاقت فلمّا استحكمت حَلَقاتُهَا ... فُرِجَتْ وكنت أظنّها لا تُفْرَجُ

والمتنبى كان مُتَفوقاً فى هذا المجال، فلم يقف عند هذا الحد، ولكنه يتفوق على نفسه فيضع الحكمة في نصف بيتٍ من الشعر، وقد تنبّه الثعالبى[١] لذلك، والأمثلة على ذلك كثيرة في شعر المتنبى:[٢]

مصائب قوم عند قوم فوائدُ

إن العظيم علي العظيم صبور

ومن قصد البحر استَقَلّ السواقيا

هيهات تكتم في الظلام مشاعل

(١) الثعالبى ناقد أدبى من القرن الرابع الهجرى «عصر المتنبى»

(٢) أبو الطيب المتنبى شعراء العرب والإسلام ٧٨ .

والجـــوع يُرضـــي الأســـود بـــالجِيَف
وفـــي عُنقِ الحســـنـــاءِ يُسْتَحـــسن الـــعِقْدُ
أنـــا الـــغـــريـــق فـــمـــا خـــوفـــي مـــن الـــبـــلـــل
فـــي طـــلـــعـــة الـــشـــمـــسِ مـــا يـــغـــنـــيـــكَ عـــن زُحـــل
إنّ الـــقـــلـــيـــل مـــن الحـــبـــيـــب كـــثـــيـــر.
فـــإن الـــرفـــق بـــالجـــانـــي عِتـــابُ.

ويقول الثعالبى: ولا تقف بلاغة المتنبى إلى هذا الحد، ولكن بقدرته البلاغية يضع فى البيت الواحد حكمتين كقوله:

وكـــل امـــرئ يـــولـــي الجـــمـــيـــل مـــحـــبـــبٌ
وكـــل مـــكـــان يُنْبِتُ الـــعـــزّ طـــيـــبُ

ذَلّ مـــن يـــغـــبـــط الـــذلـــيـــل بِعَيْش
رُبّ عـــيـــش أخـــفّ مـــنـــه الحِمَامُ

مـــن يَهُنْ يـــســـهـــل الـــهـــوان عـــلـــيـــه
مـــا لجُرحٍ بمـــيّتٍ إيـــلامُ

إذا أنـــت أكـــرمـــت الـــكـــريم مـــلـــكـــتـــه
وإن أنـــت أكـــرمـــت الـــلـــئـــيـــم تمـــرّدا

مـــا كـــل مـــا يـــتـــمـــنـــي المـــرء يـــدركـــه
تـــأتـــي الـــريـــاح بمـــا لا تـــشـــتـــهـــي الـــســـفـــنُ

ذو العقل يشفي في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاوةِ ينْعَمُ
أعزّ مكان فى الدنا سرج سابح ... وخيرجليس في الزمان كتاب
لعل عتبك محمودٌ عواقبُه ... فربما صَحّتْ الأجسام بالعلل

وهذا البيت يذكرنا بحكمة أبونواس:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ... وداوني بالتي كانت هى الداء

أما شوقى فقد تفوق أيضا في هذا المجال بما يؤكد قُدرته البلاغية، ونبوغه فى نظم الشعر:

فيضع الحكمة في نصف البيت كقوله:

وأخـــفُّ مـــن بـــعـــض الـــدواء الـــداء

والداء هو الفقر، والدواء هى الشيوعية التي يراها شوقى أسوأ من الفقر.

وإن الـــبّر خـــيـــرٌ فـــى حـــيـــاة.

ولـــن تـــري كـــجـــنـــود الـــعـــلـــم إخـــوانـــا.

إن المـــصـــائـــب يـــجـــمـــعـــهـــن المـــصـــابـــيـــنـــا.

ولـــكـــن كـــلـــنـــا فـــى الـــهّم شـــرق.

فـــإن الـــيـــأس يـــخـــتـــرم الـــشـــبـــابـــا.

يــادولــة الــســيــف كــونــي دولــة الــقــلــم.

كــفــي بــالمــوت مــعــتــصــمــا حــصــيــنــا.

إن حــكـــم الـــفـــرد مـــرذول لـــعـــيـن.

وكما تفوق المتنبى على نفسه يتفوق شوقى على نفسه، ويضع فى البيت الواحد حكمتين كقوله:

فاعمل لنفسك بعد موتك ذكرها .... فالذكر للإنسان عمر ثان

والشر إن تلقهُ بالخير ضقت به ... ذرْعاً وإن تلقهُ بالشّرِ ينْحَسِمُ

إن الشجاع هو الجبان عن الأذي ... وأري الجرئ على الشرور جبانا

فالسيف يهدم فجراً ما بَنَي سَحَراً ... وكلّ بُنيانُ علم غيرُ مُنْهَدِمِ

واصبح العلم ركن الآخذين به ... من لا يُقَم ركنهُ العرفانُ لم يُقَم

والمال مُذْ كان تمثال يطاف ... والناس مُذ خُلقوا عُبّاد تمثال

بالعلم تمتلك الدنيا ونَضْرتها ... ولا نصيبٌ من الدنيا لجُهّال

بالعلمِ والمال يبني الناس ملكهمو ... لم يبن مُلكٌ علي جهل وإقلال

إن الشجاعة فى القلوب كثيرةٌ ... ورأيت شُجعان العقول قليلا

لا يَقْرُبُ اليأس فى البأساء أنفسهم ... والنفس إن قنطت فاليأس مُرديها

وخذوا بناء الملك من دستوركم ... إن الشراع مُثقّفُ الملاّحِ

ومـع المجـدد بـالأنـاة سـلامـةٌ ... ومـع المجـدد بـالجـمـاحِ عـثـارُ

ثم يتفوق شوقى على التفوق فيضع فى بيت واحد **ثلاث حكم:**

البـغي في ديـن الجـميـع دَنِيَةٌ ... والـسلـمُ عـهـدٌ، والقـتـال زِمَامُ

وهذا البيت من قصيدة "الأندلس الجديدة"، وكان البلغار قد احتلوا مدينة أدرنة" التي كانت من أمّهات المدن العثمانية في مقدونيا، فاعتدوا على أعراض العذراى وقتلوا النساء والشيوخ والأطفال:

بدأ شوقى قصيدته:

يا أخت أندلسٍ عليك سلامٌ ... هوت الخلافة عنكِ والإسلام

فشوقى يشبّه ما حدث في أدرنه، بكارثة هزيمة العرب فى الأندلس. وشوقى كان يرفض الظلم والعدوان على المدنيين مهما اختلفت أجناسهم أو دياناتهم، فيقول :

البَغي في دينِ الجميع دنيةٌ ... والسلمُ عهدٌ والقتال زمامُ(١)

فيقول فى هذا البيت إن العدوان على البشر من أجل دينهم دنيّة وحقارةٌ، وأن السلم عهد بين المتحاربين لابد من احترامه، أما القتال فهو قيادة ومبادرة.

فشوقى يحترم كل الأديان السماوية، ويرى أن يعيش الناس فى وئام وسلام، أليس هو القائل:

الـديـن لـلـدّيـان جـل جـلالـه ... لـو شـاء رّبـك وحّد الأقـوامـا

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٧٦ .

وفى فلسفة الحياة والموت، يضع شوقى **ثلاث حكم** في البيت الواحد:

وحرصٌ علي الدنيا وميلٌ مع الهوي ... وغشٌ وإفكٌ فى الحياةِ وزور(١)

وهذا البيت من قصيدة شوقى التى نظمها فى رثاء "تولستوى" وهو الفيلسوف الروسى الشهيرالذى كان صادقا عاملا بما يقول، فتخلّى عن ماله الجّم ليساوى نفسه بالفقراء، وقد توفىَ سنة ١٩١٠ وهو شيخٌ كبير. ويوجه شوقى حديثه إلى تولستوى فيقول في هذا البيت أن الناس يحرصون على الدنيا، ويميلون مع الضلال، ولا يلتزمون بالصدق ويعيشون فى غش وإفْك ... وقد سبقه ببيت يخاطب فيه تولستوى

قم انظرْ وأنت المالي الأرضَ حكمةً ... أأجدي نظيمٌ أم أفادَ نثيرُ

وفى القصيدة التى نظمها شوقى بمناسبة مرور مائة عام على وفاة فيكتور هيجو شاعر فرنسا الكبير ... يبدأ شوقى القصيدة:

ما جلَّ فيهم عيدُك المأثورُ إلا وأنت أجلُّ يا فيكتور(٢)

الحالُ باقيةٌ كما صورتها ... من عهد آدمَ ما بها تغيير

ثم يثرى القصيدة بأبيات الحكمة، ومنها هذا البيت وبه ثلاث حكم:

والعيش آمال تَجِدُّ وتَنْقَضِي ... والموت أصدقٌ، والحياةُ غُرور(٣)

وفي القصيدة التي نظمها شوقى فى رثاء الزعيم محمد فريد، بدأها شوقى ببيت من الحكمة:

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج٣، ٨٨ .

(٢) الشوقيات الصحيحة ج٣، ٧٩ .

(٣) الشوقيات الصحيحةج٣،٧٩ .

كلُّ حَي علي المنية غادي ... تتوالي الركاب والموت حادي

ثم يثريها بأبيات من الحكمة...

هل رجعتُنَّ فى الحياة لفهمٍ ... إن فَهْمَ الأمور نِصفُ السَّدادِ

ثم يصف الحياة وصروفها في بيت به **ثلاث حكم:**

سقمٌ من سلامةٍ، وعزاءٌ ... من هناءٍ، وفُرقةٌ من ودادِ[١]

ثم يزداد شوقى صعودا فى سماء التفوق فيضع فى بيت واحد **أربع حكم:**

والدين يُسْرٌ، والخلافةُ بيعَةٌ، .... والأمر شوري، والحقوق قضاءُ.[٢]

فشوقى يضع في هذا البيت أُسُسْ الشريعة الإسلامية، وهو اليُسر فى الدين، ومبايعة الخليفة، ومبدأ التشاور قبل اتخاذ القرار "وشاورهم فى الأمر" وأخذ الحقوق بالقانون... كل هذا فى بيت واحد من الشعر

وهذا البيت من قصيدة شوقى "الهمزيّة النبوية" ومطلعها:

ولد الهدي فالكائنات ضياء ... وفم الزمان تبسّم وثناءُ

لقد بلغت الحكمة أعلى درجات السُمُوْ، فى شعر المتنبى وشعر شوقى، وصارت حكمهما يرددها الناس في كل الوطن العربى.

لقد فرض المتنبى حكمته على لسان كل من يتكلمون لغة الضَادْ لأكثر من ألف عام، كما فرضها شوقى لأكثر من مائة عام. ولانبالغ القول إذا قلنا أنه لا يمر يوم أو بعض يوم حتى نسمع إحدى حكمهما في إحدى المناسبات

(١) الشوقيات الصحيحةج٣، ٦١ .

(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٤٠ .

الملائمة، وقد يختلف سامعان فينسب أحدهما أحد أبيات الحكمة إلى المتنبى ويُصّر الآخر على أنها لشوقى، كما يستشهد أحد الناس بأحد أبياتهما لترجيح رأيه على الرأي الاخر.

من منا لم يسمع من المتنبى في كثير من المناسبات:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمرّدا
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذي ... حتي يُرَاقَ علي جوانبه الدَمُ
ذو العقل يشقي في النَعِيم بعقله ... وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعمُ
والظلم من شِيّم النفوس فإن تَجِد ... ذا عِفّة فلعله لا يظلم
يهون علينا أن تصاب جسومنا ... وتَسلم أعراضٌ لنا وعُقول
ولو أنّ الحياةَ تَبْقَي لحي ... لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بدّ ... فمن العجز أن تكون جبانا
وإذا أتتك مَذّمتي من ناقصٍ ... فهي الشهادَة لي بأنى كامل
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
ما كل ما يتمنّي المرء يدركه ... تأتي الريّاح بما لا تشتهي السفن
فطعم الموتُ فى أمر حقير ... كطعم الموتِ فى أمر عظيم
ومن نكد الدنيا علي الحرّ أن يري ... عدوا له ما من صداقته بُدُّ
وإذا كانت النفوس كبارا ... تعبت فى مرادها الأجسام

إذا رأيت نيوبَ الليثِ بارزةً ... فلا تظنَنَّ أنّ الليث يبتسم

ومن منا لم يتكرر سمعه من شوقى على لسان الناس:

دقات قلبِ المرءِ قائلةٌ له ... إن الحياة دقائق وثَوان

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ...، فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وليس بصالحٍ بُنيان قومٍ ... إذا أخلاقهم كانت خرابا

لا يهدم الدهر ركنا شاد عدلهم ... وحائط البغي إن تلمسه ينهدم

بالعلم والمال يبني الناس ملكهمُ ... لم يُبْن مُلك علي جهل وإقلال

الناس صنفانِ موتي في حياتهمُ ... وآخرون ببطن الأرض أحياءُ

وللأوطان فى دم كل حرّ ... يد سلفت ودينٌ مُستَحقُ

والحرب فى حق عليك شريعة ... ومن السموم والناقعات دواءُ

وما نيل المطالب بالتَمنّي ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

صلاح أمرك فى الأخلاق مرجعه ... فقوم النفس بالأخلاق تَسْتَقِمِ

والجهل موتٌ، فإن أوتيت معجزةً ... فابْعث من الجهل أو فابعث من الرجم

وأن البرّ خير فى حياةٍ ... وأبقي بعد صاحبه ثَوابا

لقد ردد الناطقون بالعربية هذه الأبيات عشرات ومئات السنين وستظل هذه الحكم تُردد على ألسنتهم أبد الدهر.



المتنبي في شعر ونثر شوقي

المتنبي في شعر ونثر شوقي

كان شوقى مُعجباً أيّما إعجاب بالمتنبى وقد قال عنه "إن مُعْجِزَهُ لا يزال يرفع الشعر ويُعْليه ويُغْري الناس به فيجدده ويحييه، وحسبك أن المشتغلين بالقريض عموما - والمطبوعين منهم خصوصاً لا يَتَطلعُون إلا إلى غباره ولا يجدون الهدى إلا على مناره هذا مع اعترافى بأن المتنبى صاحب اللواء، والسماء التى ما طاولتها فى البيان سماء "وكان شوقى يقول إنه حفظ كل ديوان المتنبى".

ولكننا لم نجد معارضة فى قصائد شوقى للمتنبى، فشوقى عارض كبار الشعراء، كالبحترى، وابن زيدون والحصرى والبوصيرى ولكن ربما تكون القصيدة التى نظمها شوقى في رثاء والدته وهو فى المنفى فى أسبانيا، عارض بها المتنبى فى قصيدته التي رثى بها جدته. لقد ماتت والدة شوقى وكان بعيداً عنها فلم يرها ولم يتحدث إليها وهى فى مرضها، وقد أثّر هذا الحدث فى نفسيته تأثيراً عميقاً، وظهر هذا الحزن العميق فى هذه القصيدة، ويقال إن شوقى كتبها فور سماعه نبأ الوفاة، ولكنه لم ينظر إلى هذه القصيدة بعد ذلك أبداً يقول:(*)

إلي الله أشكو من عوادي النَوي سَهْما ... أصاب سُوَيْداءَ الفؤاد وما أصْمَي
أست جُرْحَها الأنباءُ غير رَفيقةٍ ... وكم نازعٍ سهماً فكان هو السهما
نزلتُ رُبَي الدنيا وجنّات عَدنِها ... فما وجَدَتْ نفسي لأنهارها طعما
فما برحت من خاطري (مصرُ) ساعةً ... ولا أنت في ذي الدار زايلت لي وهما
إلي حيث آباء الفتي يذهب الفتي ... سبيلٌ يدين العالمون بها قدما

(*) الشوقيات الصحيحة ج٣، ١٥٦ .

والقصيدة تبين الحزن العميق والقهر النفسى الذى أصاب شوقى. وكانت الهدنة قد أُعلنت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ وكان شوقى يعلّل نفسه بالعودة إلى مصر ولقاء والدته، ولكن الإنجليز لم يسمحوا له بالعودة إلا فى عام ١٩٢٠ . وهذه القصيدة جاءت على وَزْن قصيدة المتنبى التى نظمها فى رثاء جَدّته التى كانت له بمثابة الأم، فقد ماتت أمّه وهو صغير فقامت جدته لأمه بتربيته، وقد كان المناخ الحزين الذى عَاشه المتنبى يكاد يكون صورة مطابقة للظروف التي عاش فيها شوقى، فقد كان المتنبى متلهّفا على لقاء جَدَّته، ولكنها ماتت قبل أن تلقاه، بدأ المتنبى القصيدة بقوله:(*)

ألا لا أري الأحداث مدحا ولا ذمّا ... فما بطشها جهلا ولا كفها حُلْما

أحِنُّ إلي الكأس التي شربتِ بها ... وأهوي لمثواها الترابَ وما ضَمَّا

أتاها كتابي بعد يأسٍ وتَرْحَةٍ ... فماتت سُروراً بي فمُتُّ بها غمّاً

إلي مثل ما كان الفتي مَرجعُ الفتي ... يَعُود كما أبدي وُيكرِي كما أرْمَي

وإذا قارنا القصيدتين وجدنا أن التَشَابُه بينهما يكاد يكون تاما ، ولكن قصيدة المتنبى جاءت فى ستة وثلاثين بيتا وقصيدة شوقى جاءت فى اثنين وخمسين بيتا ، ومن المعروف أن قصائد شوقى أطول من قصائد المتنبى **ويقول المتنبى عن خبر الموت ووقعه السيء:**

أتاها كتابي بعد يأس وترحة ... فماتت سرورا بي فمُت بها غَمّا

(*) ديوان المتنبى ١٧٤ .

أسَتُ شوقى:

أست جرحها الأنباء غير رفيقه ... وكم نازع سهما فكان هو السهما

ويقول المتنبى عن حكمة الموت:

إلي مثل ما كان الفتي مرْجعُ الفتي ... يعود كما أبدي ويُكري كما أرْمَي

ويقول شوقي:

إلي حيث آباء الفتي يذهب الفتي ... سبيلٍ يدين العالمون بها قدْما

ويفتخر المتنبى بجدته وبنفسه:

ولو لم تكوني بنت أكرم والدٍ ... لكان أباك الضخم كونك لي أما

وإني لمن قوم كأن نفوسهُم ... بها أنَفٌ أن تسكن اللّحم والعَظْماَ

ويفتخر شوقى بوالدته وبنفسه:

لئن فات ما أمّلْته من مواكبٍ ... فَدُونك هذا الحشدَ والموكب الضخما

رثيت به ذات التُّقي ونظمته ... لعنصره الأزكي وجوهره الأسمي

فهو يقول لوالدته إذا كان قد فاتها موكب جنازتها فإن شعره قد عوضها عن ذلك، فهو "الموكب الضخما"، وهو معنى بليغ جميل رفع شوقى فيه الشعر إلى أعلى المراتب.

ثم يرفع شوقى من شأن والدته، فيقول لها يكفيك فخراً أنك أنجْبتِ شاعرا لم ينظم أحدا الشعرِ مثله:

وكنت إذا هذي السماءُ تخايلت ... تواضعتِ لكن بعدَ ما فُتَها نجما!

أتيت به لم ينظم الشعرَ مثله ... وجئت لأخلاق الكرام به نظما

ولو نهضتْ عنه السماء ومخّضتْ ... به الأرض كان المُزنَ والتبرَ والكرْمَا

ونجد أن شوقى بالغ فى الفخر بأمه وبنفسه، وربما يكون ذلك تعويضاً له عن القهر النفسى الذى كان يعيش فيه فى المنفى. ولا شك أن بعد دراسة القصيدتين، نري أن شوقى عارض المتنبى فى قصيدته، وكان متأثراً بها تأثراً عميقا - ولكن شوقى كان يقول إنه كتبها فور سماع نبأ وفاة والدته ولم ينظر إليها بعد ذلك أبداً، فإذا صَح ذلك، فإن شوقى لم يخطط لهذه المعارضة، فقد جاءت تلقائيا بلا تخطيط، ولقد ذكر شوقى أنه كان يحفظ ديوان المتنبى كما كان معجبا به أيُّما إعجاب.

وقد نظم شوقى قصيدة يداعب فيها صديقيه القاضى حفنى ناصف والقاضى صدقى حسين، وكان الأول قد نقل إلى محكمة طنطا والثانى إلى محكمة أسيوط وكان كلاهما شاعرا.

نظم شوقى هذه القصيدة وقد تخيّل أن المتنبى عُيِّن فى مصر قاضيا أهليا وطلب أن يُعيَّن في مدينة طنطا:

ليلة الأمس ذهبت وما تذ ... هب رؤيا أقصها شَر رؤيا(*)
ذلك أني حلمتُ بالمتنبي ... صار في مصر قاضيا أهليا
خيّروه فقال طنطا أحبُ المد ... ن فى هذه البلاد إليا
فوجدت الصواب في الرأى أنّي ... أهجر الشعر والقوافي مليّا
هو قد بذّ قائل الشعر ميتا ... كيف يلقاه قائل الشعر حيّا
وتأملت فى مصيبة (حفني) ... يوم للحكم يجلسان سويّا
هوعادي كرسّي كافور عمرا ... هل يصافي (لناصِف) كُرْسياً

(*) الشوقيات المجهولة ج٢، ٢٦٩

جاءني صاحبي يقول بلاء ... كنت والله عن بلاء غَنيًا
قلت نرجو من ناظر العدل يقصـــ ... يه بأسيوط مبعدا منفياً
إن فيها لشاعرا لك حرا ... وأراه بالذود عنك حَرِياً
مُره بمسخَ ولو شطر بيتٍ ... قال أخشي انقلاب ذاك عليا

فنجد شوقى في هذه القصيدة يقرر أن المتنبى هو إمام شعراء العربية، وحتى بعد رحيله فقد بَزَّ كل الشعراء، وعندما تخيَّل شوقى عودة المتنبى إلى الحياة، رأي أن من الصواب أن يهجر الشعر فكيف له أن يجارى المتنبى!

وبالرغم من أنَّ هذه القصيدة هى دعابة خيالية إلا أنَّها تُبين بوضوح رَأى شوقى فى عبقرية المتنبى ونبوغه، وهى شهادة لها قيمتها وقدرها إذا جاءت من أمير الشعراء.

وفي القصيدة التي ألقاها شوقى في حفل التكريم الذى أقامه له الشعراء العرب ونُصّب فيه أميرا لشعراء العربية، والتى بدأها بتحية وفود الشعراء:

مرحباً بالربيع في رَيْعانهْ ... وبأنوارِه وطيبِ زمانهْ
شُرِّفَتْ مصر بالشموسِ من الشر ... ق نجُوم البيانِ من أعيانه

وفى هذا المهرجان الشعرى الذى شبههُ شوقى بسوق عكاظ:

يا عُكاظاً تألف الشرقُ فيه ... من فِلسطِينه إلي بَغْدانهْ

فى هذا المهرجان يتذكر شوقى المتنبى ... وحسان بن ثابت:

موكِب الشعر حرَّك المتنبي ... فى ثراهُ وهزَّ من حَسَّانه

ولكن شوقى فى مقدمته التي كتبها للطبعة الأولى للشوقيات، ينتقد

الشعراء القدامى الذين اتخذوا الشعر حرفة وتعاطوه تجاره لمدح الملوك والأمراء ويستطرد(*) "ولا أرى بدا من استثناء المتنبى مع علمى أنّه المداح الهجّاء لأن مُعْجزَةُ يرفع الشعر ويعليه، ويغري الناس به فيُجدِّده ويُحْيِيه، وحسبُكَ أن المشتغلين بالقريض عموما - والمطبوعين منهم خصوصا - لا يَتَطلَّعون إلا إلي غباره ولا يجدون الهدى إلا على مناره .... ويتمنى أحدهم لو أتيح له ممدوح كممدوحه ليمدحه مثل مديحه، أو لو وقع له كافور مثل كافوره ليهجوه مثل هجائه، فمثل أبى الطبيب في تشبيه الشعراء به وسعيهم لبلوغ شَأوه فى المدح أوالهجو كمثل قائد مشهور الأيام معروف بالحزم والإقدام، قد أشربته قلوب الجند، وملئت نفوسهم ثقة منه، فلو قذف بهم فى مهاوى الهلاك وهم يعلمون لما جبنوا ولا أحجموا. هذا مع اعترافى بأنّ المتنبى صاحب اللواء، والسماء التي ما طاولتها سماء، ولو سلم من الغرور وسلمت الناس منه لأجللته إجلال الأنبياء" ويستطرد شوقى "أو لم يكن من الغُبْن على الشعر والأمة العربية أن يحيا المتنبى مثلاً حياته العالية التى بلغ فيها إلي أقصى الشباب ثم يموت عن نحو مائتى صحيفة من الشعر تسعة أعشارها لممدوحيه والعشر الباقى وهو الحكمة والوصف للناس".

ونحن نتّفق مع أمير الشعراء بأن المتنبى "صاحب اللواء والسماء التي ما طاولتها سماء" وربما نتفق أيضاً مع أمير الشعراء بأن المتنبى أصابه الكِبْر والتعالى على الناس...

ولكننا لا نتفق مع أمير الشعراء فى قوله عن المتنبى "الهجّاء" فالهجاء

(*) الشوقيات الصحيحة ٣٦

لم يشكل إلا جزءا قليلا من ديوان المتنبي حوالى (اثنين في المائة) كما بيّنا من قبل.

وربما جاءت شهرتَهُ في الهجاء لقصائده التى هجا فيها كافورا الإخشيدى، والتى أضحكت الناس مئات السنين، كما أنه قُتِل من أجل قصيدة هجاء خرج فيها عن اللياقة. وربما يكون شوقى قد غضب من المتنبى، لما قاله في هِجاء إسحق بن كيغلغ بعد مقتله! فقد كان هجاء مقذعا. فهذا الهجاء يتنافى مع المبادئ والقِيَم الإسلامية "اذكروا محاسن موتاكم". وكما قدمنا فإن خطأ المتنبى هو رحيله إلى كافور الإخشيدى ومدحه ثم ذمّه.

كما أننا لا نتّفِقَ مع أمير الشعراء بأن تسعة أعشار ديوان المتنبى مدحا، فقد بيّنا أن أبيات المدح فى القَصَائد لا تتعدى (٥, ٣٩٪) فقط.

ولو اعتبرنا أن المدح الذى قاله المتنبى فى سيف الدولة من الأدب القومى أو أدب القتال الذى يذكرنا بالياذة هوميروس، وكيف لا نعتبره كذلك، وقد خاض سيف الدولة ثلاثاً وعشرين معركة حربية للدفاع عن الدولة الإسلامية ضد الروم. أقول لو اعتبرنا أنّ أبيات المدح التي قيلت لتمجيد بطولات سيف الدولة وعددها ٥٦٨ بيتا من الشعر من الأدب القومي وأنقصناها من أبيات المدح، لأصبحت أبيات المدح فى ديوان المتنبى ٢, ٢٩٪ فقط وليست تسْعِين فى المائة كما قال أمير الشعراء أحمد شوقى. وقد ذكر الدكتور منير سلطان أن المديح فى شعر شوقى هو أكثر الأغراض في شعره ويبلغ ٥, ٣٠٪(*).

(*) الإيقاع الصوتى فى شعر شوقى الغنائى، ١١٧ . الدكتور منير سلطان منشأة المعارف بالاسكندرية ٢٠٠٠م.



بصيرة المتنبي وبصيرة شوقي

بصيـــرة المتنبـــي

إن الشاعر العبقرى يرى ما لا يراه البشر ويشعر بما لا يشعر به عامة الناس. والمتنبي كان ذا بصيرة حادة فشعر بأن الموالى الفرس والترك سوف يستولون على مقاليد الأمور في الدولة العباسية، فهاجمهم منذ صباه وحذّر من تسلطهم ولكن لم يستجب له أحد، فحاول القيام بثورة ضد نظام الحكم، فقُبِض عليه ووضع فى السجن، فثورته كانت ثورة سياسية ولم تكن ادّعاءً للنبوة كما جنح إلى ذلك كثير من النقّاد....

وقد كان هدف المتنبى بعث الدولة العربية وإعادة أمجاد الخلافة العربية وتمر الأيام، ويصدق حدس المتنبى، فيستولى الفرس والأتراك على مقدرات الدولة الإسلامية، ويصبح الخليفة لا حول له ولا قوة ولا إرادة، وتنقسم الدولة الإسلامية إلي دويلات يحكمها الموالى، فمصر والشام يحكمهابنى الإخشيد وهم من الترك، وفى العراق يستولي الأتراك على الحكم، ويحكم فارس "بنى بويه" وهم من الفُرس.ولم يترك الموالى الحكم، للعنصر العربي إلا للحمدانيين في حلب والجزيرة، وكان يحكمها سيف الدولة الحمدانى، وربما كان إعجاب المتنبى بسيف الدولة هو أنه الحاكم العربى الوحيد فى الدويلات العباسية، فضلاً عن شجاعته وبطولاته كما كان عُمْره مثل عُمْر المتنبى، فقد ولدا فى سنة واحدة.

وتمر السنون ويستولي الأتراك على الخلافة الإسلامية، فيصير منهم الخليفة العثمانى، وتسقط الدول العربية كلها تحت سيطرة المماليك ثم تحت نيرْ الحكم التركى مئات السنين، ويصبح العرب لا حول لهم ولا قوة، حتى قيام الثورة العربية الكبري. لقد كان المتنبى ذا بصيرة حادة فرأي المستقبل المظلم للعنصر العربي.

وإذا قيل إن الإسلام حسم التفرقة بين العرب والعجم "لا فرق بين عربى وعجمى إلا بالتقوى" فإن المتنبى ثار لتفضيل العجم على العرب، ولو كانت هناك مساواة لما ثار المتنبى. فالخلفاء العباسيون كما بيّنا كانوا يفضلون ويقدمون الموالى الفرس والأتراك على العرب.

وكما قلنا فإن المتنبى ثار على ذلك منذ صباه، ففى قصيدته التى يمدح فيها "شجاع بن أوس بن مَعن بن الرضا الأزدى" يبدأها بالغزل:(*)

أرقٌ علي أرقٍ ومثلي يأرَقُ ... وجوًي يزيدُ وعَبْرةٍ تَترقْرَقُ
جَهدْ الصَّبابَة أن تكون كما أرَي ... عينٌ مُسهَّدةٌ وقَلْبٌ يَخفقُ
ما لاح برقٌ أو ترنم طائرٌ ... إلا انثنيت ولي فؤادٌ شَيِّقُ

يقول الدكتور طه حسين مُعلّقاً على هذه الأبيات، إن البيت الأول لا يدل على شدة العشق وحدة الحب، ولكنه يّدل على حزن يزيد كلما مرّت الأيام وينتهى به إلى البكاء. وأما البيت الثانى يبين صدق المشاعر والجمع بين تسهيد العين وخفقان القلب مما يشيع حزنا لا أدرى كيف أحققه. أما البيت الثالث، ففيه حنين الشاعر إلى وطنه الذى لم تزل نفسه به مُضّلة ولم تَسْلُ عنه بعد.

ويستطرد المتنبى:

أبنَي أبينـاَ نَحْنُ أهلُ منازلٍ ... أبداً غرابُ البيْنِ فيها يَنْعَقُ
نبكي علي الدنيا وما من مَعْشرٍ ... جمعتهُمُ الدُنيا فلم يتفرّقُوا
أين الأكاسرةُ الجبابرةُ الأُلي ... كنزوا الكنوز فما بَقَيْنَ وما بَقُوا

(*) ديوان المتنبى ٢٨ .

من كـل ضـاقَ الـفضـاء بـجَيْشِه ... حتي ثَوي فـحواهُ لحدُ ضيّقُ

خُرسٌ إذا نـودوا كأن لـم يعلـموا ... أنّ الـكلام لَهُمُ حلالٌ مُطلقُ

فـالموت آتٍ والـنـفـوسُ نـفـائـسٌ ... والُمستَعِزُّ بمـا لـديـه الأحـمـقُ

والمـرءُ يـأمـلُ والحيـاة شَهيَّةٌ ... والـشـيـبُ أوقـرُ والـشَّبيـبـةُ أنْزَقُ

ولقد بـكيـت علي الـشباب ولَمّتي ... مُسْوَدّةٌ ولِماءَ وجهي رَوْنَقُ

حذرًا عـليـه قـبل يومِ فِراقـه ... حتي لـكِدْتُ بمـاءِ جفـنـي أَشْرَقُ

ويقـول الدكـتـور طه حسين "إن البيت الأول يتحدث فـيه المتنبى إلى أهله القحطانيين والتي أصبحت منازلهم ينعب فيها غرابُ البين فـالهجرة من طبعهم، والغربة مفروضةٌ عليهم". ونُحسُ فى هذه الأبيات التفكير الفلسفى الحزين، فـهو يرى نفسه غريبا مُشرّدا، وهو يرى قـومه غربا ء مشـردين، قد تَسَلّط عليهم من كان ينبغي أن يتسلطوا عليه واستأثر بالأمر دونهم من كان ينبغى ألا يكون له من الأمر شيء" هذا هو رأي الدكتور طه حسين في هذه القصيدة، ولكننا إذا أخذناها بمعناها الظاهر فإن المجموعة الأولى من الأبيات تَنُّم عن شدة العشق، ولوعة الحب، ولكن باقى القصيدة على أية حال، يشعر فيها القارئ بالغبن والقهر والظلم الذى عانى منه المتنبى منذ صباه. حتى أنه شعر بأنه فارق الشباب وهو في عهد الصبا....

وفي قصيدة أخرى قالها فى صباه يصرّح فيها بصراحة ودون مواربة بالقهر والظلم الذى أنزل بالعنصر العربي، ولكنه لا يستسلم بل يهدّد بالثورة والقتال من أجل استخلاص حقوق العرب من الموالى، ولا يكتفى بذلك بل يوجه لهم إهانات قاسية:(*)

ضيف ألمّ برأس غير مُحْتَشِم ... والسيفُ أحْسنُ فِعلاً منهُ باللِّمَمِ

(*) ديوان المتنبى ٣٦ .

أبْعِدْ بعِدْتَ بياضاً لا بياضَ له ... لأنْتَ أسْوَدُ في عيْنِي من الظُّلَمِ

فالمتنبى يرفض الشيب الذى حدث له قبل الأوان، ربما من القهر الذى يعيش فيه. ولكن لا يلبث أن يهاجم الموالى من الفرس والأتراك والذى أطلق عليهم "دولة الخدم":

بكل مُنْصلَتٍ ما زال مُنْتَظري ... حتي أدَلْتُ لهُ من دولةِ الخَدمِ
شيخٌ يَري الصّلواتِ الخَمسَ نافلةً ... ويَستَحِلُّ دَمَ الحُجّاجِ فى الحرمِ

ثم يهدد الموالى بل ويهدد الملوك:

لقد تَصَبَّرْتُ حتي لاتَ مُصْطَبَرٍ ... فالآن أقْحَمُ حتي لاتَ مُقْتَحَمِ
ميعادُ كلِّ رَقيقِ الشّفرَتينِ غداً ... ومن عصَي من ملوكِ العُربِ والعجمِ
فإنْ أجابُوا فما قَصْدي بها لهُمُ ... وإن تَوَلّوْا فما أرضي لها بهمِ

ويتمادى المتنبى فى هجومه على الموالى ويحقرهم فى قصيدة أخرى:(*)

وإنّما النّاسُ بالمُلُوكِ وما ... تُفْلحُ عُرْبٌ مُلوكَها عَجَمُ
لا أدَبٌ عِندهُم ولا حَسَبٌ ... ولا عُهُودٌ لهُمْ ولا ذِمَمُ
بكلّ أرضٍ وطِئْتُها أُمَمٌ ... تُرْعَي بعَبْدٍ كأنّها غَنَمُ
يَسْتَخشِنُ الخَزَّ حينَ يَلْمُسُهُ ... وكانَ يُبْرَي بِظُفْرِه القَلَمُ!

وجمع المتنبى حوله كثيراً من أعراب بنى كلب ينقل إليهم أفكاره من رفض تسلط الموالى على الحكم فقبض عليه ووضع فى السجن.

وللأسف لم يستجب أحد من الخلفاء العباسيين لدعوة المتنبى - ألم يكن للمتنبى بصيرة حادة ورؤية للمستقبل؟

(*) ديوان المتنبى ٩٣ .

بصيـــرة شـــوقى

السلطان حسين كامل:

وكما كان للمتنبى بصيرة حادة للتكهن بالمستقبل، كان لشوقى أيضا بصيرة حادّة. فلما نفى الإنجليز الخديوى عباس حلمى الثانى من مصر سنة ١٩١٥ لمواقفه الوطنية ووضعوا السلطان حسين كامل على عرش مصر، غضب المصريون وغضب أحمد شوقى ... ولم يكتف الإنجليز بذلك فأعلنوا الحماية البريطانية على مصر وهددوا بأكثر من ذلك، وبإلغاء استقلال مصر...

وقد عاصر هذا الوقت الحرب العالمية الأولى وكان الإنجليز مهزومين فى ميادين الحرب، وكانوا فى منتهى العنف والشراسة، فهادنتهم الحكومة المصرية وأوحت إلى الشعراء بتهنئة السلطان حسين كامل واسترضاء الإنجليز فهنأه حافظ إبراهيم الذى لا يشك أحد في وطنيته، واسترضى الإنجليز ووصفهم بالكرم:

وَوالِ القوم إنهم كرامٌ ... ميامين النقيبة أين حلّوا

فاضطر شوقى لتهنئة السلطان حسين كامل فهو على أية حال ابن الخديوى إسماعيل، وشوقى نشأ بباب إسماعيل وكان لابد له من أن يتكلم فالأضواء مُسَلطة عليه، فتأخر قليلا ثم كتب لاميته المشهورة:(*)

المُلكُ فيكم آلَ إسماعيلا ... ما زال بيتُكُمُ يُظِلُّ النيلا

وكتب بعض أبيات فيها استرضاء للإنجليز، ومَدْحَ للسلطان، ولكنه لم يلبث أن انقلب على نفسه فى آخر القصيدة، وقال ما يعتقد أنه صوابا:

(*) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢١٠ .

فهاجم السلطان وهاجم الإنجليز بكل قوة وشجاعة:

يا أهلَ مصر كِلوا الأمور لربكم ... فالله خيرُ موئلا وكفيلاَ
جرت الأمورُ مع القضاءِ لغايةٍ ... وأقرّها من يملكُ التحويلا
أخذت عنانا منه غير عِنانها ... سبحانه متصّرفا ومُديلا
هل كان ذاك العهدُ إلا موقفاً ... للسلطتين وللبلاد وبيلا
يَعْتَزُّ كلُّ ذليلِ أقوام به ... وعزيزُكم يُلقِي القيادَ ذليلا
دفعت بنا فيه الحوادثُ وانقضت ... إلا نتائجَ بعدها وذيولا
وانْفَضَّ ملعبُه وشاهِدُهُ على ... أن الرواية لم تَتِمَّ فصولا

وصار البيت الأخير مثلا يردده الناس، فقد رفض شوقى فيه أن يكون هذا الوضع (إعلان الحماية البريطانية على مصر) هو نهاية المطاف، وقال إن الرواية لم تتم ولابد لها من فصول ونهاية أخرى وفعلا لم تنته الرواية كما أراد الإنجليز، وتمت بقيام ثورة الشعب المصرى سنة ١٩١٩ رافضة الحماية والاحتلال، وقد نجحت الثورة فى إلغاء الحماية البريطانية على مصر.

فشوقى كما رأينا كان متنبئًا بقيام ثورة الشعب المصرى وكانت هذه القصيدة سَبباً في نفى شوقى من مصر لمدة خمس سنوات.

بنك مصر وطلعت حرب:

لقد كان إنشاء بنك مصرى أمل كل المصريين، فلم يكن فى مصر إلا البنوك الأجنبية، وكان الإنجليز يرددون أن المصريين لا يصلحون لأعمال البنوك . كانت مصر تحت الاحتلال البريطانى الذى لا يرضيه مثل هذا العمل العظيم البنّاء. تصدّى الشاب محمد طلعت حرب لهذا العمل العظيم

وأنشأ هو واخوانه بمساعدة رجال المال الوطنيين بنك مصر، أما الحكومة المصرية فلم تساعده حتى لا تغضب الإنجليز ولكن الشعب المصرى، شبابه وكهوله وقف إلى جانب محمد طلعت حرب. إن محمد طلعت حرب هو قائد ثورة الشعب المصرى الاقتصادية التى أنجبتها الثورة الأم، ثورة سنة ١٩١٩ السياسية بقيادة سعد زغلول. إنّ نجاح الثورة الاقتصادية هو دليل قاطع على نجاح ثورة سنة ١٩١٩ وشوقى الشاعر قد تأثر بهذا الحدث العظيم فنظم قصيدة بمناسبة الاحتفال بوضع الحجر الأول فى أساس "بنك مصر" فى مايو سنة ١٩٢٥، جاء فيها: (*)

تَدفَّق مَصْرِفُ الوادي فَرَوّي ... وصابَ غَمَامُهُ فسقي وجادا
وأقبلَ من شباب القوم جَمْعٌ ... كما بنت الكهولُ بَنَي وشادا
تأنّي حين أسّسْكَ ابن حربٍ ... وحين بني دعائمك الشدادا
بني الدّارَ التي كنّا نَراها ... أمانّي الخَيِّلِ أو رُقادا
وعودِيَ دونَها حتي بَناها ... ومن شأن المُجدِّد أن يُعادي
يهونُ الكيدُ من أعدَي عَدُوٍّ ... عليكَ إذا الوليُّ سَعي وكادَا
نصونُ كرائمَ الأموالِ فيها ... ونُنْزِلها الخزائنَ والنَضادا
ونخرجُها فتكسَبَ ثم تأوي ... رجوعَ النَّحْلِ قد حُمِّلْنَ زادا
ومن عجب نثبتها أصولا ... وتلك فروعها تغشَى البلادا

فشوقى يسعد بدعم الشعب المصرى لطلعت حرب لبناء بنك مصر ويشير إلى الحرب الشرسة التى قامت بها الحكومة ضد هذا المشروع!

يهونُ الكيدُ من أعدَي عَدُوٍّ ... عليكَ إذا الوليُّ سَعَي وكادَا

ثم يجنح بشوقى الخيال، فيرى بنك مصر قد أقيم وامتلأ بالأموال،

(*) الشوقيات الصحيحة ج٤، ١٤ .

وخرجت منه الأموال وعادت بربح كبير ثم يرى بنك مصر وقد أصبح له فروعا تغشى كل البلاد ، رأى كل ذلك ولم يكن هناك إلا حجر الأساس!

أليست هذه هي بصيرة الشاعر العبقري الذي يرى المستقبل.

ولما أقيم الاحتفال بإنشاء بنك مصر، نظم شوقي قصيدة يمجّد فيها هذا البناء العظيم، الذي ساواه ببناء الهرم الأكبر حتى ولو كان مبنيًا من الذهب!:[١]

ما هيكلُ الهرمِ الجيزيَ من ذهبٍ ... في العين أزْين من بنيانها الحالي

ويطلب شوقي من كبار المصريين أن يزيدوا في دعم هذا البناء الشامخ:

سراةَ مصر َعهدناكم إذا بُسطتْ ... يدُ الدعاء سراعًا غيرَ بُخّال

فابنوا علي بركات الله واغتنموا ... ما هيّأ اللّهُ من حَظٍ وإقبال

فشوقي رأى نجاح هذا البناء قبل أن يعمل، فطلب من المصريين أن يدعموه...... أنها شفافية الشاعر الذي يرى المستقبل.....

دور المعلم

لقد كان شوقي يرى أن العلم هو أساس بناء الأمم، وأن المعَلّم الكفء النزيه هو الذي يبني المجتمع الصالح بما يعطيه للنشأ من علم ومعرفة وبما يَمنحهُ من التربية القويمة والمبادئ الأخلاقية السامية. وقد كرّم شوقي المعلم ورفع من شأنه وقال إن رسالته تكاد ترقى إلى رسالة الرسل:[٢]

قم للمعلّمِ وفِّه التبجيلا ... كاد المعلّم أن يكون رسولا

أعلمتَ أشرف أو أجّل من الذي ... يُبني وينشئ أنفساً وعقولا

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٢٣. (٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢١٨.

وقد كان المعلم فى عصر شوقى قمة في العلم والمعرفة، ومثلا عاليا فى الخُلق القويم، كما كان يعامل طلبته كأبنائه بعطف وحنان، كما كان يساوى بينهم، وكان تقييمه لهم بالعدل والقسطاس فلا فرق بين طالب وطالب كما كانت المدرسة لها مكانة رفيعة فى نفوس المعلمين والطلبة فالجميع يحملون لها الولاء والاحترام.

ومرت السنون، وتغير كل شيء، انهارت القيم والمبادئ وأصبح التلاميذ لا يبُجّلون أساتذتهم ولا يحترمونهم وتَسرّب إلى محراب العلم من لا يصح أن يتشرف به، فتفاقمت الأوضاع وأصبح بعض التلاميذ يعتدون على المعلم. فقد دأب بعض التلاميذ على الغش فى الامتحانات، وإذا حاول المعلم منعهم، اعتدوا عليه، فهم يَرَوْن أن الغش حق مكتسب لهم. كما أن بعض المنحرفين من أهالى الطلبة دأبوا على إذاعة إجابات الامتحانات العامة بمكبرات الصوت وإذا حاول المعلم إغلاق النوافذ اعتدي عليه الطلبة.

أما المعلم فقد تغيرت صورته فلم يعد كُفئًا كمعلمى الجيل الماضى، كما أهمل عمله فى المدرسة، فقد أصبحت عبئا ثقيلا، فالمدرسة فقدت هيبتها فأصبحت مبانيها رديئة وحجراتها ضيقة والفصول مزدحمة بالطلبة مما أعاق المعلم عن تأدية عمله، ولم يعد بها أى نشاط رياضى ولا موسيقى ولا أى ترفيه. فأصبحت المدرسة مكانا مرفوضا من الجميع.

لا ننكر أن هناك بعض المعلمين الأكْفَاء، الذين يحملون قيمًا ومبادئ سامية، ولكنهم قِلّة على أى حال، ولكن أغلب المعلمين اتجهوا إلى إعطاء دروس خصوصية للطلبة بأجور باهظة، وربما يكون للمعلمين بعض العذر، فتكاليف الحياة أصبحت فوق طاقاتهم. ولكن بعض المعلمين أصبح تقييمهم للطالب بقدر ما يدفعه وليس بقدر ما يَعْلَمه، كما أصبح بعض المعلمين

يساعدون الطلبة على الغش فى الامتحانات بوسائل متعددة.

وإذا انحرف ميزان العدالة ضاعت القيّم واختفت المبادئ الأخلاقية.

وبدراستنا لقصيدة العلم والتعليم الذى كرّم فيها شوقى المعلم نجد فيها بصيرة شوقى الحادة، وكأنه يرى المستقبل!، فبعد تكريمه للمعلم "كاد أن يكون رسولا"، نراه يوجه إليه النصح:

رَبُّوا علي الإنصافِ فتيانَ الحِمَي ... تجدوهُمُ كهفَ الحقُوق كُهولا
فهو الذي يَبْني الطِباع قَويمةً ... وهو الذي يبني النُفُوسَ عُدولا

ثم يغير أسلوبه فجأة، ويُحَذّر المعلم من الانحراف:

وإذا المعلمُ لم يكن عَدْلا مشي ... روحُ العدالة في الشباب ضئيلا
وإذا المعلم ساء لحظَ بصيرةٍ ... جاءت علي يده البصائرُ حُولا

ثم يصف شوقى معلم اليوم، فلم يكن فى أيامه مثل هذا المعلم، ومثل هذا الطالب:

يا أرضُ مُذ فقدَ المعلم نفسَه ... بين الشموسِ وبين شرقِك حِيلاَ
وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم ... فأقِم عليهم مأتماً وعويلا

ثم يصف شوقى مدارس اليوم!، فلم يكن فى أيامه مثل هذه المدارس!(*)

ومدارسٍ لا تُنْهِضُ الآخـــْـ ... ــلاقَ دراسةَ الرُّسوم
يمشي الفسادُ بنبتها ... مَشْيَ الشرارةِ بالهشيم

إنها شفافية الشاعر العبقرى الذى كان يرى المستقبل.

(*) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٦٠ .

عمر المختار:

عندما أعدم الإيطاليون عمر المختار بطل ليبيا الخالد عام ١٩٣١، وكان عمر المختار قد قام بثورة مسلحة ضد الإيطاليين الذين يحتلُّون ليبيا وقد سلك الإيطاليون فى إعدامه سبلا بشعة متوحشة ولم يرحموا سنه التى نيفت على التسعين!

وقد رثاه شوقى بقصيدة من أبلغ ما قاله في الرثاء:(*)

ركزوا رُفاتَك فى الرمال لِواءَ ... يَستنْهض الوادي صباح مَساءَ
يا ويحهم نَصبوا مناراً من دمٍ ... تُوحي إلي جيلِ الغد البغضاء

وفى نهاية القصيدة وَجَّه شوقى حديثه إلى الشعب الليبى يعطيه الأمل فى المستقبل، ولكنه يعاتبه فيطلب منه أن يُريح شيوخه من عناء الجهاد وأن يُحَمِّل الأعباء على فتيانه:

يا أيها الشعبِ القريب أسامعٌ ... فأصوغَ في عُمر الشهيد رثاءَ
أم ألجمت فاكَ الخطوب وحرَّمت ... أذُنَيك حين تُخَاطَبُ الإصغاء
ذهب الشهيد وأنت باقٍ خالدٌ ... فانقُدْ رجالك واختر الزعماء
وأرح شيوخك من تكاليف الوغى ... واحمل على فتيانك الأعباء

وتصدق نبوءة شوقى بعد أكثر من أربعين عاما، فتقوم ثورة فى ليبيا، ويقوم بها شبان حديثى السن "فتيان" فيحرروا الأرض الليبية ويخرجوا منها الإنجليز والأمريكان الذين كانوا قد أنشأوا قواعد عسكرية فى ليبيا بعد خروج الإيطاليون.

(*) الشوقيات الصحيحة ج٣، ١٧ .



المتنبى فى ضمير الشعراء

رثـــــاء المتنبـــى

لأبي القاسم مظفر بن علي الطيبى: (*)

لارعى الله سرب هذا الزمان ... إذ دهانا مثل ذاك اللسان
مارأى الناس ثانى المتنبى ... أى ثان يُرى لبكر الزمان
كان فى نفسه الكبيرة جيشٌ ... وفى كبرياء ذا سلطان
هو فى شعره نبىّ ولكنّ ... ظهرت معجزاته فى المعانى

قالها فور أن بلغه خبر مقتل المتنبي

(*) أبو الطيب المتنبى شاعر الطموح والعنفوان - ٨٨ - جوزيف الهاشم - دار المفيد للطباعة والنشر لبنان ١٩٨٢م.

المتنبّي والشهباء

بقلم بشاره الخوري

شَهْبــــاءُ. لَوْ كــــانَتَ الأحْلامُ كَأسْ طلاً(*)
فـــي راحَةِ الـــفَجْرِ كُنْتِ الـــزَّهْرَ والحَبَبــا

لَوْ أنْصَفَ العَـــرَبُ الأحْـــرارُ نَهْضَتَهُـــمْ
لَشَيَّدوا لَـــكَ فـــي ساحاتِهـــا النُّصُبـــا

لَكِن خُلِقْـــتَ لأمْـــرٍ لَيْـــسَ يُدْرِكُـــهُ
مَنْ يَعْشَقُ الذُّلَّ أوْ مَـــنْ يَعْبُـــدُ الرُّتَبــا

مَلاعِبَ الصِّيْدِ منْ حَمْـــدانَ، مـــا نَسَلـــوا
إلاّ الأهِلَّـــةَ والأشْبـــالَ والقُضُبـــا

ما جَرَّدَ الدَّهْرُ سَيْفـــاً مِثْـــلَ «سَيْفِهِـــم»
يُجْري بِهِ الـــدَّمَ أوْ يُجْـــري بِـــهِ الذَّهَبـــا

(*) شعر الأخطل الصغير ١٢٠ - دار الكتاب العربي بيروت.

رُبْ القَوافي عَلَى الإطْلاقِ شاعِرُهُمْ
أَلخُلْدُ والمَجْدُ في آفاقِهِ اصْطَحَبا

***

طَلَبْتَ بالشِّعْرِ دونَ الشِّعْرِ مَرْتَبةً
فَشاءَ رَبُّكَ أَنْ لا تُدْرِكَ الطَّلبا

يا مُلْبِسَ الحِكْمَةِ الغَرّاءِ رَوْعَتَها
حَتَّى هَتَفْنَا : أَوَحْيًا قُلْتَ أَمْ أَدَبا

***

عَفْواً نَبِيَّ القَوافي ، أَيُّ نابغَةٍ
لَمْ يَزْرَعوا حَوْلَهُ البُهْتانَ وَالكَذِبا

مَنَعْتَ عَنْهُمْ ضِياءَ الشَّمْسِ فَانْحَجَبوا
فَهَلْ تَلومُهُمُ إِنْ مَزَّقوا الحُجُبا

أَضْرَمْتَ ثَوْرَتَكَ الهَوْجاءَ فَالتَهَمَتْ
مِنَ القَريضِ الهَشيمَ الغَثَّ وَالخَشَبا

***

في ذكرى المتنبي

من شاعر إلى شاعر

بقلم الاستاذ أحمد محرم

أنظر إلى الدُّنيا عَليكَ ترفْرف(*)
واسمعْ شعوبك في الممالك تَهْتفُ

ضجّوا بذكرك، فالقياصر خُشّعُ
بين المواكب ، والأرائك رجّف

تقف العواصف دونَ عرشك ركّداً
والدّهر يرْمي بالعروش ويعصف

ويظلُّ تاجك ماله من خاطفٍ
والناس والتِّيجان حوْلك تُخطفُ

(*) أبو الطيب المتنبي حياته وشعره - المكتبة الحديثة للطباعة والنشر- بيروت ١٩٨٢م.

مُلْكُ البيـــان إليــك فـــوَّضَ أمـــره
فاحكم فأنت المـــــالك المتصــــرِّف

تعب الخلـــودُ ومـــا تعبـــتَ وإننـــى
لأرى الخلودَ يضيقُ عنـــك ويَضعُـــــف

أبقى «لسيف الدَّولة» الشّـــرفَ الـــذي
تركَ السيُّـــوفَ مشـــوقة تتشـــوف

نَجَّـــاهُ من غـــول الفَنـــاء فهـــذه
دنيـــاهُ مونقـــة تـــرف وتنطـــف

رُمْـــت «الولاية» بالقريـــض، وإنـــه
لك في النفـــوس ولايـــة ما تصـــرف



شوقي في ضمير الشعراء

رثاء شوقي

بقلم علي الجارم

هَلْ نَعَيْتُم للْبُحْتُرِيِّ بَيَانَهْ!(*)
أوْ بَكَيْتُم لِمَعْبَدٍ ألْحَانَه!

مَاتَ شَوْقي، وكانَ أنفذَ سَهْمٍ
صَائِبِ الرَّمْيِ مِنْ سِهَامِ الكِنانَةْ

مَلأ الشَّرْقَ مَوْتُ مَنْ مَلأ الشَّرْ
قَ حَيَاةً وَقُوَّةً وَزَكانَهْ

عَرَفَ المَوْتَ والْحَيَاةَ جَميعاً
ورَأى بَعْدَ حَيْرَةٍ بُرْهَانَه

(*) ديوان على الجارم - ٢٩٢ دار الشروق القاهرة - ١٩٨٦ م.

والرّوَايَـــاتُ، أدْهَشَتْ كُــلَّ لُـــبٍّ
ثُمَّ أربَـــتْ، فَأدْهَشَـــتْ شَيْطَانَـــهَ

رَفَعتْ مِصْرُ رَايَةَ الشِّعْـــرِ فِي الشَّــرْ
قِ، وَأولَتْ أمِيـــرَهُ صَولَجَانَـــهْ

يَمْدَحُ المُصْطَفَـــى، فَتَلْمَـــحُ حُبَّـــاً
عَاصِفاً آخِـــذاً عَلَيْـــهِ كِيَانَـــه

وَرِثَـــاءُ البَيَـــانِ جُهْـــدُ مُقِـــلٍّ
لِلَّذِي خَلَّـــدَ الزَّمَـــانُ بَيَانَـــه

رثاء شوقي

بقلم بشارة الخوري

قِفْ فـــي رُبَى الخُلْدِ وَاهْتِفْ بِاسّمِ شــاعِرِهِ(*)
فــسـدرةالمــنـــتــهـــى أدنّى مَنَابِرِهِ

وامْسَحَ جَبِيـنـكَ بـالـرُكـنِ الـذى انْبَلـجَتْ
اشـعـةالـوَحـيِ شـعـراً مـن مَنَائِرِه

إلَهَـــةُ الشّعْـــــر قَامـــتْ عن ميامنـــه
ورَبَّةُ الـنَثـرِ قـامـت عـن مـيـاسـره

(*) شعر الأخطل الصغير - ١٠٥ - دار الكتاب العربى بيروت.

أَتْرَابُ مَرْيَمَ تَلْهُو فِي خَمَائِلِهِ
وَرَهْطُ جِبْرِيلَ يَحْبُو فِي مَقَاصِرِهِ

هَذَا الَّذي رَفَعَ الأَهْرَامَ مِنْ أَدَبٍ
وكَانَ في تَاجِهَا أَغلَى جَوَاهِرِهِ

مَا لِلْمَلاعِبِ فِي لُبْنَانَ مُقْفِرَةً
وَلِلْمَنَاهِلِ عُطْلاً مِنْ حَرَائِرِهِ

وَلِلْمَآذِنِ فِي الفَيْحَاءِ كَاسِفَةً
كَخَاشِعِ السَّرْوِ فِي دَاجِي مَقَابِرِهِ

لُبْنَانُ يَا مِصْرُ مِصْرٌ في مَطَامِحِهِ
كَما عَلِمْتِ وَمِصْرٌ فِي مَفَاخِرِهِ

قِيثَارَةَ النِيلِ كَمْ غَنَّيْتِ قَافِيَةً
في مِسْمَعِ الدَّهْرِ مَسْرَاهَا وَخَاطِرِهِ

ذكري شوقي

بقلم محمود غنيم

طَــواهُ الــردى؛ فتحــدَّى العــدمْ(*)
بشعــرٍ يــدورُ علــى كــلِّ فَــمْ

لقــد منحتــهُ الطبيعــةُ مُلكــاً
عريضاً من الشِّعــر فيــه احتكــم

وعرشــاً كعــرش «ابن داودَ»، فيــهِ
يقــومُ الطيــورُ مقــامَ الخــدم

تَغنَّى بــه فــي الســرورِ الطــروبُ
فكــان الكمــانَ، وكــان النَّغَــم

وَنــاح به في الخطــوب الحزيــنُ
فلامَــسَ منــه مكــانَ الألــم

(*) شعر محمود غنيم - المجلد الأول - ٥٣١ - دار الغد العربي.

أعزُّ علــى الضّــادِ من كــلِّ مــا
حوتــه صحائفهــا من حكــم

وأروى مــن النيــل للظامئيــنَ
وأخلــدُ مــن لَبنــاتِ الهــرم

سلوا الضّاد: هــل كــان أحمــد كنــزاً
حوتــهُ يداهــا؟ تجبكُــم: نعــم!

يقولــون: شــاد بقيثــاره
شَجى العُرب، قلــتُ: وهــزَّ العجــم

أجــادَ القريــضَ بعهــد الشّبــابِ
وأعجز حيــن اعتــراهُ الهــرم

ويوجه محمود غنيم حديثه إلى الشعب:

لَعَمْرُكَ مـــا النـــاسُ دون الشعـــورِ
ودونَ الأحاسيـــــس إلا نُعَـــــمْ(*)

إذا الشّعـــب لـــم يُعـــر الشُّعـــراءَ
مَسَامِعَهُ، فهـــو شعـــــب أصّـــم

أرى عالمـــــاً كســـــدَت رُوحُــــهُ
على فضلاتِ الحُطـــام اختصـــم

أرادَ الحيـــاةَ بحـــدِّ الحُســـــامِ
وشـــاد به رُكنهــــا ؛ فانهـــدم

فيا عابـدى الزادِ ، خَلُّـــوا الحســـامَ
وسُوسُـــوا الأمور بســـنِّ القلـــم

* * *

محمود غنيم

(*) نُعَمْ: بهائم

لقد رفع شعراء العربية المتنبى وشوقى فى كافة العصور إلى أسمى مراتب العبقرية والنبوغ.

يقول الطيبى، إنّ المتنبى معجزة وليس له نظير في دولة الشعر "أيٌّ ثان يرى لبكر الزمانِ".

ويقول بشارة الخورى، إنّ المتنبى خالد خلود الدهر وإنه فى مرتبة أعلى من مراتب الملوك والحكام، وأن خصومه كانوا أقل منه بلاغة وشاعرية، فحقدوا عليه وزرعوا حوله التهم والأكاذيب.

ويقول أحمد محرم إنّ المتنبى من الخالدين وإنّ شعره ثابت متين لا ينال منه الزمن.

كما إنه أعلى من الولاة والحكام الذين منعوا عنه الولاية. والمتنبي هو الذى خلّد سيف الدولة ونَجّاه من غول الفناء.

ويقول الجارم، إنّ شوقي ملأ الشرق بلاغة وحكمة، وبشعره رفعت مصر راية الشعر العربى، كما إن شعره المسرحى بلغ مرتبة عالية من السُمُوْ، وأن قصائده الإسلامية بَيَّنت حب شوقى العميق للرسول صلى الله عليه وسلم.

ويُسَمى بشارة الخورى شوقى "قيثارة النيل" ويقول كأن شوقى كان يوُحَى إليه بالشعر، ويقول إن شوقى كان رائداً للوحدة الوطنية بين الشعوب العربية. ويبين أن العالم العربى أصابه حزن عميق عند رحيل شوقى "فالمآذن فى الفيحاء كاسفةً، والملاعب في لبنان مُقْفِرةً.

ويرفع محمود غنيم من قدر الشعر والشعراء إلى أعلي مراتب الرقى:

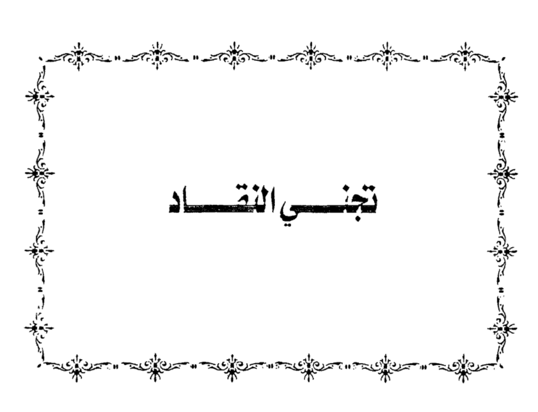
إذا لم تقم للشعرِ فى الشعبِ دولة .... تَيَقَّنْت أن الشعبَ ماتت مشاعره

ويقول محمود غنيم، إن شوقي بشعره تَحدَّى العدم، فهو خالد خلود الزمن، أخلدُ من الهرم، وأروى من النيل. ويقول إن شوقي أجاد الشعر فى شبابه وبلغ الإعجاز فى شيخوخته - يتغني بشعره الطروب فى سروره، ويردده الحزين فى خطوبه.

وشوقي يقول:

كـــان شعرى الغناءَ فى فرح الشـــــــرقِ وكان العَــزاءَ فى أحزانِــــهْ

ويتمني محمود غنيم أن تُقَدِر الشعوب الشعراء وأن تتذوق الشعر وتشعر بجمال الحياة ورومانسيتها، وأن تَسُوس الأمور بالقلم وتبتعد عن حد السيف.



تجني النقاد

تجنى النقاد على المتنبي

وكما هوجم المتنبي من النقاد ، هوجم شوقى، وكان لابّد من أن يُهَاجما ، فهذه هى الضريبة التي يدفعها العباقرة.

هاجم الأمير الشاعر أبو فراس الحمدانى المتنبى، كما ذكرنا ، وكان يرى أنه رجل من السُوقَة رفعه الشعر درجات فوق ما يستحق واتهمه بأنه يسرق المعانى من شعراء آخرين.

وكان المتنبى يرى فى أبى فراس أميراً رفعت الإمارة من شعره فوق ما يستحق. وكان أبو فراس شاعراً موهوباً وفارساً شجاعاً ولكنه لم يصل إلي قامة المتنبى. والمتنبى كان معتداً بنفسه، متكبراً متعالياً على من حوله، مما أثار حفيظة أبي فِراس. فحرّض سيف الدولة عليه وطلب من سيف الدولة ألا يستقبله ويستعيض عنه بشعراء آخرين...

كما هاجمه ابن خالوَية كبير علماء النَحو واللغة فى حلب، كما كان مؤدب سيف الدولة، وكان ابن خالوية لا يطيق المتنبى، لأن المتنبى كان يفوقهُ في النحو واللغة. وفي إحدى المناظرات الأدبية ضرب ابن خالويه المتنبى بمفتاح فشَجَّ رأسه، وما هذا الاعتداء إلا سلاح العاجز. وهاجمه الوزير الأديب ابن عبَّاد وحاول أن يخمد ذكره، فلم يستطع أن يُنْقص من قدر المتنبى.(*)

كما هاجمه الصاحب بن عباد ، وحرّض عليه كبار النقاد ، لأن المتنبى رفض أن يمدحه، فحرّض الصاحب أبا هلال العسكرى، الذى دأب على

(*) على هامش الأدب والنقد، ١٠٥ . على أدهم - الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٨م.

مهاجمة المتنبى فى كتابه "الصناعتين"، وفيه يأتى بأبيات من شعر المتنبى كنموذج للشعر القبيح. لقد استطاع العسكرى أن يأتى بأبيات ضعيفة للمتنبى وأظهرها كنموذج لشعره مثل:

فقلقلت بالهّم الذي قلقل الحشا ... قلاقل عَيْشٍ كلهّن قَلاقِلُ

وقد ظل نقد العسكرى يلاحق المتنبى فى جميع العصور الأدبية اللاحقة. أما الصاحب بن عباد فقد هاجم المتنبى فى رسالة ظهر فيها ما يحمله من أحقاد تجاه المتنبى الذى قال عنه "إن الزمان الجهول قد أنصفَهُ"، وأتى بأبيات ضعيفة من شعر المتنبى، وكل شاعر لا يخلو شعره من بعض الأبيات الضعيفة، فَجَسّمها الصاحب ووضعها كمثال لشعر المتنبى، مثل:

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولةٍ ... ففي الناس بُوقاتٌ لها وطبول

ومثل هذا البيت الذى جاء فى رثاء والدة سيف الدولة:

وهـذا أول النـاعـين طُرًا ... لأول ميَـتـةٍ فـي ذا الجـلال

أما الحاتمى فإنه طَعن المتنبى طعنة دامية لأنه رد بعض حكم المتنبى إلى أرسطو. ويعلق الدكتور زكى مبارك على هذه القضية (*) فيرى "أن العسكرى، كان متحاملا على المتنبى، وأن الصاحب كان حاقداً على المتنبي، وأن الرسالة الحاتمية هى سهم مسموم"، ويستطرد الدكتور زكى مبارك "أكان من الممكن أن تُسْتَر هفوات المتنبي لو سكت عليها العسكري والصاحب بن عباد"، ونُجيب بأن تلك الهفوات كانت ظاهرة، وما كان يمكن أن يُسْدَل عليها الحجاب، ولكن تلك الدسائس كشفتها بطريقة جارحة، وأحاطتها بألوان من السُخرية والتهكم والاستهزاء، ولكن المتنبي بقى مع

(*) أبو الطيب المتنبي حياته وشعره ٣٣

ذلك من الخالدين".

وإذا كان هناك من هاجم المتنبى وتحامل عليه، فقد بالغ غيرهم في تعظيمه حتى التقديس كابن جنى وابن عدلان وأبى العلاء المعرى الذى تأثر بالمتنبى فى كثير من أفكاره، كما اعتبر ديوانه معجزه الشعر. أما أحمد شوقى فقد قال عن المتنبى "إن مُعْجزَهُ لا يزال يرفع الشعر ويعليه ويغرى الناس به فيُجددهُ ويُحييه، وحسبك أن المشتغلين بالقريض عموماً والمطبوعين منهم خصوصاً لا يتطلعون إلى غباره ولا يجدون الهدى إلا على مناره، هذا مع اعترافى بأن المتنبى صاحب اللواء، والسماء التى ما طاولتها فى البيان سماء"... ولكنه قال "ولو سلم من الغرور وسلمت الناس منه لأجللته إجلال الأنبياء"(١)، كما يقول عنه شوقى:

هو قد بَزَّ قائل الشعر ميتا ... كيف يلقاه وقائل الشعر حيّا(٢).

وشهد شاهد من أهلها، فبعض النقاد الذين تحاملوا على المتنبي، لم يُخْفوا إعجابهم به، يقول الثعالبى عن محاسن شعر المتنبى: "فتَجَلَّت ببراعته في دقة الإشارة، وحُسُن المطلع والتخلص وجمال التشبيه، وحسن تقسيم القَصيدة، وإرسال المثل الشارد، وشكوى الدهر والدنيا، والإبداع فى مخاطبة الممدوح والغوص على المعانى القوية العَميقة، وتوليد الصور بخيال رحب مُحلّق، ووصف القتال وأدواته، واستقامة الأسلوب وقوته مع تيسير طرائق البيان".

هل يوجد تعظيم لشاعر أعلى مما جاء في هذا النقْد.

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٣٦ . دكتور مصطفى الرفاعى منشأة المعارف بالإسكندرية ٢٠٠٠م.

(٢) الشوقيات المجهولة ج٢، ٢٦٩ . دكتور محمد صبرى دار الكتب ١٩٦١ - ١٩٦٢م.

وفي الرسالة التي كتبها الصاحب بن عباد في "الكشف عن مبادئ المتنبي" يجمع فيها أبياتا من مختارات شعره ويقدمها لفخر الدولة بن بويه[١] والصاحب كما نعلم هو من خصوم المتنبى.

أما فى عصرنا الحديث فقد هاجمه بعض النقاد ولعلهم فى ذلك متأثرين بما كتبه العسكرى والصاحب وابن خالويه منذ أكثر من ألف عام! ولكن نقاد عصرنا لم ينكروا بلاغة المتنبى وعبقريته.

يقول الأستاذ سليم عبد الأحد: إن المتنبى كان تاجراً من تجار الأدب، واستشهد عن ذلك بقول المتنبي:[٢]

فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قلّ مَجدُهْ

وقد بَيَّنا أن المتنبى لم يكن تاجرا من تجار الأدب ولكنه كان ذا كبرياء وشموخ، يَتَحَلّى بعظمةٍ أدبية واعتداد بالنفس، وفَرضَ على الملوك والأمراء أن يحترموه. وربما كان خطأه الوحيد هو رحيله إلى كافور الإخشيدى ومدحه ثم ذَمُّهُ، وقد دفع ثمن ذلك غاليا من سمعته ومن كرامته.

ويؤكد خليل مطران أن أبا الطيب المتنبي كان عبقريا، وأنه قال الشعر كأحسن ما قالته العرب إلى زمنه، وبزّ بطائفة من أبياته وقصائده كل قائل من قبل ومن بعد، ولكنه يقول [٣] "كيف نفهم أن يلزم المتنبى فى قرض القريض خطة الشتات والخلط بين الأغراض المتباينة فى نظم القصيدة الواحدة"!

---

(١) أبو الطيب المتنبي شاعر الطموح والعنفوان ٨٧ .
(٢) أبو الطيب المتنبى حياته وشعره ٨٠ .
(٣) أبو الطيب المتنبى حياته وشعره ٢٦ .

فمطران يرفض أن تكون القصيدة الواحدة متعددة الأغراض، ويرمى إلى أن تكون القصيدة ذات غرض واحد كالمدح أو الهجاء أو الوصف أو الحكمة، ونحن نرى أن مثل هذه القصيدة التى يقترحها مطران تكون في منتهى الرتابة والملل. فالقصيدة العربية منذ العصر الجاهلى كانت تبدأ بالغزل والوصف ثم ينتقل الشاعر إلى الهدف الذي يقصده .... وهذا التَّنوُّع فى الأغراض يضيف إلى القصيدة جمالاً وقبولاً، مثلها كمثل باقة جيدة التنسيق من الورد الأبيض تحوطها إطار من ورود تتعدد ألوانها.

وقصيدة "ليالى بعد الظاعنين شُكول"[1] هى مَثَلٌ واضح لهذا التَعدد، وهى من أجمل قصائد المتنبى إن لم تكن أجملها على الإطلاق. وهو يصف فيها المعركة التى انتصر فيها سيف الدولة على الروم وكان المتنبي مشتركا معه في القتال.

وكما بيننا من قَبْل، يبدأ المتنبي قَصيدته بأرق أبيات الغزل،

لَيَالِيّ بَعد الظَّاعنينَ شُكول .... طوالٌ وليلُ العاشقينَ طَويلُ
يُبِنَّ لي البدر الذي لا أريدُهُ ... ويُخفين بَدراً ما إليه سبيل
وما شرقي بالماء إلا تَذَكُّراً ... لماءٍ به أهل الحبيبِ نُزُول

ثم ينتقل ببراعة إلى وصف المعركة الحربية فيخيل للقارئ أنه في وسط المعركة، يسمع صهيل الخيول وقراع السيوف:

وخيلٍ بَرَاها الركضُ في كل بلدةٍ ... إذا عَرَسَتْ فيها فليسَ تَقيلُ
سحائبُ يُمطرْنَ الحديدَ عليهمُ ... فكل مكانٍ بالسيوف غَسيلُ
تَملُّ الحصونُ الشُمُّ طول نزالنا ... فتُلْقي إلينا أهلَهَا وتزول

(١) ديوان المتنبي ٣٥٥ .

ثم يفخر بنفسه، ويثرى القصيدة بباقة من أبلغ أبيات الحكمة:

أنا السابقُ الهادي إلي ما أقولُهُ ... وإذا القَوْلُ قبل القائلينَ مَقُولُ
يَهونُ علينَا أن تُصاب جُسومُنا ... وتَسْلَم أعراضٌ لنا وعقولُ

كما يضع فى القصيدة أبياتا لمدح سيف الدولة الذى انتصر فى هذه المعركة:

فَدَتْكَ ملوكٌ لم تُسَمَّ مَواضِيًا ... فإنّك ماضِي الشّفْرَتَين صَقيلُ

ولا يخفي على القارئ الجمال الذى أضافته تعدُّد الأغراض فى هذه القصيدة.

وفى شعر شوقى نجد مثل هذا التعدد في القصيدة الواحدة، ففى قصيدة وصفه لمعبد أنس الوجود بأسوان، يصف المعبد فيقول:(*)

قف بتلك (القصور) في اليّمِ غرقَي ... مُمْسكا بعضها من الذعر بعضا
حار فيك المهندسون عقولا ... وتولّت عزائم العِلمِ مرضي

ثم يمدح ملوك مصر القديمة:

أين فرعون فى المواكب تترى ... يركض المالكين كالخيل ركضا
ساق للفتح للمالك عرضا ... وجلا للفخار للسلم عرضا

ثم يهاجم روزفلت رئيس الولايات المتحدة الذى كان يزور المعْبَد بعد عودته من السودان وإلقائه خطبه، أنكر فيها المطالب الوطنية المصرية، قال يأنّبُه:

اخلع النعل واخفض الطرف واخشع

لا تحاول من آيةِ الدهْرِ غَضّا

(*) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٥٣ .

ثم يفخر بمصر فيقول:

وأنا المُحْتفي بتاريخ مصر ... من يَصُنْ مجد قومه صان عِرضَا

ألم يُثْرِ هذا التعدد القصيدة ويزيد من جمالها ومن قيمتها الأدبية؟

وإذا اختلف الناس فليحتكموا إلي الزمن فهو القاضى العادل الذى لا يميل مع الهوى. ولقد مرّ ألف عام ومحى الزمن العسكرى والصاحب وابن خالوَيه وباقى الحاسدين الذين تجنُّوا على المتنبي، وقضى للمتنبي بأن يكون إمام شعراء العربية خالدا خلود الدهر وشوقى يقول:

ودَعْ كل طاغيةٍ للزمانِ ... فإن الزمان يُقيم الصَعَرْ

والمتنبى يقول:

وما الدهر إلا من رواةُ قصائدي ... إذا قلتُ شعرا أصبَح الدهرُ مُنْشداَ

ويهاجم الأستاذ عبد الرحمن صدقي(*) المتنبي ويتهمه بأنه مريض نفسى بجنون العظمة - وأن مبعث ذلك الصلف والخيلاء - ويقول إنه كان ينفخ شدقيه بالتفاخر والتعاظم بنفسه وبعشيرته، وكان عنده غلواء الكِبْر والتعالى عن الخَلقْ - ويستطرد الأستاذ صدقى "والذى يُرْوى عن تعاظم المتنبى كثير ونحن لا نستكثره عليه، وإنما نستكثره لخروجه عن المألوف فى زمنه، فقد اشترط على سيف الدولة أول اتصاله به أنه إذا أنشد مديحه، لا ينشده إلا وهو قاعد، وأنه لا يُكلّف بتقبيل الأرض بين يديه"!!

فالأستاذ صدقى يعتبر أن هذا التصرف، تَعاظم للمتنبى وخروج عن المألوف في زمنه!. فهو يهاجم المتنبى لأنه رَفَضَ الوضع المهين للشاعر

(*) أبو الطيب المتنبى حياته وشعره، ٦١

والأديب. فالمتنبي ثار على هذه المهانة، ونجح في الخروج منها، فاستردَّ للشاعر كرامته، وللشعر مكانته بعد أن كان الشعراء لا مكان ولا مكانة لهم في قصور الحُكّام.

فالأستاذ صدقي يعتبر ذلك العمل نقيصة للمتنبي، ويري أن الصواب أن يركع الشاعر ويُقَبِّل الأرض بين أقدام الأمراء.

ويستطرد الأستاذ صدقي فيقول "ولما سار المتنبي إلي كافور كان يقف بين يديه وفي رجله خفّان وفي وسطه سيف ومنطقه وكان يركب مع مماليكه وهما بالسيوف والمناطق، وإذا كان على هذا المنال مسلكه مع الأمراء وهم ممدوحوه يقصدهم للنوال فقد غنينا عن إطالة الكلام في تعاظمه على سائر الناس"!

فالأستاذ صدقي يعتبر أن سلوك المتنبي هذا، هو نقيصه أخرى - ما شاء الله، فربما كان يرى أنه من الأصوب أن يقف المتنبي أمام كافور ذليلا ويسير في شوارع مصر حافي القدمين!!

وأرى أن إصرار المتنبي على احترام نفسه واحترام فنّه وإصراره على أن يكون في وضع اجتماعي عال كأكبر رؤوس الدولة إن لم يكن أكبر منها، (فقد كان الوزراء يُقَبّلون الأرض أمام سيف الدولة)، أرى ذلك فضيلة وفضلاً كبيراً بدأه المتنبي لرفعة الأدب والأديب.

أما الأستاذ طاهر الطناحي(*) فقد رفض إتهام النقاد للمتنبي بوصمة الكِبْر وجُنون العظمة. ويرى أن المتنبي كان له كبرياء في شعره. يقول :

(*) أبوالطيب المتنبي حياته وشعره، ٦٦ المطبعة الحديثة للطباعة والنشر بيروت ١٩٨٢م.

"ونجد للمتنبي عظمة أدبية، واعتداد بالنفس، وصونا لكرمةِ الأدب والأديب عن الصُعلكة والمهانة في مجالس الملوك والأمراء".

ويرى الأستاذ الطناحى أن المتنبي بزّ كل معاصريه من كبار الشعراء الذين عاصروه في عصر يُعّد من أقوى عصور اللغة العربية وأسماها فى نواحى الأدب والثقافة والعلم، فقد عاصر المتنبي شعراء كبار مثل أبو فراس الحمدانى ، والسرى الرفّاء، وابن نباتة السعدى وابن هانئ الأندلسى. فإذا ظهر المتنبي على هؤلاء جميعا ، فإن فى ذلك نبوغاً وتفوقاً عظيماً لا يبيح للكاتب أن يتهم المتنبي بالغرور.

ويقول الأستاذ الطناحى، لقد حافظ المتنبى على كرامته، وفرض علي الملوك والأمراء أن يطأطئوا له الرؤوس احتراما ويجلسوه فى مجلسهم خير جليس. ويروي الأستاذ الطناحى أن الشريف أبا القاسم طاهر العلوى أجلس المتنبى في المرتبة التى كان فيها ، وجلس هو بين يديه!.

وكان المتنبى لا يمدح إلا الملوك والأمراء ومن يراه جديراً بالمدح من الأدباء كالفضل بن العميد ومن أصدقائه كأبو شجاع فاتك بمصر. ورفض المتنبى مدح الوزير المهلبي، والصاحب بن عباد ، والمحافظ إسحق بن الأعور وأصرّ على الرفض مما سبب له كثيراً من الخصومات والمشاكل، فكيف يُقال إنه كان يسعى لجمع المال من ممدوحيه.

ويرى الأستاذ الطناحى "أن كبرياء المتنبى وشعوره بالعظمة هما فضيلتان فى جميع ظروفهما المحيطة بهما ، وفى حالة صاحبهما الذى كان يرى الأدب مكانة ممتازة ليست دون مكانة الأمارة والملك" ونحن نتفق مع الأستاذ الطناحى فيما يراه.

تجنّي النقاد على شوقى

وكما تجنى الصاحب بن عباد والعسكرى والحاتمى على المتنبي، تجنّى العقاد والمازني والدكتور مندور والدكتور شوقى ضيف على أحمد شوقى.

هاجم العقاد شوقى بعنف وضراوة ولم يعترف به شاعراً وكان يردد:

شوقي تولاه عباسٌ فأظهره ... واليوم يُخْمله في الناس عباسُ(١)

وعباس الأولى هو الخديوى عباس حلمى الثانى والثانية هو عباس العقاد، والبيت يبين ما يحمله العقاد لشوقى من عداء شخصي. وعندما كتب العقاد عن شُعراء مصر، وضع اسم شوقى فى أسفل القائمة ووضع فوقه شعراء مغمورين لم يسمع عنهم أحد (على الليثى ومحمد عثمان جلال!) أما النقد الذى وجهه العقاد إليه فهو أبعد ما يكون عن الحقيقة والصواب، اتهم شوقى فى وطنيته، يقول " إن بيئة شوقى هى بئية الترك المتمصرين الذين عَنَوا بالجامعة الدينية أكثر من عنايتهم بالوطنية المصرية، لأنهم ينزلون من الأولى في منزلتهم ويسوغون بها سيادتهم ودرجاتهم"(٢).

فقد رأى العقاد أن انتماء شوقى للأمة الإسلامية نقيصة تستوجب التأنيب، لقد دافع شوقى عن الدعوة الإسلامية بقصائد خالدة رددها وسوف يرددها المسلمون أبد الدهر:

والدين يُسر والخلافة بيعة ...والأمر شوري والحقوق قضاء(٣)

داويتَ متئداً وداووا طفرةً ... وأخفَّ من بعض الدواء الداء

---

(١) شوقي وقضايا العصر والحضارة ص ١٩٣

(٢) مجموعة أعلام الشعر عباس العقاد ص ٣١٥

(٣) الشوقيات الصحيحة ج١، ٤٠

والبيت الثانى يظهر فيه بصيرة شوقى، فهو يقول إن الإسلام عالج الفقر على مراحل أما الشيوعية فقد حاولت مداواته طفرةً واحد، ويرى شوقى أن هذا الأسلوب في العلاج أسواء من الداء (الفقر) وكان فى ذلك متنبئاً بسقوط الشيوعية.

أما الشق الثانى وهو اتهّام شوقى فى ضعف وطنيته المصرية فأرى أن الأستاذ العقاد قد جانبه الصواب هنا أيضاً، فالذى قال:

وطني ولو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي[1]

ويا وطني لقيتك بعد يأسٍ ... كأني قد لقيت بك الشبابا[2]

أدير إليك قبل البيت وجهي ... إذا فهمت الشهادة والمثابا

إني أُحبُ وإن شقيت به ... وطني وأُوثره علي الخلد

وشوقى الذى نفى من مصر خمس سنوات لمهاجمته للسلطان حسين كامل والإنجليز الذى أعلنوا الحماية البريطانية على مصر سنة ١٩١٥، وشوقى الذى هاجم الملك فؤاد من أجل الدستور وهدد بالثورة سنة ١٩٢٦:

وجواهر التيجان ما لم تُتَّخَذْ ... من معدن الدستور غير صحاح[3]

صوت الشُعوبِ من الزئير مُجَمَّعاً ... فإذا تَفَرَّق كان بعض نِباح

شوقى الذى قال كل ذلك فى حب مصر لا يمكن أن يُتَّهم بضعف وطنيته المصرية...

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج٢، ٤٣

(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٦٦

(٣) الشوقيات الصحيحة ج٢، ١٥٢

ولم يكتف العقاد بذلك بل انتقد مجموعة أبيات من أجمل وأبلغ ما قاله شوقى . يقول العقاد "يري القارئ أيات فى الجودة كأحسن ما تكون الآيات، ولكن ليس فيها بيت واحد يحتاج إلى طبيعة يولد بها الإنسان ولا تكسب بالتدريب ورياضة الذهن واللسان وليس فيها معنى واحد يتعدّى (كياسة التَعبير) التى يحذقها السمير والنديم ارتجالا كما حذقها شوقى بالرَوِيّة وعلاج النظم والسكوت عليه، وهى شيء لا يفوت أحد ملك صناعة النظم وتَفَرّغ له أربعين سنة كما تفرّغ شوقى فى البيئة التي نشأ فيها"(*)..... والنقد كما نراه مُبْهم، كما يظهر فيه الحسد الطبقى الذى يحمله العقاد لشوقى، وهو الشيء الذى كنت لا أود أن يَجْنَحْ الأستاذ العقّاد إليه وسأتناول مثلين من الأبيات التى استشهد بها الأستاذ العقّاد:

المثل الأول:

أفضي إلي ختم الزمان ففضّه ... وأتي إلي التاريخ في محرابه
ومضي القرون القهقري حتي أتي ... فرعون بين طعامه وشرابه

والبيتان من قصيدة "توت عنخ آمون"، يُكرّم فيها شوقي اللورد كارنفونا مكتشف المقبرة..... ولما سمع حافظ إبراهيم هذين البيتين قال "لقد قتلنى شوقى" قاصداً لقد بَزّه وتفوق عليه!

أما المثل الثانى:

يسمع الليل منه في الفجر يا
ليل فيصغي مستَمهلاً في فَراره

(*) مجموعة أعلام الشعر ص ٣٦٩، دار الكتاب العربي، لبنان.

وهذا البيت من قصيدة فى رثاء عبد الحمولى المطرب المعروف، وجمال المعنى وروعته لا تحتاج إلى تعليق.

هل يوجد تَجنٍّي أكثر من ذلك....... وكأن العقاد أطلق نفير الحرب ضد شوقى فانضَم إليه المازنى وغيره من النقاد يهاجمون شوقى.

وكما تصدى أبو العلاء المعرى وابن عدلان وابن جنّى للنقاد الذين تَجَنُّوا على المتنبي، تَصَدّى نُقّاد مُنْصِفُون لمن تجنّوا على شوقي، يقول الدكتور زكى مبارك(*) "إن أناسا كانوا يودُّون لو هدموا شوقي، ومن أولئك الناس رجال أحترمهم وأرى فيهم مخايل العبقرية، ولكنهم أولعوا بالنيل من ذلك الرجل وسلكوا فى هدمه شتى الشعاب، وكان الرجل عظيم الشاعرية حقاً، وكان أصلب من أن تَنال منه معاول الهدامين، فعادوا يتمسحون بأعتاب الخلق الوطنية وكان لهم فى ذلك جولات رسم خطواتها الشيطان. والأخلاق الوطنية عُكّازُ يتوكأ عليها كل مغرض حقود. وستظل الأخلاق الوطنية دعامة يستند إليها ضعاف النفوس والعقول ما دام أهل الشرق يحسنون الاستماع إلى أدعياء الوطنية والأخلاق".

ويقول طه حسين "شوقى فى رأيي أعظم شاعر عرفته العربية بعد المتنبي" فيقول زكي مبارك: "إنى أرى أنه أشعر من المتنبي. لقد استطاع ذلك الرجل الصامت أن يكون أشعر الناس فى زمانه لأن العبقرية سرٌ مكنون ويقول خليل مطران: "ينظُم بين أصحابه فيكون معهم وليس معهم، وينظم في المركبة وفى المجتمع الرسمى. وحين يشاء وحيث يشاء... فإذا قوطع فى خلال النظم انتقل إلى أى بحث يباحث فيه حاضر الذهن صافيه جميل

(*) أحمد شوقي، زكي مبارك ص ٢٦٥ - ٢٦٦ . المكتبة الناصرية بيروت ١٩٨٨.

المبادرة كعادته في الحديث".

وأخيراً يعود المازنى إلى الصواب، والرجوع إلي الحق فضيلة، فَيُعلن فى حفل تأبين حافظ إبراهيم بأنه هو وغيره دأبوا على مهاجمة حافظ وشوقى بدون وجه حق لكى يَهْدُموهما ، وهو يعلن ندمه على ذلك...

ويرثى شوقى حافظ....

من كلِّ هدّام ويبني مجده ... بكرائم الأنقاض والأشلاءِ(*)
ما حَطَموكَ ولكن بك حُطِّموا ... من ذا يُحطِّم رفرف الجوزاء
أنظر فأنت كأمس شأنك بازخٌ ... في الشرق واسمك أرفَعُ الأسماء

وربما يكون شوقى قصد نفسه كما قصد حافظ في هذه الأبيات.

ويعود العقاد إلي الحق فيّ أخريات أيامه يقول "كان أحمد شوقى علما فى جيله، كان علما للمدرسة التي انتقلت بالشعر من دور الجمود والمحاكاة الآلية إلى دور التصرف والابتكار، فاجتمعت له جملة المزايا والخصائص التى تفرقت فى شعراء عصره، ولم توجد مزية ولا خاصة قط فى شاعر من شعراء ذلك العصر إلا كان لها نظير فى شعر شوقي من بواكيره إلي خواتيمه، وربما تساوت أو تفاوتت، وربما كثرت أو قلّت، ولكنها على أية حالاتها موجودة على صورة من الصور في كلام شوقي محسوبة بين غرره وآياته، أو بين مآخذه وهفواته على نحو من الأنحاء وجملة ما يقال عن مكان شوقى فى مدرسته أنه كان صورة كبيرة لتلك المدرسة تشبه الصورة الصغيرة فى ملامحها ولكنها تكشف للناظر ما ليس ينكشف فى الصور

(*) الشوقيات الصحيحة ج٣، ٢٤

الصغيرة لمن يريد التحقيق والتحليل، ومثله فيما بينه وبين زملائه من فارق كمثل الرسم الذى يكبره الباحث ليرى فيه الخفايا من الشيات والظلال، فهو هدف المتأمل والناقد وهو ملتقى الأنظار الفاحصة حيث ينبغى أن يلتقى للحكم على الصور جميعا من محمود ومنقود"[١]

وتمر السنون ويمضى شوقى ويمضى العقاد ويظل شوقى أميراً لشعراء العربية ويظل شعره خالدا خلود الزمن، ولكن أين العقاد الشاعر الآن؟، رحم الله شوقى ورحم الله العقاد كاتب الشرق العظيم.

وعندما هاجم العقاد شوقى، انضّم إليه عددا من كبار النقاد يهاجمون شوقى ويتجنُّون عليه، وكأن الأستاذ العقاد أطلق نفير الحرب على شوقي.

قدم الدكتور مندور نقداً لشعر شوقي، وكان فى ذلك النقد متجنّيا على شوقي وعلى وطنية شوقي.[٢]

كان شوقي قد نظم قصيدة بمناسبة اعتلاء السلطان حسين كامل عرش مصر:

الملك فيكم آلُ اسماعيلا ... لازال بيتكم يَظّل النيلا[٣]

فهاجمه الدكتورمحمد مندور: "إن شوقى حاول أن يتقرب من السلطان الجديد ومن الإنجليز الذين أتَوْا بالسلطان إلي العرش، لعله ينجو بنفسه واستشهد على ذلك بقول شوقي:

---

(١) الديوان فى الأدب والنقد طبعة القاهرة الثالثة سنة ١٩٧٢ دار الشعب، ج١، ٥٠-٥٦، ج٢، ١١٥-١٦٩

(٢) أعلام الشعر العربى الحديث ٥٩ . (٣) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢١٠

حلفاؤنا الأحرار إلا أنهم ... أرقي الشعوب عواطفا وميولا
أعلي من الرومان ذكرا في الوري ... وأعزُّ سُلطانا وأمنع غيلا
لما خلا وجه البلادِ لسيفهم ... ساروا سَماحا في البلاد عدولا
وأتوا بكابرها وشيخ ملوكها ... ملكا عليها صالحا مأمولا

ونحن لا ننكر أن هذه القصيدة فيها ولاء للأسرة المالكة واسترضاء للإنجليز ولكن لاأرى فيها مدحا، فالرومان كانوا من أسوأ الحكام الذين حكموا مصر وقد قال عنهم شوقي.

فاصبري مصر للبلاء وأني ... لك والصبر للبلاء بلاء[1]

فكيف يمدح شعب بأنه أعلى قدراً من الظالم، ولو كان شوقى مخلصا فى مدحه للإنجليز لقال "أعلى من اليونان" فقد قال شوقى عن اليونان:

شاد اسكندر لمصر بناءً ... لم تشدهُ الملوك والأمراء
بلداً يرحل الأنام إليه ... ويَحجُّ الطلاب والحكماء

وحتى لو فرضنا أن ما قاله شوقى فيه مدح للإنجليز، فإن شوقى لم يكن المادح الوحيد، بل آخر من مدحهم، وقد سبقه إلى ذلك حافظ إبراهيم الذى لا يشك أحد فى وطنيته. ويوجه حافظ إبراهيم كلامه إلى السلطان حسين كامل:

ووال القوم أنهم كرامٌ ... ميامينُ النقيبةُ أين حلّوا[2]
لهم مُلكٌ علي التايمز أضحت ... ذراه علي المعالي تُستَهل

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٥ .

(٢) ديوان حافظ إبراهيم، ٧٠ .

ولكى نكون منصفين لابُدَّ وأن نرجع إلى الزمن الذى كانت تَمُرُّ به مصر فى هذه الفترة الحَرِجة، فالإنجليز كانوا يحكمون ويتحكمون بقوة السلاح، فأعلنوا الحماية البريطانية على مصر، وعزلوا عباس الثانى عن العرش - وأصبحوا فى منتهى العنف والشراسة نيتجه لهزائمهم المتكررة في الفترة الأولى من الحرب .... ولو غضب الإنجليز أكثر من ذلك، فربَّما يسقطون النظام الملكى ويجعلون مصر مستعمرة كالهند مثلا - ولابد أن الشعراء وعلى رأسهم حافظ إبراهيم شعروا بالموقف العصيب فهادنوا الإنجليز، ورأوا أن تولية سلطان بدلا من سلطان، يحفظ لمصر حقّها فى نظام الحكم. فكما رأينا فلم يكن شوقي منفردا بهذا الموقف، بل كان آخر من تكلّم من الشعراء، وكان مثلهم مُتَخَوِّفا ويظهر ذلك في قوله:

حفظ الإله علي الكنانة عرشها ... وأدام منكم للهلال بديلا(*)

ويستمر الدكتور مندور في هجومه على شوقي فيقول "ومع ذلك لم ينفعه استرضاء "السلطان حسين كامل، ولا استرضاء الإنجليز، ولا تَنَصُّله الخَفّى من التبعية والولاء لعباس الثانى، فحمله الإنجليز على مغادرة البلاد منفيًا بعد عزل عباس الثانى عن العرش"

ونحن نرفض هذا النقد رفضًا تاماً، ونرى أن الدكتور مندور خرج عن أسلوب البحث العلمى الصحيح كما سنبيِّن:

فإن الإنجليز لم ينفوا شوقي من أجل الأبيات التى ذكرها الدكتور مندور، ولكن للأبيات التى قالها شوقي في نهاية القصيدة، مهاجما السلطان والإنجليز بكل قوة وكل شجاعة:

(*) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢١٠ .

هل كان ذاك العهد إلا موقفا ... للسلطتين وللبلاد وبيلا
يَعتزّ كلُّ ذليلِ أقوامٍ به ... وعزيزكم يلقي الحياةَ ذليلا
وانْفَضَ ملعبه وشاهدهُ علي ... أنّ الروايةَ لم تَتم فصولا

وأصبح البيت الأخير مثلا يردده الناس .... وكثر القيل والقال...

ويقول فى ذلك الدكتور زكى مبارك: "قال الشيخ حسين مخلوف عندما قرأ هذه القصيدة، إن الإنجليز سوف ينفون شوقي لهذه القصيدة، ففيها حَضٌ على الثورة وفيها تعريض بالسلطان، وفعلا نَفى الإنجليز شوقى بعد أسبوعين"[1]

وأرى أن الدكتور مندور لم يكن منصفا بحجب هذه الأبيات التى أنهى بها شوقى قصيدته والتى تفيض شجاعة ووطنية، والتى انفرد بها شوقي دونا عن باقى الشعراء، وكانت سببا لنفيه من مصر.

أليس نقد الدكتور مندور ينطبق عليه القول السائد "ولا تقربوا الصلاة".

كما هاجمه الدكتور شوقي ضيف[2]، وقال إن أحمد شوقي كان "بعيدا عن الشعب قبل المنفى". واستشهد الدكتور ضيف ببعض أبيات من قصيدة شوقي الذى يهاجم فيها رياض باشا رئيس وزراء مصر لأن رياض باشا كان قد أشاد باللورد كرومر وكفر بالخديوي عباس ودولته.

قال الدكتور ضيف إن شوقى "لم يغضب لوطنه، ولم يغضب لشعبه، وإنما غضب لأميره، فلم يكن يفهم حينئذ حق الفهم سوى سلطانه، ولم يكن يدور بخلده سوى القصر الذى يعيش فيه، قصر الأسرة العلوية الذى يتربع عباس

(١) أحمد شوقى زكى مبارك، ٢٩٠ . (٢) شوقى شاعر العصر الحديث ١٨ .

على أريكته" ونحن نرى أن الدكتور ضيف لم يكن منصفاً، ففى هذه القصيدة يُوَجه شوقى حديثه إلى رياض باشا:(*)

كبيرَ السابقين من الكرامِ ... برغمي أن أنالك بالملام
لهجتَ بالاحتلال وما أتاه ... وجُرحُك منه لو أحسستَ دامي
فهلا قلتَ للشبان قولا ... يليق بحافلِ الماضي الهمام؟
يَبُثُّ تجاربَ الأيامِ فيهم ... ويدعو الرابضين إلي القيام
جنيتَ علي قلوب الناس يأسا ... كأنك بينهم داعي الحِمام
فيا تلك الليالي لا تعودي ... ويازمن النفاق بلا سلام
أحبكِ مصرَ من أعماقِ قلبي ... وحُبُّكِ في صميم القلب نامي
سيجمعُني بكِ التاريخُ يوماً ... إذا ظهر الكرامُ علي اللئام
وهبتكِ غيرَ هيَّابٍ يراعاً ... أشدَّ علي العدوِّ من الحسام

فأحمد شوقي يغضب لمصر، ويرفض الاحتلال، ويلوم رياض باشا لإشادته باللورد "لهجت بالاحتلال وما أتاه". ويقول لرياض باشا أما كان الأولى بك أن تحرّض شباب مصر على الانتفاضة ضد الإنجليز "ويدعو الرابضين إلى القيام".

ثم يتغَنَّى بحبه وهيامه لمصر، وحبّك في صميم القلب نامى"، ويُصَرّ بشجاعة على محاربة الإنجليز:

وهبتك غير هيَّابٍ يراعا ... أشَدَّ علي العدوِ من الحسام

هل يوجد غضب للوطن وللشعب أقوى من ذلك، وهل يوجد انتماء لمصر

(*) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٤٩

أعمق وأنبل من ذلك!

كما استشهد الدكتور ضيف بقصيدة "وداع اللورد كرومر"

فقال[١] "ويذكر شوقي أعمال محمد علي واسماعيل، ويغضب غضبة قوية للأسرة العلوية، وهو في غضبه لا يستمد من الجذوة الكبيرة الهائلة، جذوة الشعب، وإنما يستمد من جذوة ضعيفة هي جذوة الأسرة العلوية".

ونحن نرى أن الدكتور شوقي ضيف لم يكن منصفا هنا أيضاً، ففي هذه القصيدة يهاجم شوقي الإنجليز واللورد كرومر بكل شجاعة:[٢]

أيامُكم أم عهدُ إسماعيلا؟ ... أم أنت فرعونٌ يسوسُ النيلا؟
لما رحلتَ عن البلادِ تشهدت ... فكأنك الداءُ العياءُ رحيلا
أنذرتنا رِقًا يدوم وذلةً ... تبقي وحالاً لا تري تَحويلا
أحسِبتَ أن الله دونكَ قدرةً ... لا يملكُ التغييرَ والتبديلا

ثم يقول عن الحكومة الإنجليزية:

اليوم أخلفت الوعودَ حكومة ... كنا نظُن عهودها الإنجيلا
دخلت علي حكمِ الوداد وشرعه ... مصرا فكانت كالسُلالِ دُخولا

ويعرض باللورد كرومر:

أم من صيانتك القضاء بمصر أن ... تأتي بقاضي دنشوايَ وكيلا

فاللورد كان قد عيّن فتحى زغلول وكيلا لوزارة الحقانية (العدل)، وهو

(١) شوقى شاعر العصر الحديث ١٨ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٠٧ .

أحد القضاة الذين حكموا فى محكمة دنشواى، فهو يقول له أنك رقَيْتَه إلى هذا المنصب مكافأة له علي حكم المحكمة الجائر.

ويستمر في مهاجمة اللورد لتعمده إضعاف الجيش المصرى:

أم هل يَعُدّ لك الإضاعةَ منّةً ... جيشٌ كجيش الهنِدبَاتَ ذَليلا

انظر إلي فِتيانه ما شأنُهم ... أو ليسَ شأناً في الجيوش ضئيلا؟

حرّمتهم أن يبلغُوا رُتب العُلا ... ورفعتَ قومَك فَوقَهم تفضيلا

فإذا تطلّعت الجيوشُ وأمّلَت ... مستقبلاً لم يملِكوا التأميلا

ثم يدافع عن الدين الإسلامى، وكان اللورد قد طعن على الدين الإسلامي سنة ١٩٠٦، فزعم أنه دين لا يصلح لهذا العصر:

من سبَّ دينَ محمدٍ فمحمدٌ ... متمكنٌ عند الإله رسُولا

أبعد كل هذا يقول الدكتور ضيف " إن شوقى لم يغضب لوطنه ولم يغضب لشعبه" أما ما ذكره الدكتور ضيف من أن شوقى يذكر أعمال محمد على وإسماعيل، فإن شوقي ذكر ذلك رداً على مَنّ اللورد المتكرر على مصر والمصريين، وادعائه أنه جلب الحضارة إلى مصر، التى لم يكن لها منها شيء، يقول:

كم منّةٍ موهومةٍ أتبعتَها ... منّاً علي الفَطن الخبير ثقيلا

فى كل تقريرٍ تقولُ خلقتكم ... أفهل تري تقريرَك التنزيلا؟

فكان لابد لشوقى أن يردّ اللورد، فيقول له: كان عندنا حضارة قبل أن تحضر إلينا، وكنا دولة كبرى بها مدارس عليا، ومدن حديثة ونظام دقيق للرى والزراعة وجيش قوي وأسطول.

هل يمكن لأحد أن ينكر فضل محمد على، وإبراهيم وإسماعيل. ألم يهزم محمد على الإنجليز في معركة الحماد ويطردهم من مصر، ألم ينشىء محمد على الدولة الحديثة، ألم يُشَيِّد المدارس العصرية، ألم ينظم الرى ويدخل زراعة القطن، ألم يبنى الجيش والأسطول ويعطى المصريين شرف الجندية بعدما حُرِموا منها مئات السنين - هل لأحد أن ينكر فتوحات إبراهيم باشا وانتصاراته العسكرية - ألم يدخل اسماعيل باشا الحضارة إلى مصر، التعليم، والبرق السكة الحديدية، فقد مدّ منها ألف ميل. كما أدخل المياه والكهرباء إلى المنازل. وعندما يفتخر شوقي بإنجازات حُكّام مصر، فهو يدافع عن مصر أمام اللورد المتعجرف، فالحكام هم رمز الدولة، لا جدال فى ذلك، ولا نرى فى ذلك أن شوقى تخلى عن جذوة الشعب كما ذكر الدكتور ضيف، يقول شوقي فى إنجازات حكام مصر:

وحياةَ مصر علي زمان محمد ... ونهوضَها فى عهد إسماعيلا (*)
ومدارسا يبني البلادَ حوافلا ... حظّ الفقير بهنّ كان جزيلا
ومعاقلا لا تُمّحي آثارها ... وجيوشَ إبراهيم والأسطولا
وجداولا بين الضياع جواريا ...تذر اليبابَ مزارعا وحقولا
ومدائنا قد خُطِّطت وطرائقا ... كانت حُزوناً فاستحلنَ سُهولاَ
والقطن مزروعاً بفضل محمدٍ ... في مصر محلوجاً بها مغزولا
قد مدّ إسماعيلُ قبلَك للوري ... ظلَّ الحضارة في البلاد ظليلا

وبعد دراستنا للقصيدتين اللتين استشهد بهما الدكتور ضيف، نجد أن في القصيدة الأولى لم يكن شوقى بعيدا عن الشعب قبل المنفى كما ذكر

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٠٧

الدكتور ضيف، وفى القصيدة الثانية رأينا أن شوقى استَمَّد غضبه من جذوة الشعب، خلافا لما قرره الدكتور ضيف. أى أن القصيدتين أظهرتا بوضوح انتماء شوقي لوطنه ولشعبه وكانتا فى صالح شوقى وليس في صالح نقد الدكتور ضيف.

ربما نوافق الدكتور ضيف بأن شعلة الوطنية عند شوقى بلغت ذروتها بعد المنفى، فقد زادت تجاربه وخبرته بالحياة كما ارتفعت ملكته الشعرية نُمُوًّا، وكيف لا تزيد هذه الوطنية اشتعالا، وقد اشتعلت فى مصر كلها بثورة سنة ١٩١٩ أليس شوقى جزءاً أصيلا من نسيج الشعب المصرى، ولكن هذه الشعلة كانت ثابتة وواضحة قبل المنفى، ألم يُنْفَ من مصر لمواقفه الوطنية!

ولقد كان الدكتور محمد حسين هيكل باشا من أكبر المعجبين بشعر شوقى ولكنه يقول فى المقدمة التي قدم بها الشوقيات: "وقد بلغ من حب شوقي للترك أن كان يعتبرهم مجموعة فضائل لا تشوبها نَقيصة" وذلك فى تعليقه على أن القصائد التى تحدث فيها شوقى عن الترك أكثر من القصائد التى تحدث فيها عن العرب، وأن قصائده التركية عميقة العاطفة – وقال الدكتور هيكل "إن مرجع ذلك أن الأتراك كانوا مَقَّر الخلافة وقبلة المسلمين الزمنية، يجرى فى دمهم فى عروق الشاعر الكبير".(*)

ونحن نختلف مع الدكتور هيكل فى تعليقه على أن القصائد التى تحدث فيها شوقى عن الترك أكثر من القصائد التى تحدث فيها عن العرب وأن قصائده التركية عميقة العاطفة.

فقد تحدث شوقي عن العرب في قصائد كثيرة، أكثر عددا من القصائد

(*) الشوقيات الصحيحة ج١، ١٤ .

التركية - فقصائده الوطنية التى قالها عن العرب بها عمق عاطفى يفوق القصائد التركية وعلى سبيل المثال لا الحصر: قصائد، شهيد الحق (مصطفى كامل)، رثاء مصطفى كامل، ذكرى دنشواى، مشروع ٢٨ فبراير (الدستور المصرى)، بعد المنفى، نكبة دمشق، استقلال سوريا، صقر قريش، أندلسية، الحرية الحمراء، رثاء عمر المختار (قائد ثورة ليبيا)، كما أن قصائده عن الدعوة الإسلامية أبلغ بيانا وأعمق عاطفة من قصائده التركية، وقد رَدَدَها وسوف يرددها العرب والمسلمون أبد الدهر.

نحن لا ننكر أن شوقى كان عثمانيٌّ الهوي، وأنه مدح الأتراك وافتخر بهم كرمز للخلافة الإسلامية ولكننا نختلف أيضا مع الدكتور هيكل من أن شوقى كان يرى الأتراك مجموعة فضائل لا تشوبها نقيصة، والحقيقة أن شوقي شعر بأن الامبراطورية التركية سائرةٌ إلى زوال للضعف والوهن والتخلّف الذى أصاب كيانها.

وكان يرى أن الأتراك تخلفّوا في مجال العلم، ففقدوا قوة الحاضر وقوة المستقبل وهي القوة التي سوف تحكم وتتحكم في حياة الشعوب. رأي ببصيرته أن الدنيا قد تغيّرت، وأن قوة السيف لا ترقى ولا تعادل قوة العلم، فقال موجها نصيحته إلى الترك:(*)

هذا الزمان تناديكم حوادثُهُ ... يا دولةَ السيف كُوني دولةَ القلمِ
فالسيفُ يهدمُ فَجْرا ما بنى سحراً ... وكلُّ بنيانِ علمٍ غيرُ مُنهدِمِ
وأصبح العلمُ ركن الآخذين به ... من لم يُقِم ركنَه العرفانُ لم يُقَمِ

ثم ينتقد الجيل الجديد من الأتراك الذى لا يؤمن إلا بالقوة، وينتقد

(*) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٦٧ .

معلمهم الذى لا يوجه النشأ إلي طريق العلم والثقافة:(١)

إني هتفت بكلّ يوم بسالةٍ ... للترك لم يؤثر من الآسادِ
فهززت نشئاً لا يحرّك للعلا ... إلا بذكر وقائع الأمجاد
عَصَف المعلم في الصبا بذكائهم ... وأصار نار شبابهم لرماد

ويعاتب شوقى الترك لتخلُّفهم عن ركب العلم الذى هو أساس بناء الأمم، ويُحَذّرهم من التفاخر بالتراث ومن الغرور:(٢)

هذا جناه عليكم آباؤكم ... صبراً وصَفْحاً فالجناةُ كرامُ
رفعوا علي السيفِ البناء فلم يَدُم ... ما للبناء علي السيوف دوامُ
أبقي الممالكِ ما المعارفُ أسُّه ... والعدلُ فيه حائطٌ ودعامُ
فإذا جرى رُشْدا ويمناً أمركم ... فامشوا بنورِ العلم فهو زِمام
ودعوا التفاخر بالتراث، وإن غلا ... فالمجدُ كسبٌ والزمان عِصام
إن الغرورَ إذا تَمَلّك أمّةً ... كالزهر يُخفي الموتَ وهو زؤام

فشوقي يقول للأتراك أن تَخَلّفكم العلمى، وعدم تمسككم بالعدالة وغروركم سوف يقضى على دولتكم.

وعندما خرج السلطان التركى وحيد الدين من الأمانى الوطنية، ومالأ أعداء بلاده واستَبَدَّ بالحكم، تصدى له شوقى وهاجمه:(٣)

ووليّا للطواغيت بها ... كان يُدْعي بأميرِ المومنين
ألبَسَ الإسلام ذُلاً وكسا ... خُلفاءَ اللهِ أثوابَ القَطِين

(١) الشوقيات المجهولة ج٢، ٢٠٦
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٢٧٨
(٣) الشوقيات الصحيحة ج١، ٣٠٤

أما تقييمه لحكم الأتراك فى مصر، فقد ذكره فى ملحمته الرائعة "كبار الحوادث في وادى النيل" فقال إنّ الحاكم التركى كان كآلةٍ صماء فى يد المماليك:[١]

وأذكر الترك أنهم لم يُطَاعوا ... فيرى الناس أحسنوا أم أساءوا
حكمت دولةُ الجراكس عنهم ... وهى فى الدهر دولةٌ عَسْرَاءُ
واستبَّدتْ بالأمر فباشا ... الترك فى مصر آلة صَمَّاءُ

وعندما أسقط مصطفى كمال الخلافة الإسلامية، ثار شوقى عليه ثورة عنيفة، وحذّره من مغبّة ذلك، ونبهه إلي أن زوال الخلافة الإسلامية سوف يقضى على وحدة الكيان الإسلامى.. وشوقى كان مُحقًّا فى ذلك، فقد انهار كيان العالم الإسلامى بعد سقوط الخلافة.

وقد قال شوقي فى قصيدته "خلافة الإسلام" مهاجما مصطفى كمال:[٢]

أفتي خُزُعْبلةً وقال ضلالةً ... وأتي بكفرٍ في البلادِ بَرَاح
إن الغرور سقي الرئيس براحه ... كيفَ احتيالك في صريع الراح؟
تركته كالشَبَحِ المؤلّهِ أمةً ... لم تَسْلُ بعدَ عبادةَ الأشباح

وكما نرى فقد هاجم شوقي الشعب التركي وحذّره من التخلف العلمى والغرور وعبادة الحاكم - وقال عن حُكّامه أنهم خونة ومغروررون ولا يحكمون بالعدل - وشوقي كان يرمي فى ذلك إلى الإصلاح وليس للإهانة .... أما تقييمه لحكم الأتراك فى مصر فقد كان تقييماً سيّئا، فقد تركوا المماليك

---

(١) الشوقيات الصحيحة ج١، ٣٢ .
(٢) الشوقيات الصحيحة ج١، ٣٢ .

تعيث فساداً في الأرض ولم يكن للوالي التركي قيمةُ ولا هيبة - هذا هو تقييم شوقي للترك، فكيف يقول الدكتور هيكل إن شوقي كان يرى الأتراك بدون نقيصة!!

وإذا كان النقاد قد أخذوا بعض المآخذ على المتنبي، فإن مآخذ شوقي نادرة - وبالرغم من ذلك فقد هاجمه كبار النقاد في مصر هجوما عنيفا وبلا هواده، كما رأينا. وقد بَيّنَا أن النقد الذى وُجّه إلى شوقي لم يكن عادلا بل كان به كثير من التجنّي والبعد عن الحقيقة والصواب.

ولم ينصف شوقي في حياته إلا قلة من النقاد، كما أن شعراء الوطن العربي كرّموه بتنصيبه أميرا لشعراء العربية.

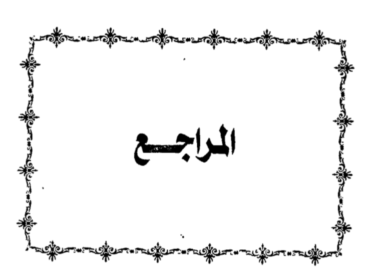
ويرحل شوقي إلى رحاب الله، ويعود الأستاذ العقاد، والأستاذ المازني إلي الحق، فيكرمون شوقي ويرفعون من قدره، والرجوع إلي الحق فضيلة...

وإذا كان بعض النقاد قد تجنوا على المتنبى وشوقى، فان للشعراء رأىٌ مخالف،فالشعراء يشعرون بما لا يشعر به البشر، ويرون ما لا يراه عامة الناس، فقد كرّم المتنبى وشوقى باقةٌ من كبار شعراء العربية ورفعوهما إلى أعلى مراتب النبوغ والتفوق كما دونّا في هذا الكتاب.

وتمر السنون وتتوالي الأحقاب، وتفنى الأوهام، وتبقى الحقيقة كالشمس الساطعة ويظل المتنبي إماما ويظل شوقي أميرا لشعراء العربية، خالدين خلود الدهر.

الأسكندرية ديسمبر ٢٠٠١

مصطفى الرفاعى



المراجع

المراجـــع

١- القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

٢- إبراهيم عبد القادر المازنى:

حصاد الهشيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١ م.

٣- ابن الرومى:

ديوان ابن الرومى ٣ أجزاء - دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٤م.

٤- أبو الطيب المتنبى حياته وشعره:

المكتبة الحديثة للطباعة والنشر بيروت ١٩٨٢م.

٥- أبو العلاء المعرى:

أ- سقط الزند - دار صادر بيروت ١٩٩٢م.

ب- لزوم ما يلزم (مجلدين) - دار صادر بيروت.

٦- أبو تمام:

شرح ديوان أبى تمام - دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٨١م.

٧- أحمد زكى عبد الحليم:

أحمد شوقى شاعر الوطنية - المكتبة الناصرية بيروت ١٩٥٨م.

٨- أحمد شوقى (الشاعر):

أ- الشوقيات الصحيحة:

أربعة أجزاء دكتور مصطفى الرفاعى - منشأة المعارف بالأسكندرية ٢٠٠٠م.

ب- الشوقيات المجهولة:

آثار شوقى التي لم يسبق نشرها للدكتور محمد صبرى (السوربونى) في جزئين مطبعة دار الكتب ١٩٦١ - ١٩٦٢م.

جـ - مسرحيات شوقى:

مصرع كليوباترة	دار مصر للطباعة
قمبيز	شركة فن الطباعة
عنترة	شركة فن الطباعة
مجنون ليلى	دار مصر للطباعة
على بك الكبير	شركة فن مصر
الست هدى مطابع	دار الكتاب العربى
البخيلة	مكتبة مصر بالقاهرة
أميرة الأندلس	المكتبة التجارية الكبرى

د- أسواق الذهب: مكتبة مصر القاهرة ١٩٩٣ .

٩- إيليا حاوي أعلام الشعر العربى الحديث.

المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ١٩٧٠م.

١٠- بشارة الخوري (الشاعر):

شعر الأخطل الصغير - دار الكتب العربى بيروت.

١١- جوزيف الهاشم:

أبو الطيب المتنبى شاعر الطموح والعنفوان - دار المفيد لبنان ١٩٨٢م.

١٢- حافظ إبراهيم (الشاعر):

ديوان حافظ إبراهيم - دار العودة بيروت.

١٣- حلمي مرزوق (الدكتور):

شوقى وقضايا العصر والحضارة - دار النهضة العربية بيروت ١٩٨١ .

١٤- زكى مبارك (الدكتور):

أحمد شوقى - المكتبة الناصرية بيروت ١٩٨٨م.

١٥- شوقى ضيف (الدكتور):

شوقى شاعر العصر الحديث - دار المعارف القاهرة ١٩٥٣م.

١٦- عباس محمود العقاد:

مطالعات فى الكتب والحياة - دار الفكر ١٩٧٨م.

١٧- عبد التواب يوسف:

ديوان شوقي للأطفال - دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٤م.

١٨- عبد الرحمن الرافعى:

شعراء الوطنية المصرية - دار المعارف القاهرة ١٩٦٦م.

١٩- عبد العزيز الدسوقى (الدكتور):

في عالم المتنبى - دار الشروق القاهرة - بيروت ١٩٨٤م.

٢٠- على الجارم:

ديوان على الجارم - دار الشروق القاهرة ١٩٨٦م.

٢١- علي أدهم:

على هامش الأدب والنقد - الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٨م.

٢٢- علي النجدى:

الدين والأخلاق فى شعر شوقى - مطبعة كوستاتوماس ١٩٤٨م.

٢٣- طه حسين (الدكتور):

مع المتنبى - دار المعارف بمصر ١٩٨٦م.

٢٤- طه حسين (الدكتور):

تجديد ذكرى أبى العلاء - دار المعارف القاهرة ١٩٥١م.

٢٥- طه حسين (الدكتور):

مع أبى العلاء في سجنه - دار المعارف القاهرة ١٩٦٣م.

٢٦- المتنبى:

ديوان المتنبى - دار صادر للطباعة والنشر - بيروت ١٩٦٤م.

٢٧- محمد إبراهيم سليم:

أبو الطيب المتنبى (شعراء العرب والإسلام) - دار الطلائع القاهرة ١٩٩٧م.

٢٨- محمود غنيم:

شعر محمود غنيم - دار الغد العربى. ١٩٩٣م.

٢٩- مصطفى الرفاعى (الدكتور):

فى رحاب شوقى - منشأة المعارف بالإسكندرية ٢٠٠٠م.

٣٠- منير سلطان (الدكتور):

الإيقاع الصوتى في شعر شوقي الغنائى - منشأة المعارف بالإسكندرية ٢٠٠٠م.



الفهرس

الفهـــــرس

الصفحة

الصفحة



المؤلف: الدكتور / مصطفى أمين الرفاعى

استاذ جراحة المسالك البولية بطب الأسكندرية

● له دراسات أدبية وتاريخية وكتب خواطر طبيب وفى رحاب شوقي وأحاديث الأجداد والشوقيات الصحيحة.

● له أبحاث في تاريخ الطب والحضارة الطبية الاسلامية.

● نشرت له الصحف والمجلات داخل وخارج مصر مقالات فى الأدب والتاريخ.

● قدم المؤلف في هذا الكتاب أميرَيْ شعراء العربية، المتنبى وشوقى، وقدم دراسة وافية عن عصريهما، القرن العاشر الميلادى «الرابع الهجري»، والقرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين «الرابع عشر والخامس عشر الهجريين» ثم قدم دراسة للمقارنة بينهما في أغراض الشعر المختلفة: الدين والأخلاق، الوصف، الفخر، المدح، الهجاء، الرثاء، المرأة، قضية السيف والقلم، الفكاهة والحكمة. وناقش المؤلف نُقّاد كلاَ العبقريَيْن، وفَنّد كثيرا من تجنيهم على كليهما.

والكتاب يؤرخ لفترتين من أزهى عصور الأدب والمعرفة العربية، القرن العاشر، والقرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين.

